

صدى القرآن

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

تصدر عن

دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة




بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراف العام
سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي
المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

الإشراف الإداري
الشيخ حسن المنصوري
م. دار القرآن الكريم

رئيس التحرير
أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي
جامعة كربلاء

مدير التحرير
.....
دار القرآن الكريم / قم المقدسة

سكرتير التحرير
الشيخ علاء حسين النعماني
دار القرآن الكريم

الهيئة الاستشارية
السيد رياض الحكيم
.....
أ.د بلاسم عزيز شبيب
د. الشيخ عماد الكاظمي

المقوّم العلمي
السيد مرتضى جمال الدين
م. مركز البحوث والدراسات القرآنية
دار القرآن الكريم

التدقيق اللغوي
د. مجيب سعد / جامعة كربلاء

التنسيق والعلاقات العامّة
د. حميد جاسم الغرابي / جامعة كربلاء
الحافظ منتظر حسن المنصوري
م. مركز التبليغ القرآني الدولي

التصميم والإخراج الفنّي
أسامة جبار

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣م

ضوابط النشر

١-تُنشر المجلّة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.

٢- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحةA4 ، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.

٣-تقديم ملخص للبحث في صفحة مستقلّة، على أن يحتوي كلّ ملخص على عنوان البحث واسم الباحث، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).

٤-تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة بالطريقة الآتية: (اسم الكتاب، المؤلف، اللقب: ج...، ص...)، ويزوّد البحث بقائمة المصادر مستوفاة التفاصيل في آخره.

٥- أن لا يكون البحث قد نُشر في أيّ كتابٍ أو مجلةٍ أو موقعٍ الكتروني.

٦- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبِّر عن رأي كاتبها.

٧-تُرسل الأبحاث على البريد الإلكتروني أدناه، أو تُسلّم إلى أسرة المجلّة.

(sadaalqurandq@gmail.com) كربلاء المقدسة

(im.hu.qu@gmail.com) قسم المشرّفة

المحتويات

١ الافتتاحية ٩

٢ الأسس المنهجيّة لتحليل النص القرآني (تحليل آية البسملة أنموذجاً)
أ. م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي ١١

٣ المدونة المغلقة منهج إلى تفسير القرآن بالقرآن
أ. د. حسن عبد الغني الأسدي / جامعة كربلاء-كلية التربية للعلوم الإنسانية ٤٧

٤ اللفظ القرآني بين القوة والفعل
د. أحمد حسين جاسم محمد الصفار ١٠٣

هل كانت لغةُ القرآنِ مُعرَبَة
الأستاذ المساعد الدكتور عادل عباس النصراوي / كلية التربية الأساسية – جامعة الكوفة ٥ ١٦٧

دروس عمليّة من قصة البقرة
د. نعمة النجار / استاذ في جامعة المصطفى العالمية– قم المقدسة ٦ ١٨٣

الأساليب الإنشائية في سورة البقرة (دراسة بلاغية فنية)
عدنان جاسم كريم الطائي ٧ ٢٠١

المقدس الديني في المنظور القرآني
د.م. هدى عباس * م. حوراء كاظم جواد ٨ ٢٤٥

المرض والصحة في القرآن الكريم
د. محمد جواد اسكندرلو / استاذ مشارك وعضو الهيئة العلمية – جامعة المصطفى العالمية ٩ ٢٦٩

منهجيّة القرآن في معالجة الطلاق وأثرها على استقرار الأسرة والمجتمع
السيد بدري عباس الأعرجي ١٠ ٢٩١

الصحة النفسيّة رؤية في القرآن الكريم
م. د. خمائل شاكر الجماليّ / جامعة بغداد – مركز إحياء التراث العلمي العربي ١١ ٣٢٥

الافتتاحية

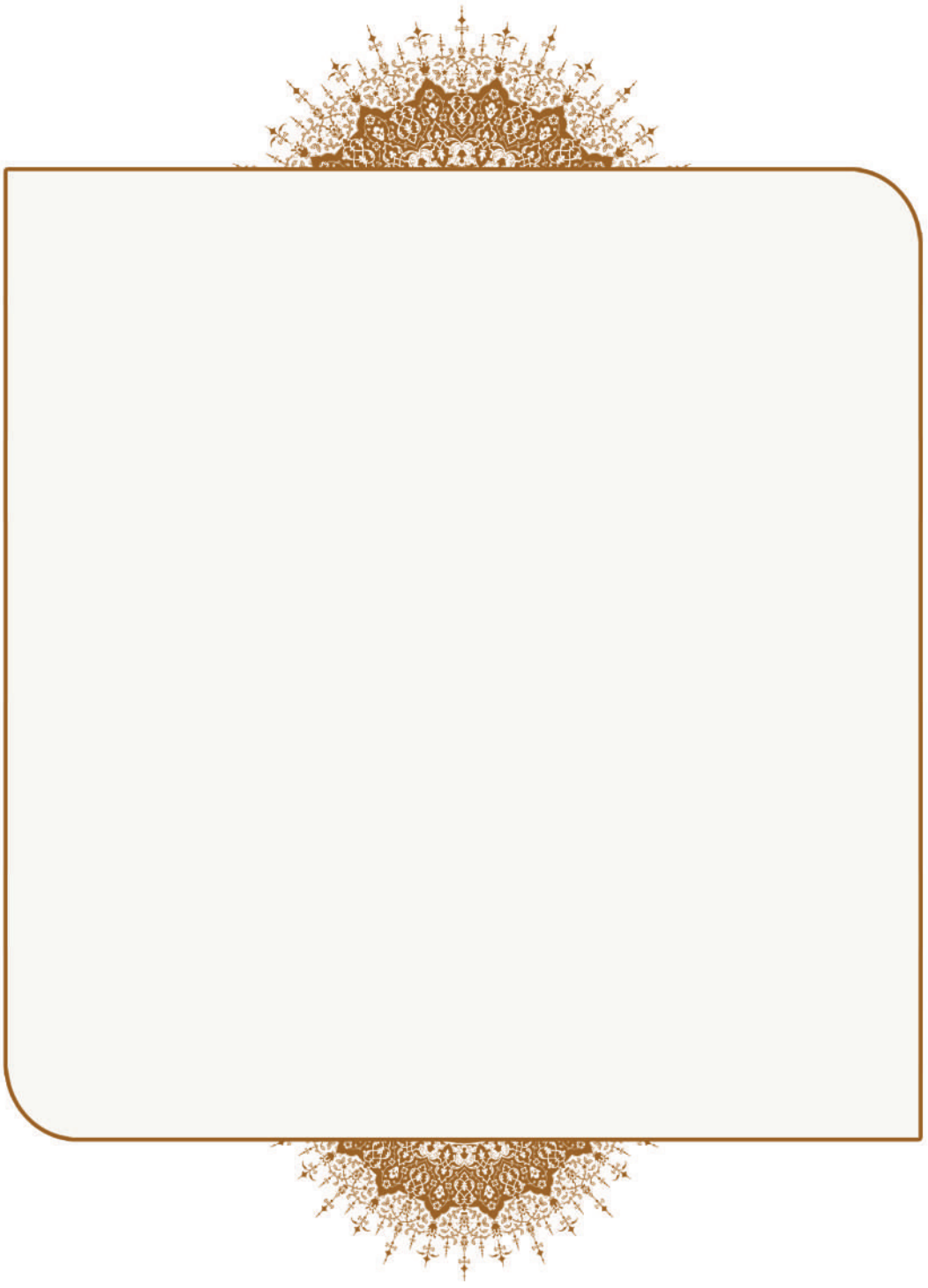

١

الأسس المنهجيّة لتحليل النص القرآني
تحليل آية البسملة أنموذجاً

أ. م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي

مقدمة

لقد تعددت المناهج التفسيرية، ومن هذه المناهج هوالمنهج التحليلي[١]، الذي يعد أكملها؛ لأنه يتناول جميع المستويات المتصورة في النص القرآني، فهويقف على المستوى المعجمي، والمستوى الصرفي، والمستوى اللغوي، والمستوى البلاغي، والمستوى الدلالي، وغيرها من المستويات، حتى يخرج بفهم دقيق لمراد الله عز وجل، فالمنهج التحليلي ليس وليدا جديدا وانما ظهر في الأيام الأُولى لنزول القرآن الكريم، التي شرع بها المسلمون لفهم كتاب الله عز وجل، فلا يتجاوزن الآية حتى يقفوا على معناها وفهمها، وكان هذا الفهم على مستويات ومراحل مختلفة ولاسيما بعد أن تطورت العلوم وتخصصت، فهنا بدأت معالمه تظهر وتتحدد شخصيته، وأخذ الباحثون يهتمون به كثيرا؛ لما يمتاز به من دقة وموضوعية، يقول احد الباحثين: (ان الفضل في تحليل النص يرجع الى القرآن نفسه، الذي أغرى العلماء ببحث أحكامه وأسراره وبنيته المحكمة المحبوكة، ومعانيه الفياضة، وبلاغة أسلوبه الساحر الذي يعلوولا يعلى عليه ونفاسة حجاجه وقوة اقناعه)[٢].

ومن هنا جاءت هذه المحاولة لإظهار الأسس التي يقوم عليها هذا المنهج، مستشعرا أهميته وحاجة القارئ للوقوف على هذا المنهج، فاقتضت منهجية البحث ان يكون على مبحثين تناول الأول مفهوم التحليل في اللغة والاصطلاح معرجا على أهميته، وأهم آلياته أما المبحث الثاني فكان ميدانا تطبيقيا لآية البسملة في عملية التحليل.

(١) وان ذهب بعضهم الى انه اسلوب.

(٢) عكاشة: محمود: تحليل الخطاب في ضـــوء نظرية أحداث اللغـــة، ط١-٢٠١٣م، دار النشـر للجامعات، القاهرة - مصر:١٢.

المبحث الأول
تحليل النص القرآني لغة واصطلاحا

المطلب الاول: التحليل في اللغة وفي الاصطلاح:

اولا: التحليل في اللغة:

التحليل مصدر حلل، يقول ابن فارس: ان فروع هذا الاصل كثيرة، وأصلها كلُّها عنده ترجع الى معنى واحد وهو: فَتْح الشيء، وقال: لا يشذُّ عنه شيء يقال حلَلْتُ العُقدةَ أحُلُّها حَلاًّ[٣]. أي اذا فتحتها، ومثله في المعجم الوسيط؛ إذ يقول: وحلل (الشيء رجعه إلى عناصره يقال حلل الدم وحلل البول، ويقال حلل نفسية فلان درسها لكشف خباياها)[٤]. والتحليل على وزن تفعيل وهوللمبالغة والتكثير، وجاءت لفظة التحليل في استعمال العرب بمعنى التفتيت والتفكيك والاستخراج، قال عبدة بن الطبيب يصف ثورا:

يخفي التُّرَابَ بأَظْلافٍ ثَمانيةٍ في أَربعٍ مَسَّهنَّ الأَرْضَ تَحْلِيلُ[٥]

أراد أنه يظهر التراب ويستخرجه باظلافه.

وقال كعب بن زهير:

تخدي على يَسَراتٍ وهي لاحقةٌ ذوابلٍ مسَّهنَّ الأرضَ تحليلُ[٦]

أراد ان مسَّ خفافها الارض يفتتها ويجزؤها.

ثانيا: التحليل في الاصطلاح:

هوارجاع الآية إلى عناصرها وبيان أجزائها المكونة لها، ووظيفة كل منها، والتعرف على أنواع العلاقات بين مفرداتها، مع

(٣) ينظر: ابوالحسن: احمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة ٢: ٢٠، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ١- ١٤٠٤هـ، طبع ونشر: مكتب الاعلام الاسلامي، قم - ايران.

(٤) المعجم الوسيط مادة حلل.

(٥) عكاشة: محمود: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، ط١-٢٠١٣م، دار النشر للجامعات، القاهرة - مصر:١٢.

(٦) كعب بن زهر: الديوان، تحقيق: علي فاعور، ط١- ١٩٩٧، طبع ونشر: بيروت - لبنان: ٦٤.

بقاء الكلمات نفسها في الجمل أوالجمل الاخرى[٧].

وقال محمود عكاشة: هوتفكيك النص وحلّه الى وحداته التي أسهمت في بنائه الشكلي ودلالته، للتعرف على وظيفة كل عنصر منها في الخطاب، واثره فيه لاستنباط أسراره ومقاصده[٨].

إنَّ مسألة التحليل هي بيان أصل المفردة، وعلاقتها بالموضوع الذي سيقت له، وبيان دلالتها، مع ذكر الاشارة أوالايحاءات التي تحويها، وعلاقة المفردة بالجملة والمفردة، ومطابقة المفردة للمعنى المساقة من أجله. والوقوف على جميع ما يمكن الوصول إليه من العلاقات والعلل على اختيار لفظة دون غيرها.

ثالثا: تعريف تحليل النص القرآني:

ان المعنى الاصطلاحي لا يبتعد عن المعنى اللغوي، فقد استعمل في المعنى نفسه، ويمكن ان نعرفه: بانه علم يُعنى بتوضيح النص القرآني بأسلوب تجزئته الى عناصره المكونة له، بالوقوف على كل مفردة، وتركيب، والتعرف على انواع العلاقات بين أجزائه ومكوناته، بالوقوف على مستويات الخطاب اللغوية، وصولا الى فهم دقيق وسليم.

المطلب الثاني: أهمية موضوع تحليل النص القرآني:

١- إنَّ أبرز ما يميز هذا المنهج أنه شامل؛ لأنه يعتمد كل ما يمكن أن يدخل في فهم النص القرآني من علوم تعين في فهم النص والوصل الى الغاية المرجوة، فهو يعتمد كبريات مسائل القرآن نفسه؛ لأن بعض الاحكام جاء مجملا في موطن بُيّن في

(٧) الحمداني: محمد صالح: منهج التفسير التحليلي للنص القرآني: ١٣. ط١- ٢٠٠٩ هـ، نشر مركز البحوث الاسلامية المعاصرة، بغداد العراق.

(٨) عكاشة: محمود: تحليل الخطاب:١١.

موطن آخر، ومما يعتمد في تحليل النص القرآني الحديث الشريف؛ لان السنة الشريفة جاءت مبينة لما اجمل في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ﴾[٩]، ومما يفيد المحلل كتب التفسير المعتبرة، وعلوم القرآن، وآيات الاحكام، وقصص الانبياء، وتأريخ الامم الماضية، اضف الى ذلك علوم اللغة من نحو، وصرف، وبلاغة، وعلوم القرآن، لان القرآن جاء بلغة العربي، وغيرها مما يمكن ان يخدم المحلل.

٢- يتميز هذا المنهج بأنه يحمل الباحث على التفكر، واجالة النظر، لاستخراج ما يستفاد من النص، وهذا لا يتأتى الا بوقفات طويلة على مفاصل النص، وظلال النص، وتأمل بالغ للوصول الى أقرب المعاني للواقع.

(٩) سورة ابراهيم: ٤.

٣- إنَّ الخطوات العلمية المتبعة في منهجه تنمي لدى الباحث عملية الاستنتاج واكتشاف العلاقات بين الآيات، وتنمي لديه دقة العمل، والقناعة بسبب الاختيار والترجيح.

٤- إنَّ هذا المنهج يحمل الباحث على مراجعة علوم كثيرة بسبب المستويات المتعددة التي يبحثها، أولإثبات قضية ما، أوإنَّه يقف على رأي لم يطلع عليه مسبقا، زمن ثَمَّ فهذا يؤدي الى زيادة الحصيلة العلمية لدى الباحث.

٥- إنَّ عملية تحليل النص ميدان تطبقي للعلوم النظرية، التي درسها الباحث خلال مراحل حياته العلمية، إذ ان القبليات المعرفية تتضافر للوصول الى ادق مراتب الفهم.

٦- إنَّ أجود طريقة للتعايش مع جوالنص هومنهج تحليل النص؛ لأنه يكشف عن الدقة في التعبير، وترابط السياق، والاختيار المناسب للكلمات، وتقديم بعضها على بعض، وحذف كلمة، أواظهار أخرى، وغيرها.

٧- خير مكان لظهور شخصية الباحث وما يمتلك من قدرات معرفية هوتحليل النص؛ لانَّ من خلاله تظهر قدراته من حيث العرض، والتنسيق، والاستنتاج، واكتشاف العلاقات بين المفردات والجمل، والترجيح المبني على الدليل.

٨- يمكن الاستفادة من هذا المنهج كأسلوب عمل للحياة اليومية إذ بالوقوف على هذا الكم الهائل من العلوم والمعارف حري بنا ان نطبق هذا ولوبالقدر المستطاع فهومنهج معرفي واجتماعي.

٩- بما أنَّ المستويات التي تدرس فيه متعددة؛ كالمستوى العقدي، والعملي، والاخلاقي، فله غاية تنويرية تعمل على تقوية الايمان وزيادة ثقة الفرد بدينه من خلال استجلاء الظواهر المعجزة فيه. بل يتعدى ذلك ويكون له غاية وهدف دفاعي عن الهية القرآني واعجازه.

١٠- بما أنَّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة، وأنه صالح لكل عصر، فان منهج تحليل النص يجمع بين الاصالة والمعاصرة، من خلال اظهار صور الاعجاز العلمي التي سبق بها الآخرين بقرون، مع العلم بالبيئة التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وآله.

١١- إن تحليل النص منهج عملي يساعدنا في بناء خطاباتنا

على غراره لما فيه من الدقة اللغوية والعلمية، والمنهج الحكيم في حواراته، واسلوبه العلمي في المناظرة والاقناع، مع مراعاة الجانب الانساني والزماني والمكاني. فهوخير مرشد للأديب والبليغ والخطيب[١٠].

المطلب الثالث: مصادر تحليل النص القرآني:

ان تحليل النص القرآني يستمد مادته من مصادر يرجع إليها المحلل للنص عند تحليله للنص، وهذه المصادر هي: القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وأقوال أهل اللغة، وكتب التفسير؛ ونبينها بهذا الاجمال:

أولا: القرآن الكريم: وهويقوم على بيان بعض آيات القرآن الكريم بآيات أخرى لعلاقة بينهما، وهوما يسمى تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن الكريم يعد المصدر الأول لبيان معانيه؛ لأن المتكلم به عز وجل، وهوأولى من يوضّح مراده بكلامه؛ فإذا تبيّن مراده به منه، فإنه لا يُعدل عنه إلى غيره.

فهوأول مستوى من مستويات تفسير القرآن الكريم، وإنه من أبلغ التفاسير، فإنّ اللجوء الى بعض الآيات في فهم آيات أخرى وتفسيرها منهج علمي سليم، وقد وضع الامام علي عليه السلام اساس هذا المنهج بقوله: «القرآن ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»[١١].

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن هوتفسير الامام علي عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾[١٢]، إذ فسّرها عن طريق ردها الى قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ

(١٠)
(١١) نهج البلاغة ٢: ١٧.
(١٢) من الآية ١٥ من سورة الاحقاف.

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[١٣]، فاستخرج من الآية الاولى والثانية من القرآن الكريم إنَّ أقل مدة للحمل هي ستة أشهر.

فالرجوع إلى آيات من القرآن الكريم لتفسير آيات أخرى مبدأ أساس من مبادئ اكتشاف المعاني القرآنية، وحمايتها من التحريف والتزييف، لاسيما في مجال العقيدة والفكر.

ثانيا: السنة النبوية الشريفة: إنَّ المصدر الثاني لفهم القرآن الكريم السنة النبوية، وهي مصدر متفق عليه؛ لان مهمة النبي صلى الله عليه وآله هي هداية الناس الى الصراط المستقيم، وهذه الهداية تقوم على البيان، والتوضيح لمعالم الشريعة؛ وهذا ما صرح به الكتاب الكريم والسنة الشريفة، أما الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَالعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[١٥].

ومن خلال تتبع علاقة القرآن الكريم بالسنة الشريفة نجدها لا تخلوواحدة من ثلاث وهي:

الاولى: أنْ نتكون مؤكدةً لما في القرآن الكريم، فيكون توارد القرآن الكريم والسنة في الحكم الواحد موافقة له من كل وجه، كما في كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام في فضل العبادات.

الثانية: أن تكون السنةُ مُبَيِّنَةً للقرآن الكريم؛ أي أَنْ تَكُونَ بَيَانًا لِمَا أُرِيدَ بِالقرآن الكريم وَتَفْسِيرًا لَهُ، كقول الإمام الصادق عليه السلام «في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[١٦]،

(١٣) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.
(١٤) النحل: ٤٤.
(١٥) سورة ابراهيم: ١٤.
(١٦) سورة النساء: ١٠٣.

قال: مفروضاً». وعن أبي بصير ـ يعني المرادي ـ قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «صلاة الوسطى صلاة الظهر وهي أوّل صلاة أنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وآله»[١٧].

الثالثة: انْ تَكُونَ السنة مُؤسسَة أي مشرعةً لِحُكْم لم يرد في القرآن الكريم إيجَابِهِ أَوتَحْرِيمِه[١٨]. كما في حديثُ القاسم بن سليمان قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجل قتل أمه أيرثها؟ قال: سمعت أبي عليه السلام يقول: أيما رجل ذورحم قتل قريبه لم يرثه»[١٩]. فهذا الحكم لم يرد في القرآن الكريم، ولكن السنة الشريفة أسست له، وشرعته.

ومن مما تقدم لابد لمن يشرع في تحليل النص القرآني من الرجوع إلى السنة لمعرفة أحكام الشريعة من صاحبها؛ لأنه أعرف بها من غيره.

ثالثا: علوم اللغة العربية: بما أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب فلا بد لمن يخوض في هذا العلم من أن يكون مطلعا على علوم العربية حتى يعرف طرائق أداء المعنى، وأساليب الخطاب حتى يقف على تلك المعاني، التي اتبع بها القرآن منهج العرب في لغتهم، فعَنْ أَبِي يَعْقُوبَ الْبَغْدَادِي، قَالَ: قَالَ ابْنُ السَكِّيت[٢٠]، قَالَ أَبُوالْحَسَنِ الرضا عليه السلام: (... إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله فِي وَقْتٍ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الْخُطَبَ وَالْكَلَامَ وَأَظُنُّهُ قَالَ الشِّعْرَ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ مَوَاعِظِهِ وَحِكَمِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ وَأَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِم..)[٢١].

اذاً من خلال المعرفة الدقيقة لعلوم اللغة نستطيع تصور تلك

(١٧) الحر العاملي: الوسائل ٤: ٢٢.

(١٨) ظ: ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط١- ١٩٧٣، تح: عصام الدين الصبابطي، نشر: دار الحديث، القاهرة- مصر. ٢: ٥٢٧، والحكيم: محمد تقي: الاصول العامة للفقه المقارن، ط٤-٢٠٠١م، طبع ونشر: المؤسسة الدولية، بيروت- لبنان. ٢٤٢.

(١٩) الكليني: الكافي ٧: ١٤٠.

(٢٠) ابن السكيت- بكسر السين وشد الكاف- هوأبويوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازى الشيعى أحد أئمة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرخين وأثنوا عليه وكان ثقة جليلا من عظماء الشيعة ويعد من خواص الامامين التقيين عليهما السلام وكان حامل

المستويات من الاعجاز التي جاء بها القرآن الكريم، فمن لا حظَّ له بعلوم العربية لا يمكنه الخوض في هذا المضمار.

رابعا: **الاطلاع على تأريخ العرب**: ان الاطلاع على تاريخ العرب يُوقف المحلل على أجواء النص وأسبابه، والوقوف على أحوال من كان يعيش معهم من الشعوب والقبائل الاخرى؛ لأن القرآن الكريم له موقف مما كان سائداً من العادات والتقاليد فقد امضى بعضها، وحرم بعضها، كما تناول تأريخ تلك الشعوب على سبيل التعريض تارة، وأخرى على سبيل العبرة، وغيرها من مبررات التعرض لتلك الشعوب.

المطلب الرابع: الأصول العامّة لتحليل النص القرآني:

هنا مجموعة من الاصول استفدتها بعضها من استاذنا الفاضل كاصد الزيدي وهي ايضا منشورة، فنقول: لا بدّ للباحث المحلل للنص القرآني من اعتماد أصول عامّة منوّعة، تعينه على فهم النص الكريم فهمًا دقيقًا شاملاً، يتناول أُطُرَه المختلفة وصوره المتعددة، بما فيها من معان وجمال وأساليب.

ويمكن إجمال هذه الأصول العامّة بما يأتي:

١. فهم النص المراد تحليله فهمًا جيّدًا أوّلاً، وذلك بالرجوع الى كتب التفسير ومعاني القرآن الكريم، وكتب مفردات القرآن الكريم، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم، وكتب إعجاز القرآن الكريم، وما إليها. وذلك لطبيعة النص القرآني فقد جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِي قَالَ: (سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ شَيْءٍ مِنَ التَّفْسِيرِ فَأَجَابَنِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ ثَانِيَةً فَأَجَابَنِي بِجَوَابٍ آخَرَ، فَقُلْتُ

لواء علم العربية والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة منها كتاب تهذيب الألفاظ وكتاب إصلاح المنطق قتله المتوكل في خامس شهر رجب سنة ٢٤٤ وسببه أن المتوكل قال له يوما: ايما أحبّ إليك ابناى هذان اي المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال ابن السكيت: والله إن قنبرا خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك فقال المتوكل للاتراك: سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات، وقيل: أثنى على الحسن والحسين عليهما السلام ولم يذكر ابنيه فامر المتوكل الاتراك فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم رحمة الله عليه. (٢١) الكافي (ط - الإسلامية)، ج١، ص: ٢٤.

جُعِلْتُ فِدَاكَ كُنْتَ أَجَبْتَنِي فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ بِجَوَابٍ غَيْرِ هَذَا قَبْلَ الْيَوْمِ فَقَالَ: يَا جَابِرُ إِنَّ لِلْقُرْآنِ بَطْناً وَلِلْبَطْنِ بَطْناً وَلَهُ ظَهْرٌ وَلِلظَّهْرِ ظَهْرٌ يَا جَابِرُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْعَدَ مِنْ عُقُولِ الرِّجَالِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِنَّ الْآيَةَ يَكُونُ أَوَّلُهَا فِي شَيْءٍ وَآخِرُهَا فِي شَيْءٍ وَهُوَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ مُنْصَرِفٌ عَلَى وُجُوهٍ)[٢٢].

٢. الرجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام المعتبرة، إذ ارسى اهل البيت قواعد التفسير، وبينوا ما أجمل من خلال احاديثهم وخطبهم، والا وقعنا في التخبط وعدم معرفة مراد الله عزوجل، ومن خلال مراجعة كتب الشأن القرآني تجلى لي ان هناك اخطاء كبيرة تحتاج الى تنقيح على وفق تلك الروايات المعتبرة، واذكر مثالا واحد حتى لا تكون مجرد دعوى، في قوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾[٢٣]، عدَّ جل المفسرين أنَّ فاعل (أملى) هو عين فاعل (سوّل)، لكن من خلال روايات أهل البيت عليهم السلام نستطيع أن نميز الضمير المستتر في (سوّل وأملى)، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام في وصيته لكميل: «..﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾، وَالْمُسَوِّلُ الشَّيْطَانُ، وَالْمُمْلِي اللهُ تَعَالَى»[٢٤]. وهذا ليس مقتصرا على طرق الخاصة بل جاء عن طرق العامة جاء في تفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٠٥هـ): «الشيطان سوَل لهم يعني: زين لهم ترك الهدى، يعني إيمانًا بمحمد صلى الله عليه وآله، وأملى الله لهم»[٢٥].

٣. توظيف مطالب علوم القرآن الكريم في تحليل النص إذ انها تُعين على استجلاء معانيه، ومن أجل فهمه فهمًا سليمًا متكاملاً،

(٢٢) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد: المحاسن؛ ط٢-١٣٧١ هـ الناشر: دار الكتب الإسلامية، قم- ايران ٢: ٣٠٠.

(٢٣) سورة محمد الآية ٢٥

(٢٤) بشارة المصطفى لشيعة المرتضى (ط - القديمة) / ج٢ / ٢٧ / ص: ٢٤

(٢٥) جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف محمد بن جرير الطبري.

ومثال ذلك الرجوع إلى (أسباب النزول)، إذ إنها تعين على فهم النص المراد تحليله، وتكشف عن ظروفه التي صحبته عند نزوله، من حيث الزمان والمكان والأحداث. ومثله تماما علم (المكي والمدني)؛ إذ غالبا ما نجد ان الآيات المدنية حاكمة على الآيات المدنية، فلا يمكن التعويل على الآيات المكية ما لم نلاحظ الآيات المدنية؛ لأنها متأخرة عنها، والمتأخر هوالذي يعول عليه في مراد الشارع إذ ان بعض الآيات يصيبها النسخ. وهذا يظهر جليا من خلال المناظرة التي جرت بين مُحَمَّد بْنَ النُّعْمَان صَاحِبَ الطَّاق[٢٦] وابي حنيفة، إذ قال ابوحنيفة: (يَا أَبَا جَعْفَرٍ، إِنَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي[٢٧] (سَأَلَ سَائِلٌ) تَنْطِقُ بِتَحْرِيمِ الْمُتْعَةِ، وَالرِّوَايَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَدْ جَاءَتْ بِنَسْخِهَا. فَقَالَ لَهُ أَبُوجَعْفَرٍ: يَا أَبَا حَنِيفَةَ، إِنَّ سُورَةَ «سَأَلَ سَائِلٌ» مَكِّيَّةٌ، وَآيَةَ الْمُتْعَةِ مَدَنِيَّةٌ)[٢٨].

ومن علوم القرآن الكريم التي ينبغي على المحلل أن يلتفت إليها، معرفة (الْمُحْكَم والمتشابه)؛ لأنها ضرورة أكدها آل البيت عليهم السلام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُبْرُمَةَ قَالَ: مَا أَذْكُرُ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ عليه السلام إِلَّا كَادَ يَتَصَدَّعُ قَلْبِي، قَالَ: قَالَ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ أَفْتَى النَّاسَ وَهُوَلَا يَعْلَمُ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ فَقَدْ هَلَكَ وَأَهْلَكَ)[٢٩].

وتتجلى أهمية بحث المحكم والمتشابه في مسائل العقيدة، وأهمها (متشابه الصفات)، صفات الله تعالى، فيجب ارجاع المتشابهات الى المحكمات لئلاّ يحملها المحلل للنص الكريم على غير المراد، وخير مثال ما عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى

(٢٦) هو محمد بن علي بن النعمان الاحول، أبو جعفر، الملقب بـ(مؤمن الطاق) قال في الفهرست: محمد بن النعمان الاحول (رحمه الله) يلقب عندنا بـ(مؤمن الطاق) ويلقبه المخالفون بـ(شيطان الطاق) من أصحاب أبي عبد الله، جعفر بن محمد، وكان ثقة متكلما حاذقا حاضر الجواب له كتب.

(٢٧) الآية التي في (سَأَلَ سَائِلٌ) هي قوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ المعارج: ٢٩ – ٣٠.

(٢٨) الكافي (ط – دار الحديث)، ج١١، ص: ١٣.

(٢٩) المحاسن؛ ج١؛ ص٢٠٦.

الرضا عليه السلام فَقَالَ لِي:.. إِذَا سَأَلُوكَ عَنِ التَّوْحِيدِ فَقُلْ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ* اللهُ الصَّمَدُ *لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٣٠]، وَإِذَا سَأَلُوكَ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ فَقُلْ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣١] وَإِذَا سَأَلُوكَ عَنِ السَّمْعِ فَقُلْ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ﴿هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَكَلِّمِ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ)[٣٢].

كما ينبغي على المحلل للنص الكريم الالتفات إلى (الناسخ والمنسوخ) من نصوص القرآن الكريم؛ لئلاّ يقع في وَهْم الأخذ بما هومنسوخ من الآيات، ولا سيّما ما يتعلق منها بالتشريع؛ إذ لا خلاف بين أهل العلم في أنّ المنسوخ لا يجوز العمل به، بل يعمل بالناسخ له. يقول الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام: (لِقَاضٍ هَلْ تَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ أَشْرَفْتَ عَلَى مُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْثَالِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ عليه السلام: إِذاً هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ)[٣٣].

٤. دراسة النص المراد تحليله لغويا، والوقوف على المستوى المعجمي للمفردة، والتركيز ابتداء على تفسير (الألفاظ القرآنية الغريبة)، التي تحتاج إلى شرح وبيان، وهوما يعرف بـ (غريب القرآن)، اللغة العربية من اغنى اللغات بالمصطلحات، التي واكبت تطور الفكر الاسلامي والعلوم الاسلامية، واستيعاب تراث الحضارة الانسانية. وكانت البداية من القرآن الكريم، الذي جاء بألفاظ كانت لها معان لغوية معينة، فأعطاها دلالات جديدة، كألفاظ الصلاة، والزكاة والايمان والكفر والتقوى،

(٣٠) سورة الاخلاص: ١-٤.
(٣١) سورة الشورى: ١١.
(٣٢) التوحيد (للصدوق)؛ ص٩٥.
(٣٣) مصباح الشريعة؛ منسوب الى جعفر بن محمد عليه السلام، ط١- ١٤٠٠ق طبع مؤسسة الاعلمى - بيروت؛ ص ١٧.

وغيرها كثير، فمعانيها اللغوية قبل الاسلام معروفة في معانيها، واستعملها القرآن الكريم في غير تلك المعاني، وبذلك يكون القرآن سنَّ للمسلمين سنة الاصطلاح. فلا بد من معرفة تلك المفردات وملاحظة العلاقة بين الوضع وبين الاستعمال. إذ أُلِّفتْ في هذا العلم كتب كثيرة قديمًا وحديثًا، من أشهرها (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، و(تفسير غريب القرآن) المسمى نزهة القلوب، لمحمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، و(مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني (ت ٤٢٠هـ).

ومثاله استعمال (حنيفا) للقويم من الدين، بدل (مستقيم)، على حين نجد ان اصلها في اللغة هوالميل والانحراف، يقول ابن فارس إنّ أصلها يدل على الميل[٣٤]، فانما اراد انه مائل عن الباطل الى الحق. وكذا في قصة امرأة إبراهيم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[٣٥]، إذ الظاهر من ضحكت، هوالضحك المعروف على حين نجد انها في الروايات عن أهل البيت أراد به (الحيض)، ففي رواية عن ابي عبد الله عليه السلام: «حَاضَتْ فَعَجِبَتْ مِنْ قَوْلِهِم»[٣٦]، وفي كتب اللغة يقول الخليل: (وقوله ﴿فضحكت فبشَّرناها﴾ يَعني طَمِثَتْ)[٣٧]. وغير ذلك من استعمالات دقيقة في تعبير القرآن، وتسمية الخوان (مائدة) اذا كان عليه طعام، كما في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[٣٨]، فملاحظة الدقة في استعمال الألفاظ وغريبها له أثر كبير في فهم النص القرآني الكريم.

(٣٤) ينظر معجم مقاييس اللغة ٢: ١١٠.
(٣٥) سورة هود: ٧١.
(٣٦) تفسير العياشي، ج٢، ص: ١٥٢.
(٣٧) العين ٣: ٥٨.
(٣٨) سورة المائدة: ١١٤.

٥. الوقوف على اللهجات العربية، بل ربما يتعدى ذلك الى اللغات غير العربية كالعبرية والحبشية والقبطية والهندية، ذات الصلة بفهم النص القرآني المراد تحليله وربطها قدر الإمكان بالمعنى المراد، فنجد أن البيئة العربية القديمة كانت توجد فيها اكثر من لهجة، كلهجة الحجاز ونجد، وتهامة، واليمن، وما إليها. فمثلا نجد ان كلمة (طه) في لغة (طي) تختلف عن غيرها من اللهجات، فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ وَأَبِي جَعْفَرٍ عليهما السلام، قَالا: (﴿طـه﴾ بِلُغَةِ طَيٍّ يَا مُحَمَّد)[٣٩]. ونقل ابن منظور والزبيدي انها اختلف في اصلها فقد قيل: سريانية، وقيل: نبطية، وقيل: حبشية[٤٠].

٦. الوقوف على حقيقة دلالة اللفظ أوالتركيب، إذ ان بعض الالفاظ أحدثها الإسلام بعد ظهوره، مثل (الزكاة)، إذ ان أصلها في اللغة: النماء والزيادة، يقال: زكاة الزرعُ: إذا كثُر ونما. ثم استعملها القرآن للدلالة على مقدار من المال يخرج من اجمالي المال عند توفّر الشروط المعتبرة في وجوبها، وتدفَع إلى بيت مال المسلمين.

ومثلها (الربا)؛ إذ أصله الزيادة من ربا يربو: إذا زاد، ثم استعملها القرآن في المال الذي يؤخذ زائدًا على القرض، وهوما حرّمه الإسلام بنص القرآن والحديث بشِدّة. ومن هذه الألفاظ الإسلامية (الكَلالة) في الإرث، وغير ذلك.

٧. ومن الامور المهمة ملاحظة العلاقات الدلالية بين الألفاظ في النص القرآني؛ إذ من خلالها تتجلي حقائق كثيرة، فتوصلنا الى فهم متكامل ولاسيما اذا علمنا أن القرآن يمثل منظومة متكاملة،

(٣٩) تفسير القمي؛ ج ٢؛ ص٥٧-٨٥.
(٤٠) لسان العرب٤: ٢٧١٤، وتاج العروس ٣٦: ٤٣١.

ومن هذه العلاقات: (الاشتراك)، و(التضادّ)، و(التقابل) بنوعيه: تقابل الضد والنقيض، وتقابل الخلاف، وكذلك علاقة (الترادف)، سواء أكان ترادفًا تامًّا، كما بين (البعل) و(الزّوج)، أم ترادفًا غير تام، كما بين (اليمين) و(الحِلْف)، و(الرُّؤيا) و(الحُلُم)، وغير ذلك. وخير مثال لملاحظة هذه العلاقات ما روي عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام إذ قَالَ: (..وَإِنَّمَا سُمِّيَ اللهُ تَعَالَى بِالْعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ حَادِثٍ، عَلِمَ بِهِ الأَشْيَاءَ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى حِفْظِ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِهِ وَالرَّوِيَّةِ فِيمَا يَخْلُقُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُفْسِدُ مَا مَضَى مِمَّا أَفْنَى مِنْ خَلْقِهِ مِمَّا لَوْلَمْ يَحْضُرْهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ وَيَغِيبُهُ كَانَ جَاهِلًا ضَعِيفاً كَمَا أَنَّا لَوْرَأَيْنَا عُلَمَاءَ الْخَلْقِ إِنَّمَا سُمُّوا بِالْعِلْمِ لِعِلْمٍ حَادِثٍ إِذْ كَانُوا فِيهِ جَهَلَةً، وَرُبَّمَا فَارَقَهُمُ الْعِلْمُ بِالأَشْيَاءِ فَعَادُوا إِلَى الْجَهْلِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ اللهُ عَالِماً؛ لأَنَّهُ لَا يَجْهَلُ شَيْئاً، فَقَدْ جَمَعَ الْخَالِقَ وَالْمَخْلُوقَ اسْمُ الْعَالِمِ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى)[٤١].

فهنا اراد ان يبين الامام ان معنى العلم ليس متواطئ وانما مشكك، وان علم الله ليس كعلم البشر، وان اتفق اللفظ.

٨. بيان (الدلالة الإيحائية) للألفاظ والتراكيب والتعابير القرآنية، وهي الدلالة التي يسمّيها المعاصرون (الإضافية)، أو(ظل المعنى) (Shade of meaning)، وهي من الدلالات ذات القيمة المعنوية العالية الدقيقة في تعبير القرآن، كالإيحاء الى عظيم ملك سليمان من خلال مجموعة من الالفاظ التي ذكرها القرآن كقوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾، إذ نستطيع تصور عظمة مملكة سيلمان من امرين: أحدهما ان القدور الراسية هي الثابتة

(٤١) الكافي (ط - الإسلامية) ج١؛ ص١٢٠.

على الاثافي لا تبدل لعظمتها، والتي يكون لازمها عظيم ما يوضع فيها من الطعام، ومن ثَمَّ عدد المطعومين، الاخر: ان لفظة القدور جمع. نذكر دلالة اخرى هوان الالهة لا يحتاج الى الامتلاء ولا الى الخلو وهذا مستفاد من كلامه تعالى عن السيد المسيح وأمّه عليهما السلام اذ قال تعالى:﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾(٤٢).

٩. الوقوف على الدلالة الرمزية في التعبير القرآني، بصورها المتعددة، واستجلاء معانيها، كرموز (الألوان) من بياض، وسواد، وخُضرة، وصُفرة، وزُرقةولاسيما ان القرآن قد استعملها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(٤٣)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(٤٤) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾(٤٥)، فكل لون له دلالة، بحسب ما ترمز إليه لدى العرب عند ظهور الإسلام. وكذلك رموز الحركات، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾(٤٦)، وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾(٤٧) فهاتان الحركتان دلالة ورمز على الندم، وقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(٤٨)، وهذا رمز للتعجب، ومن الرموز التي تبطنت دلالة الأصوات التي عُبّر بها حالات نفسية، كقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ

(٤٢) سورة المائدة: ٧٥.
(٤٣) سورة آل عمران: ١٠٦.
(٤٤) سورة الزمر: ٢١.
(٤٥) سورة طه: ١٠٢.
(٤٦)سورة آل عمران: ١١٩.
(٤٧) سورة الكهف: ٤٢.
(٤٨) سورة الذاريات: ٢٩.

امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾[٤٩] والتأفُّف (أُفّ)، كقوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٥٠] في التعبير عن التحسُّر والتضجُّر، وما إلى ذلك من رموز صوتية.

١٠. من الامور التي يجب الوقوف عندها (القرائن الدلالية) والمراد منها ما يصاحب النص، من أمور لغوية أوحالية أوعقلية تصرف اللفظ عن معناه الاصلي مبينة المعنى الذي يريده المتكلم، وهي ثلاث: اللفظية: وهي قسمان: السياقية وغير السياقية، والحالية (context of situation)، والعقلية: وهي التي سمّاها اللغوي المعاصر الشهير جومسكي (Competence)، أي (القُدرة)، ولنذكر مثال حتى تتضح الصورة أكثر قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٥١]، فلا يمكن ان نتصور مع عدل الله عز وجل ان من كان في الدنيا أعمى فان مصيره في الآخر يكون العمى أيضا، ولكن من خلال القرائن العديدة اللفظية، والحالية والعقلية نستطيع ان نعرف أنَّ المراد من الاعمى هوالضال عن سبيل الله عز وجل، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «... يا أبا بصير أ وما سمعت قول الله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عَمِيَ عَنْ فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ الله»[٥٢].

١١. الوقوف على الجانب النحوي في التراكيب المختلفة للنص المراد تحليله، إذ بعد تشكيل المصحف ووضع الحركات الاعرابية اصبحت دليلا على المعاني، فلا بد من مراعاة الجانب الإعرابي حتى لا نقع في تفسير خاطئ للنص، وهذا وحده لا

(٤٩) سورة الذاريات: ٢٩.
(٥٠) سورة الانبياء: ٦٧.
(٥١) سورة الاسراء: ٧٢.
(٥٢) تفسير العياشي، ج٢، ص: ٣٠٦.

يكفي أي الاعتماد على الجانب النحوي، فلا بد من تحكيم العقيدة في مسائل النحو، ففي قوله تعالى ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٥٣] لوقرئت بالكسر لما جاز اتباع الرسول؛ لان الله تعالى تبرأ من الرسول وحاشاه، وَرُوِيَ «أَنَّ أَعْرَابِيّاً سَمِعَ مِنْ سُوقِيٍّ يَقْرَأُ ﴿أَنَ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَرَسُولِهِ فَشَجَّ رَأْسَهُ فَخَاصَمَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ كَفَرَ بِاللهِ فِي قِرَاءَتِهِ، فَقَالَ عليه السلام: إِنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ذَلِكَ»[٥٤].

١٢. ومن المستويات المهمة التي يجب الوقوف عندها المستوى الصَّرْفي، وبيان علاقته بالمعنى؛ لان التصريف هوبناء الكلمة على وفق ما نريد من معنى، كصيغ (الأفعال)، مثل دلالة (فَعلة) على حدوث الفعل مرة واحدة، ودلالة (فِعلة) على هيئة الفعل، و(فَعَّلَ) على التكثير والتكرير، و(فاعَلَ) على المشاركة، و(فَعْلَلَ) على الاضطراب والحركة الشديدة، و(اسْتَفْعَلَ) دلالة على طلب الشيء، وغيرها من الصيغ، وكذلك صيغ (الأسماء)، مثل (فَعِلٌ) للدلالة على المبالغة، و(فَعُولٌ) كذلك، و(فَعّال) للتكثير... وغيرها من صيغ ذات دلالات معيّنة، بيان العلاقة بين (زيادة المبنى) و(زيادة المعنى)، كما بين (خَرْج) و(خراج) و(صَرَّ) و(صَرْصَرُ)؛ إذ الثانية منهما أبلغ من الأولى في المعنى، ولهذا قال سبحانه وتعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٥٥]، فأضاف الأكثر والأعظم إليه سبحانه وهو(الخراج) دون الخرج.

١٣. بيان (العلاقة الدلالية) بين الألفاظ والتراكيب في السياقات

(٥٣) سورة التوبة: ٣.
(٥٤) مناقب آل أبي طالب عليهم السلام (لابن شهر آشوب)؛ ج٢؛ ص٤٧.
(٥٥) المؤمنون: ٧٢.

التعبيرية المختلفة، وفي السياق الواحد، من نواح متعددة، مثل (الإبهام) و(البيان) في سياقين مختلفين ومتباعدين، كقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾(٥٦)، وقوله في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾(٥٧)، فأبهم في النص الأول بقوله: (سَبْعًا شِدَادًا)، ثم بيّن في النص الثاني ماهية السبع الشِداد. ومن هذا النوع المتعلق بالعلاقات الدلالية بين الألفاظ، علاقة (الإبهام)، ثم (البيان القائم على التفصيل) في سياق واحد متصل، وكقوله تعالى في صفة فريق من المؤمنين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥٨) إذ أبهم التعبير الكريم عملهم الصالح أوّلاً، مكتفيًا بوصفهم بأنهم كانوا محسنين في دنياهم قبل أن يقفوا بين يدي الله تعالى للحساب، ثم فصَّل في السياق بعده مباشرة، ماهية هذا الإحسان بثلاث صفات هي أنهم:

أوّلاً: كانوا يسهرون أكثر الليل في الصلاة، وذكر الله، وتلاوة القرآن.

وثانيًا: أنهم كانوا في أوقات السَّحَر، أي قبيل الفجر، يستغفرون الله تعالى.

وثالثًا: أنهم يجعلون جزءًا من أموالهم للفقراء والمساكين، بحسب ما تمليه شريعة ربّ العالمين. من هذا النوع المتعلق بالعلاقات الدلالية بين الألفاظ والتراكيب في السياقات، عطف العامّ على الخاصّ، كعطف (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) على ما تقدّمه، وهو: ﴿الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾(٥٩).

(٥٦) سورة النبأ: ١٢.
(٥٧) سورة المُلْك: ٣
(٥٨) سورة الذاريات: ١٦-١٩.
(٥٩) سورة النحل: ١١.

١٤. استظهار المعاني الجليلة في الخطاب القرآني الذي شمل بين جنباته ما يعزز الجانب النفسي، عند المؤمن ويرغب الكافر بالإيمان، كالترقق في مخاطبة لقمان لابنه وهوينصحه بقوله: (يابُنَيَّ) التي تُشعر بالحنان البالغ، وروح التحبُّب، التي أنبأ عنها هذا التصغير للفظة (ابن)، توخّيًا للتأثير في هذا المتلقّي الحبيب. وكذلك ﴿يَأَبَتِ﴾ في خطاب إبراهيم عليه السلام لآزر، وهويدعوه إلى التوحيد ونبذ الشِرْك، وقول هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام حين عبد بنوإسرائيل العِجْل في غياب موسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ دفعًا لغضبه عليه، ولم يقل له: (يا ابن أبي) أو(يا ابن والدي) مثلاً؛ وذلك لما في ذِكْر الأمّ هنا من أثر في نفس المتلقّي، وهوموسى عليه السلام، منبعث من رِقّتها وحنانها على أولادها بكثرة.

هذا ونظائره من انصع الصور التي عبّر به القرآن، مراعيًا الجانب النفسي فيه.

١٥. من المسائل التي يجب أن يلتفت اليها المحلل هي النسق التعبيري في القرآن، ومحاولة فهمه وتحليله، كتقديم لفظ على آخر، كتقديم اليمين على الشمال في قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[٦٠] ثم قوله بعد آيات: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾[٦١]؛ إذ (أصحاب اليمين) هم أهل الجنّة والنّعيم، في حين أنّ (أصحاب الشمال) هم أهل النّار والجحيم. وقد سمّى التعبير القرآني الفريق الأوّل: (أَصْحَبُ الميْمَنَة)، وسمّى الفريق الثاني: (أَصْحَبُ المشْئَمَة). وهذا مبنيّ على التفاؤل والتشاؤم في عادات العرب؛ إذ كانوا يتفاءلون باليمين، ويتشاءمون

(٦٠) سورة الواقعة: ٢٧.
(٦١) سورة الواقعة: ٤١.

بالشمال، وبقي هذا في العُرْف الاجتماعي الذي تجلّى كذلك في التعبير القرآني، سائدًا في حياة المسلمين. فكانوا يتيامنون في كل عمل، كالأكل باليمين، والتختُّم باليمين، والصبّ عند الاغتسال باليمين وتناول الشيء وغير ذلك. وقد أكد ذلك الحديث الشريف، إذ كان يحثّ على التيامن.

١٦. من المسائل المهمة التي تحتاج من المحلل وقفة تأملية مسألة التشخيص والتجسيم الفني في القرآن، والتي تعني إضفاء صفات البشر على أفكارٍ مُجَرَّدة، أوعلى أشياء لَيْس فيها حياة، فتضفي على الشيء المتحدَّث عنه (صفة الإنسانية)، وهي البشرية، كتشخيص عدد من عناصر الطبيعة (الصامتة)، مثاله سجود الشمس والقمر والكواكب في رؤيا نبيّ الله يوسف عليه السلام له، قال تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٦٢]، وقد نبّه على هذه الظاهرة عدد من كبار قدماء اللغويين، كأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٥هـ)، في كتابه (مجاز القرآن)، ونبّه عليه كذلك عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ) واصفًا إياه بأنه (ضرب من المجاز كثير في القرآن).

ونبّه عليه بعدهما جار الله الزمخشري (ت٥٣٧هـ)، مجلّيًا ظاهرة التشخيص في آية السجود بقوله: (...فلِمَ أُجرِيَتْ مجرى العقلاء ؟) وأجاب عن ذلك بقوله: (لَمّا وصفوه بما هوخاصّ بالعقلاء وهوالسجود، أجرى عليه حُكمَهُ، كأنها عاقلة)[٦٣].

ثم وصف الزمخشري هذا اللون من التعبير بأنه)كثير شائع في كلام العرب. (ومنه تشخيص الطبيعة (الحية)، كتشخيص النملة

(٦٢) سورة يوسف: ٤.
(٦٣) الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت٢: ٤١٨.

في خطابها للنمل الذي معها، بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦٤] فقالت بصيغة جمع العقلاء (ادخلوا).

ومن صور التجسيم الفنّي تجسيم الحسّيات - أي ما يدرك بإحدى الحواسّ- كالليل والنهار والصبح، وتجسيم المعنويات، عقلية كانت كالحق والباطل، أم نفسية، كالرُّعْب والخوف. فمن الأول قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[٦٥]، أي: يُدخل أحدَهما في الآخر، فتكون ظاهرة الليل والنهار من هذا التداخل. وهذا النوع يسمى (تجسيم الزمان). ومن الثاني وهوالمتعلق بالتجسيم المعنوي، قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[٦٦]، فجعل الحق - وهو معنويّ- جسمًا ثقيلاً مقذوفًا على الباطل، الذي صوّره التعبير القرآني كأنه جسم أيضًا.

وهذا من جميل تصوير القرآن في تجسيم المعنويات[٦٧].

١٧. من المحطات التي يقف عندها المحلل (المستوى الصوتي) للنص القرآني، سواء تعلّق بالصوت المفرد (الفُونيم Phoneme)، كالباء، والميم، والنون، والهاء، أم تعلّق بـ (المقطع) المؤلَّف من صوتين أوثلاثة، وسواء تعلّق بالصوت المفرد، أم بالمركّب، أم بالتعبير، مع ربط الصور الصوتية بالمعاني المختلفة في التعابير القرآنية، مع ضرورة التنبيه على ظاهرة الاستبدال الصوتي بين الوحدات الصوتية الصغيرة، وهي (الفونيمات)، وأثر ذلك في تحقيق الفروق الدلالية بين كثير من

(٦٤) سورة النمل: ١٨.
(٦٥) سورة الحج:٦١.
(٦٦) سورة الانبياء: ١٨.
(٦٧) علي: عثمان فورزي: التخييل والتجسيم في القرآن الكريم، ط١-٢٠١٨: ٤٧.

الألفاظ القرآنية المتقاربة الأصوات، ما بين سياق وآخر، كما في: هَزَّ وأَزَّ، وكتَمَ وكَظَمَ، وغَشَّى وغَطَّى.

١٨. مما سجل من العلوم التي تعتني بالقرآن (القراءات القرآنية) التي قُرِئ بها النص الكريم، سواء أكانت مشهورة، أم غير مشهورة، مع كشف أوجهها اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية، وذلك لتعلّق معنى النص بها؛ لان توجيه القراءة مقصود، وهذه القصود ربما ترتبط بالمبنى العقدي، الذي أدى الى اختلاف بين قراءة وأخرى، أولكشفها لظواهر اللغة المختلفة، كالهمز في (كُفُؤًا) وتسهيله في (كُفُوًا)، وكالإطباق الصوتي في صاد لفظة (الصراط)، وعدمه في سين (السّراط)، وكالمدّ في (مَالِك) والقَصْر في (مَلِك)، إذ معنى (مَلِك) أبلغ من معنى (مَالِك)، من حيث إنّ كلَّ مَلِكٍ مالِكٌ، وليس كلُّ مالِكٍ مَلِكًا.

(٦٨) سورة البقرة: ١٧٩.
(٦٩) سورة هود:١.

١٩. لعلوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع؛ مكانة كبيرة في عملية التحليل، إذ يتعلّق بالعلم الأول، وهو(علم المعاني) إذ يبحث فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتتعلق به ظواهر تعبيرية كثيرة، كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والإيجاز بنوعيه: إيجاز الحذف وإيجاز القِصَر، فمن الأول حذف المبتدأ من الجملة الاسمية، كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦٨]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[٦٩].

أما العلم الثاني (البيان) وهوعلم يعرف به ايراد المعنى الواحد بصور عدة. ويتعلّق بالحقيقة والمجاز. فمن المجاز: التشبيه،

والاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل، وما إليها. وتنبغي العناية بفنّ (الالتفات) كذلك، إذ هوفنّ رفيع في تعبير القرآن، وثيق الارتباط بالمعنى، وذلك بالانتقال من ضمير إلى آخر في السياق، كانتقاله من الغَيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِبِ﴾(٧٠). فالتفت بقوله (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ) من الغَيبة في الحديث عن المؤمنين إلى الخطاب، ومن موضوعات (علم البديع)، الطِباق، والجِناس، والتَّوْرِية، والتقابل، وما إليها. فهذه كلها ينبغي على المحلل للنص القرآنيّ أن يعطيَها حقَّها من الدرس والفهم والتحليل والتعليل، لمعرفة معاني القرآن المجيد معرفة شاملة وافية، لا تقف عند جوانب دون أخرى، وإنما تتناول الجوانب كلها.

(٧٠) سورة آل عمران: ١٧٩.

٢٠. ضرورة بيان العلاقات الدلالية بين الآيات الكريمة، والكشف عن الوشائج التي تربط الجمل والألفاظ والتراكيب، وما يترتب على ذلك من ترابط وتلاؤم معنويّ، بحيث يُرَدّ المتأخر على المتقدّم عند التحليل ويُربَط به معنويًّا، أويُشار إلى علاقة المتقدِم بالمتأخِر، أوتأثيره فيه لفظًا ودلالة، من خلال التأمّل في السياق، وهومجرى الكلام، ليكشف المحلل بذلك عن حقيقة أنّ القرآن العظيم بناء متماسك لا نظير له، بل هونسيج واحد. ولتحقيق ذلك، ينبغي على المحلل للنص الكريم أن يُحسِن التفهم؛ إذ إنّ الكتاب المجيد كلّما أكثر فيه الدارس التأمّل والسَّبْر، منح دارسه من المعاني والدلالات ما لا يحققه القارئ المتعجَل، الذي لا يُحسِن إلاّ القراءة، دون عمق الفهم

والتحليل. ويذكر أهل العلم أنّ مَن فسَّر القرآن، وهوغير محيط بهذه العلوم التي تقدّم الحديث عنها وبيانها، في ما أوردناه منها، انطبق عليه (التفسير بالرأي) المنهي عنه، وإذا فسّره وهومحيط بها، لم يكن تفسيره من هذا النوع المنهيّ عنه في الشرع، بل هومن النوع المباح.. والله سبحانه الموفّق للصواب، والهادي إلى سواء السبل[٧١].

المبحث الثاني: تحليل آية البسملة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾

وفيه مطالب:

المطلب الاول: فضل البسملة:

روي عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «(بسم الله الرحمن الرحيم) أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها»[٧٢]، وروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا قال المعلم للصبي قل(بسم الله الرحمن الرحيم) فقال الصبي (بسم الله الرحمن الرحيم) كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم»[٧٣].

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي (بسم الله الرحمن الرحيم)»[٧٤].

وفي الحديث النّبوي الشريف: «كُلُّ أمْر ذِي بَال لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ اسْمُ اللهِ فَهُوَأَبْتَر»[٧٥].

(٧١) الاصول العامة لتحليل النص: الدكتور قاصد ياسر الزيدي. الأستاذ بكلية التربية للبنات بجامعة بغداد بالعراق. نشر في مجلة العرب (محرم وصفر ١٤٢٧هـ)

(٧٢) الصدوق: عيون أخبار الرضا ٢: ٩.

(٧٣) الحر العاملي٦: ١٦٩. ابواب قراءة القرآن.

(٧٤) تفسير العياشي ١: ٢١.

(٧٥) الحر العاملي ٧: ١٧٠.

المعنى العام:

إنَّ البسملة تعنى أنَّ العبد يبدأ ويستعين بأموره بالله، وان هذا علامة للانتماء اذ بها يبين العبد مرجعيته، واعترافه بقدرته تعالى؛ يقول صاحب الميزان (فابتدأ الكلام باسمه عز اسمه ليكون ما يتضمنه من المعنى معلما باسمه مرتبطا به، وليكون أدبا يؤدب به العباد في الأعمال والأفعال والأقوال، فيبتدؤوا باسمه ويعملوا به، فيكون ما يعملونه معلما باسمه منعوتا بنعته تعالى مقصودا لأجله سبحانه فلا يكون العمل هالكا باطلا مبتورا؛ لأنه باسم الله الذي لا سبيل للهلاك والبطلان إليه)[٧٦].

القراءة:

(الرحمن) بالرفع والنصب والجمهور على الجر، و(الرحيم) أيضا قُرات بالرفع والنصب، والجمهور على الجر. وتوجيه القراءة يكون في الاعراب.

الصرف:

الاسم: اختلف في اشتقاقه فذهب البصريون الى أنه من السمو، وهو العلو وعليه يكون فيه إبدال[٧٧]، أصله سمو، حذف حرف العلة وهولام الكلمة وأبدل عنه همزة الوصل. ودليل الواوجمعه على أسماء وأسامي، وتصغيره سُميّ. والأصل أسماو وأسامو وسموي، فجرى فيها الإعلال بالقلب.

وذهب الكوفيون الى انه مشتق من السمة، وهي العلامة.

الله: علم لا يطلق الا على الله، واختلف فيه هل هومشتق ام جامد، فمن قال انه مشتق ارجعه الى اصول منها: أن أصله من أله

(٧٦) الطباطبائي: الميزان ١: ٧.

(٧٧) الابدال: هو جَعْلُ مُطْلَقِ حَرفٍ مكانَ حَرْفٍ من غير إدْغَامٍ وَلا قَلْب.

يأله إذا عبد، وأصل الله الإلاه، نقلت حركة الهمزة إلى لام التعريف ثم سكنت وحذفت الألف الأولى لالتقاء الساكنين وأدغمت اللام في اللام الثانية. وحذفت الألف بعد اللام الثانية لكثرة الاستعمال. أوان أصله لاه، ثم أدخلت عليه الالف والام.

ومنها: أنه من الوله وهوالتحير يقال أله يأله إذا تحير - عن أبي عمرو- فمعناه أنه الذي تتحير العقول في كنه عظمته.

ومنها: أنه ألهت إلى فلان أي فزعت إليه لأن الخلق يألهون إليه أي يفزعون إليه في حوائجهم. ومنها: انه من ألهت إليه أي سكنت إليه عن المبرد ومعناه أن الخلق يسكنون إلى ذكره.

ومنها: أنه من لاه يليه اذا تستر واحتجب، كانه سبحانه يسمى بذلك لاستتاره واحتجابه عن الابصار.

وقيل هو جامد مرتجل وهو رأي الاغلب.

قال الخليل بن احمد: لو كان مشتقا للزم التسلسل[٧٨] والتسلسل باطل على الله. الرحمن: صفة مشتقة من صيغ المبالغة، وزنه فعلان من فعل رحم يرحم باب فرح.

الرحيم: صفة مشتقة من صيغ المبالغة، أوصفة مشبهة باسم الفاعل وزنه فعيل من فعل رحم يرحم.

الإعراب:

بسم: الباء: حرف جر مبني على الكسر لا محل له من الاعراب. اسم: اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر. والمبتدأ محذوف تقديره: ابتدائي، ويجوز أن يكون التعليق بفعل محذوف تقديره أبدأ على

(٧٨) والتسلسل هو ترتب علل ومعلومات بحيث يكون السابق علة في وجود لاحقه وهو هكذا.

رأي الكوفيين. وقد حذفت الألف في البسملة لكثرة الاستعمال، ولا تحذف في غيرها، بل تثبت كقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. الله: لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة الظاهرة على آخره. الرحمن: نعت للفظ الجلالة مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره. الرحيم: نعت ثان للفظ الجلالة تبعه في الجر(٧٩).

اما قراءة الرفع للرحمن والرحيم فهي على القطع، فيكونان خبرين، واما نصبهما أي (الرحمنَ الرحيمَ) فهوعلى تقدير أعني، فيكونان منصوبين.

البلاغة:

١- ان الجار والمجرور لا بد له من متعلق، ومتعلق البسملة اما اسم أوفعل، فان كان فعلا مضارعا، فانه يفيد التجدد والاستمرار، وحذف لكثرة دوران المتعلق به على الالسنة، واذا كان المتعلق به اسما فانه يفيد الدوام والثبات، فان الابتداء باسم الله نهج دائم نمارسه في كل عمل وهوعلامة الاتكال على الله.

٢- ان لحذف المتعلق في البسملة فائدة وهي صلاحيتها ليبتدئ بها كلُّ شارع في فعل فلا يلجأ إلى مخالفة لفظ القرآن عند اقتباسه.

٣- ان حذف المتعلق الحذف من قبيل الإيجاز(٨٠).

٤- التكرير: لقد كرّر الله سبحانه وتعالى ذكر الرحمن الرحيم لأن الرحمة هي الإنعام على المحتاج. وهذا التكرير يكون إما لتعظيم الموصوف، أوللتأكيد أوللترغيب والترهيب. في حال بذلهما أوسلبهما.

(٧٩) وهي ما حذف فيها المشبه.

(٨٠) الإيجازُ: هو جَمْعُ المعاني المُتَكاثِرَة تَحتَ اللَّفْظ الْقَليل مَعَ الإبانة وَالإفْصَاح، وَهُونوْعَان: أحدهما: إيجازُ قِصَر، ويكون بتَضمين العبارَاتِ الْقَصيرَة معاني كثيرَة مِنْ غَيْر حَذْف. نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(الأنعام:٨٢). الآخر: إيجاز حَذْف، ويَكونُ بحَذْف كلمَة أوجملة، أوأَكْثَرَ مَعَ قَرينَة تُعَيّن الْمَحْذُوف. تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(يوسف:٨٥)، لأن كلمة (الأمن) يدخل تحتها كل أمر محبوب.

٥- قدم سبحانه الرحمن على الرحيم مع أن الرحمن أبلغ من الرحيم، ومن عادة العرب في صفات المدح الترقي في الأدنى الى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحرير. وذلك لأنه اسم خاص بالله تعالى كلفظ (الله) ولأنه لما قال (الرحمن) تناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، وأردفه (الرحيم) كتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف. وما هومن جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها. وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة.

٦- الايجاز بإضافة العام الى الخاص ويسمى ايجاز القصر.

٧- اذا جعلنا الباء للاستعانة فالكلام يكون استعارة مكنية[٨١] تبعية لتشبيهها بارتباط يصل بين المستعين والمستعان به، واذا جعلت الباء للإلصاق فيكون الكلام مجاز علاقته المحلية نحو مررت بزيد أي بمكان يقرب منه لا بزيد نفسه.

ما يستفاد من أحكام:

١- اختلفوا حول كونها آية من كتاب الله أم لا، فابن مسعود ومالك والأحناف وقراء المدينة والبصرة والشام لا يرونها آية. والامامية وابن عباس وابن عمر والشافعي وقراء مكة والكوفة يرون أنها آية من الفاتحة من كل سورة. وأنه لا خلاف بين المسلمين في أن لفظ (بسم الله الرحمن الرحيم) أنه جزء آية من قوله تعالى: ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾[٨٢].

٢- ذهب الامامية والشافعية الى الجهر بالبسملة في الصلاة

(٨١) الاسْتِعارَةُ مِنَ المجاز اللّغَويّ، وهيَ تَشْبيهٌ حُذِفَ أحَدُ طَرفَيْه، فَعلاقتها المشابهةُ دائماً، وهي قسمان:
الاول: الاستعارة تَصْريحيّةٌ، وهي ما صُرِّحَ فيها بلَفظِ المشبَّه بهِ، ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾.
الثاني: الاستعارة المَكْنيَّة، وهي ما حذف فيها المشبه به (المستعار منه)، ورُمز له بشيء من صفاته أوخصائصه أو لوازمه القريبة أو البعيدة ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾.

(٨٢) سورة النمل: ٣٠

ففي خبر صفوان قال: «صلّيت خلف أبي عبد الله عليه السلام أيّاماً فكان يقرأ في فاتحة الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم، فإذا كانت صلاة لا يجهر فيها بالقراءة، جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وأخفى ما سوى ذلك»[٨٣].

٣- تبدأ كلّ سور القرآن بالبسملة، كي يتحقّق هدفها الأصل المتمثل بهداية البشرية نحوالسعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة. وتنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركي مكة وناكثي الأيمان، وإعلان الحرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

٤- يحرم مس البسملة للمحدث عند من ذهب الى انها آية، وهوالمشهور بين المتقدّمين والمتأخّرين من الامامية، بل الظاهر دعوى الإجماع في المسألة، وخالفهم في ذلك الشيخ، وابن البراج[٨٤]، وابن إدريس[٨٥] والتزموا بكراهته.

٥- ان لفظ الرحمن لم يوصف في العربية بالألف واللام إلا الله تعالى، وقد نعتت العرب مسيلمة الكذاب به مضافا، فقالوا: رحمان اليمامة.

٦- تكتب بسم الله بغير ألف في البسملة خاصة، استغناء عنها بباء الاستعانة خلافا لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٨٦].

(٨٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة ٦: ٥٧.
(٨٤) ظ: المهذب ١٤: ٣٢ وفيه: وأمّا المندوب فهو ما يقصد به مسّ المصحف.
(٨٥) ظ: السرائر ١: ١١٧.
(٨٦) سورة العلق: ١.

المصادر والمراجع

* خير ما نفتتح به هو القرآن الكريم.

١-ابن البراج: المهذب.

٢-ابن شهر اشوب: مناقب آل ابي طالب: محمد بن علي بن شهر اشوب المازندراني، ت ٥٨٨هـ ، الناشر: علامة، ايران- قم، الطبعة الاولى ١٤٢١هـ.

٣-ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤-ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب: إعلام الموقعين عن رب العالمين،ط١- ١٩٧٣، تح: عصام الدين الصبابطي، نشر: دار الحديث، القاهرة- مصر.

٥-ابن منظور: لسان العرب.

٦-البرقي: احمد ابن محمد ابن خالد: المحاسن، ت (٢٧٤هـ أو ٢٨٠هـ) الناشر: دار الكتب الاسلامية، ايران- قم، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ

٧-بشارة المصطفى لشيعة المرتضى (ط - القديمة).

٨-الحر العاملي: محمد بن حسن: تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة: الناشر: مؤسسة آل البيت، لبنان: بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٩هـ.

٩-الحكيم: محمد تقي: الاصول العامة للفقه المقارن، ط٤-٢٠٠١م، طبع ونشر: المؤسسة الدولية، بيروت- لبنان.

١٠- الحمداني: محمد صالح: منهج التفسير التحليلي للنص القرآني: ١٣. ط١- ٢٠٠٩ هـ ، نشر مكز البحوث الاسلامية المعاصرة، بغداد العراق.

١١- الرضي: نهج البلاغة: الإمام علي عليه السلام: جمع الشريف، تحقيق:

شرح: الشيخ محمد عبده، ط١- ١٤١٢هـ ، المطبعة: النهضة، الناشر: دار الذخائر - قم - ايران.

١٢- الزبيدي: تاج العروس.

١٣- الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٤- الزيدي: قاصد ياسر. الأستاذ بكلية التربية للبنات بجامعة بغداد بالعراق. نشر في مجلة العرب (محرم وصفر ١٤٢٧هـ).

١٥- الصدوق: محمد بن بابويه القمي: عيون أخبار الرضا.

١٦- الصدوق: ابن بابويه، محمد بن علي: التوحيد: الناشر: جماعة المدرسين بقم، ايران- قم، الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ

١٧- الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن.

١٨- الطبري: محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف.

١٩- الطوسي: محمد بن الحسن: المبسوط.

٢٠- عكاشة: محمود: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، ط١-٢٠١٣م، دار النشر للجامعات، القاهرة - مصر.

٢١- علي: عثمان فورزي: التخييل والتجسيم في القرآن الكريم، ط ١-٢٠١٨.

٢٢- العياشي: محمد بن مسعود: تفسير العياشي: (ت٣٢٠هـ) الناشر: المطبعة العلمية ايران طهران الطبعة الاولى ١٤٢٢هـ.

٢٣- الفراهيدي: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد: العين: تحقيق: د.مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٤- القمي: علي بن ابراهيم: تفسير القمي، (ت القرن الثالث)، الناشر: دار الكتاب، ايران- قم، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٢٥- كعب بن زهر: الديوان، تحقيق: علي فاعور، ط١- ١٩٩٧، طبع ونشر: بيروت - لبنان.

٢٦- الكليني: محمد بن يعقوب بن اسحاق: الكافي: ت٣٢٩هـ الناشر: دار الكتب الاسلامية، ايران طهران، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٢٧- المجلسي: محمد باقر: بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، الناشر: دار احياء التراث العربي، لبنان- بيرت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٢٨- المعجم الوسيط مادة حلل.

٢

المُدَوَّنَةُ الْمُغْلَقَةُ
مَنْهَجٌ إلى تَفْسيرِ الْقُرْآنِ بالْقُرْآنِ
دراسة دِلاليّة تطبيقية (للمُحْكَمِ والمُتَشابَه)

أ. د. حسن عبد الغني الأسدي
جامعة كربلاء/كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخّص

يعتني هذا البحث بالكشف عن الدلالة القرآنية لألفاظ شغل البحث عن دلالتها مساحة واسعة في كتب التفسير وعلوم القرآن، قديما وحديثا.

وشغلت من الدراسات المعاصرة المئات من الصفحات. تلك هي ألفاظ المحكمات والمتشابهات وما تعلق بهما. فكانت أهميتها باعثا في أن تكون أولى ما يتمّ رصده في ظل منهجنا المقترح لفهم القرآن الكريم، وهو منهج المدوّنة المغلقة، على أن هذا البحث تمّ إنجازه في مرحلة متقدمة ولم تكن الرؤية للمنهج والتطبيق على النحو الذي ظهرت في البحوث المتأخرة، لذا إرتأيت أن أزيد عليه وأعدّل فيه ما نتلافى به ذلك.

مهاد البحث: منهج المدوّنة المغلقة:

إنّنا في سبيل الإفادة من الصفات الذاتيّة التي يتّسم بها القرآن الكريم، ولاسيّما صفة التعاضد أو التضافر الدلاليّ الدالّة عليها آية التدبّر ومقولة: بعضه يشهد على بعض - نعتمد آلية منهجيّة هي (**المدوّنة المغلقة**) لفهم القرآن الكريم عبر ضبط منهجيّ بمحدِّدات تنظيريّة وخطوات إجرائيّة تكون منهجا لتفسير القرآن بالقرآن نفسه؛ وهي خطوة في ظنّي بعد التتبع والتقصّي تطرح لأوّل مرة بضوابط محددة مستقاة من الآيات القرآنية نفسها واعتبارات تؤسسها الحقيقة التدوينيّة للقرآن. لذا فقد سعيت منذ سنوات عدّة لضبط هذا الخطوات وتنفيذها عبر بحوث متعلقة بطائفة من الألفاظ القرآنية[1].

(١) لمزيد من التفصيل ينظر كتابنا: منهج المدونة المغلقة مباحث تأسيسية لتفسير القرآن بالقرآن، مطبعة الرافد، قم المقدسة، ٢٠١٧م.

المدونة المغلقة:

منهج لفهم النّصوص المكتوبة. ولا سيما تلك التي تمتلك استقلالا تدوينيّاً واضحاً، وتكمن خصيصة هذا المنهج أنّ فهم المدوَّن يكون من المدوَّن نفسه، فتكون المدوَّنة بألفاظها وتركيباتها، وبمقاطعها ووقفاتها وموضوعاتها مادة المنهج والاستدلال، فيعوّل عليها الباحث في إظهار ما يريده منها. إنّ غلق المدوّنة ينزع بالباحث إلى الإفلات من الدوافع الفكريّة أو العقيديّة التي تجعل قراءته للمدوّنة قراءة متحيّزة قائمة في ضوء تلك الدوافع.

وبهذا الغلق المنهجيّ يتمّ حفظ النصّ المقدّس من أنّ يخضع إلى تلك الدوافع؛ بل لعل الأمر على النقيض من ذلك؛ إذ الهدف الأوّل أنْ يعرف ماذا أراد الله بقرآنه عبر قرآنه نفسه؛ فتكون نتائج المنهج ممثلة لقراءة داخلية للنصّ المسطور تعتمد تدوينه اللفظي بكلماته وآياته وسوره؛ وهوية تلك الكلمات وسماتها التي تُكْسِب اللفظة موقعها الوظيفي والدّلالي في الآيات.

فمنهج المدونة المغلقة سيكون منهجا فاعلاً للتحرز من الأفكار المسبقة التي صاحبت تفسير القرآن الكريم؛ وإن كان ذلك حديثاً نبويّاً أو حديثاً لأهل البيت عليهم السلام؛ أو قولا لبعض الصحابة الأجلاء (رضي الله عنهم)، أو لغيرهم من أعلام التفسير.

إنّ مشروعية غلق المدوّنة يعزز بتوجّه مهم تبرزه أحاديث عدة، من نحو ما ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من قوله: «...إنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا

عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»[٢].

وقوله: «إنّ القرآن يصدّق بعضه بعضاً؛ فلا تكذبوا بعضه ببعض»[٣].

وعن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام قوله في القرآن: «...وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ»[٤]. فوصف (إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا)، و (وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ) يظهران سمة من سمات القرآن الكريم وهي سمة التعاضد والاستغناء وهما السمتان الأكثر بروزا في القول بتفسير القرآن بالقرآن!! تعاضدهما خصوصية للغة القرآنية بأن عبرت عنها بعض الأحاديث والأقوال بـ(عربية القرآن) من نحو:

* عن «جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعلموا القرآن بعربيته، وإياكم والنبر فيه يعني الهمز. وقال الصادق عليه السلام الهمز زيادة في القرآن إلا الهمز الأصلي مثل قوله عز وجل (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماوات وَالْأَرْض...)(النمل٢٥)، ومثل قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ...﴾(البقرة٧٢)»[٥]، قوله: (بعربيته) كاشف عن عربية خاصّة ومستوى لغويّ في هذه المدونة المقدسة ينماز عن العربية العامة.

* «...عن يحيى بن يعمر أنّ أبا ذر (رضوان الله عليه) قال: تعلموا العربية في القرآن كما تتعلمون حفظه»[٦].

* في جمع القرآن الذي تمّ بأمر عثمان بن عفّان: «فقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من عربية القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما أنزل بألسنتهم،

(٢) مسند أحمد بن حنبل:٣٠٥/١١.
(٣) كنز العمال: ١/ ٦١٩ ح ٢٨٦١، وينظر: أصول التفسير والتأويل: ١٦٠.
(٤) نهج البلاغة (فارس حسون):٢٩٧. (الخطبة ١٣٣).
(٥) معاني الأخبار: ٣٤٥.
(٦) ايضاح الوقف والابتداء: ٢٣.

ففعلوا،...»[٧]. فقوله (عربية القرآن) دالّ على احساسهم بالمفارقة والخصوصيّة للاستعمال القرآني للغة العربية ليصفها هذا الوصف المميّز.

الضّوابطُ المَنْهجيَّةُ لِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بالْقُرْآنِ

يمكن أن نجمل أبرز الخصائص الّتي يفترضها منهج المدونة المغلقة لتفسير القرآن بالقرآن، هي ما يأتي:

١- الوقوف على المعنى اللغويّ الأوليّ: وهو المعنى الذي قد يقدّمه المعجم بوصفه المعنى الذي ترجع إليه المعاني الأخرى (اللغوية والاصطلاحية) للفظة، وما قدّمه ابن فارس في معجمه المقاييس سيكون نافعا في هذه الجهة، لبيانه المعنى الأصل لمجمل استعمالات الجذر الواحد والتثبت منه ببذل الجهد. وقد يكون هذا المعنى الأولي هو المراد من الاستعمال القرآنيّ ولا سيما مع الألفاظ التي لم تستعمل الا مرة واحدة، مع عدم القرينة لإرادة معنى قرآني جديد.

٢- واحديّة الدلالة القرآنيّة لا تعددها: اللفظة القرآنية أو ما يسلك مسلكها من بعض التراكيب لها دلالة واحدة أينما اُستعملت في القرآن الكريم؛ وبذا فنحن ننفي التشارك الدلاليّ بين لفظة وأخرى، فننفي تعدد الدلالة للفظة الواحدة، وكذا نفي المشترك اللفظي، ونفي التضاد فيه[٨].

٣- السياق اللفظيّ وسياق المدوّنة: إنّ واحديّة الدلالة الّتي تفيدنا بها آية التدبّر (النساء٨٢) تنحو بنا إلى خاصيّة منهجيّة

(٧) جامع الصحيحين بحذف المعاد والطرق: ٣ / ٤١٢.

(٨) وهذا بتقديري ميزة للقرآن الكريم واتقان ودقة تتناسب والاعجاز؛ وليس الحال نفسه في اللغة العربية، بمعنى أن اللغة يقع فيها مثل هذا الاشتراك والتضاد وغيره.

أخرى للقرآن الكريم تكمن في أنّ دلالة ألفاظه تتأتّى من النظر إلى سياقه أو سياقاتها اللفظيّة مجتمعة.

فالسياق الوحيد المعتمد في هذا المنهج هو السياق اللفظي (اللغويّ)؛ لأنّه السّياق الذيّ تكوّنه المدوّنة. ويتجلّى السياق ههنا عبر كلّ الموارد التي استعملت فيها اللفظة في القرآن الكريم. فعلى هذا يكون السياق القرآنيّ سياق متّسع يشمل ما نصطلح عليه بـ (سياق المدوّنة)، وهو حصيلة السياقات في كل المواضع التي اُستعملت فيها اللفظة أو التركيب؛ مع تعالقه بسياقات موضعيّة لألفاظ أخرى على نحو يشبه المسارات الشبكيّة التي تنسجم مع تصوّر الوحدة الكلية للقرآن عبر التشابك اللفظيّ، والمعنويّ بين المواضع والألفاظ. ما يعني أنّ من أولى خطوات العمل على وفق هذا المنهج هو تتبع موارد استعمال اللفظة أو التركيب المعين واحصاؤها كلّها ثم النظر فيها، واستخراج ما يمكن استخراجه من النتائج المتعلقة بتحديد أوجه استعمالها ليتسنى لنا الوقوف على دلالتها في هذه الموارد دون غيرها، وكلّما ازداد استعمال العنصر المدروس ازدادت طرائق الكشف عن سماته أو تحديد دلالته بدقة.

٤- الاقترانات اللفظية (أو المصاحبات اللفظيّة) التي تصاحب اللفظة القرآنية؛ وهي التي تمثّل (السياق اللفظيّ أو اللغويّ) الذي تعمل اللفظة على استدعائه، وذلك لما لتلك الاقترانات اللفظية (المصاحبات) من أثر في تحديد دلالة اللفظة. والاقترانات اللفظية متعددة فقد تكون ألفاظا أو تركيبا معينا أو بنية صرفيّة.

٥- السياق اللفظي وليد اللفظة المحوريّة (المركزيّة) على عكس ما هو مشهور في الدراسات الدلاليّة. فمن مجمل ما قمنا به من بحوث نحويّة وقرآنيّة تبيّن لنا مركزية اللفظة القرآنية في الجملة، ممّا كان له أثر فاعل في بناء تصوّراتنا عن تكوين الجمل وامتدادها وكيفيات ذلك، ومن ثمّ وجدنا أنّ هذه المركزيّة في صناعة الجملة سيكون لها أثر في السياق اللفظيّ ببعديه التكوينيّ (البنائيّ) والدلاليّ. والنتيجة المهمة ههنا أنّ السياق اللفظي هو وليد الألفاظ لا العكس[٩]، فاللفظة المركزية تستدعي الألفاظ المتناسبة وتعالقها بعضها ببعض، وبذا فإنّ الألفاظ المستعملة في الآية ستخضع لتلك اللفظة المركزية.

٦- تتجلّى مركزيّة اللفظة نحويّا بقدرتها على استدعاء ما يناسبها لبناء جملتها عبر فتح أو تكوين المجالات النّحويّة لتشغلها الألفاظ المناسبة للتّعبير عن الوظائف النحويّة المختلفة على نحو يجعل المسند متحكّما بالألفاظ التي تظهر في إثره[١٠].

٧- وعلى ذلك فاللفظة القرآنيّة تمثّل بؤرة دلاليّة تتجمَّع حولها طائفة من الألفاظ التي تنسجم معها دلاليّاً. وهو ما قاد إلى القول بأنّ دلالة الألفاظ ولا سيما دلالة اللفظة المركزية يخضع لها السياق وليس العكس كما هو شائع في الدراسات السياقيّة المعاصرة التي ترى أنّ السياق هو الذي يعطي للفظة دلالتها ففي منهجنا اللفظة المركزية (المحوريّة) هي التي تحدّد بقية الألفاظ التي تتشارك معها في ضوء انسجامها دلاليّا معها، على حين أن النظرة السياقية ترى أن اللفظة ليس لها معنى إلا عبر الألفاظ التي تظهر في سياقها.

(٩) هذا هو التصور الدلالي الشائع في أعقاب النظرية السياقية ومجمل النظريات الدلالية في خضم الظاهرة الوصفية في البحث اللغوي المعاصر.

(١٠) وقد نبّها إلى ملامح لقول بهذه القدرة التكوينيّة في المقولات الفعلية عند سيبويه، ويوازي ذلك نظرية للنحو العربي هي نظرية فتح المجالات النحوية، ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: ١٥٤وما بعدها، وينظر: المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه/ أ. د. غالب المطلبي و د. حسن عبد الغني الأسدي/ مجلة المورد العراقية/ ع٣/ ١٩٩٩م. (بحث).

٨- اللفظة القرآنية هي اللفظة بهيأتها التي استعملها القرآن الكريم، بلواحقها وسوابقها المتصلة بها وببنائها الصرفي؛ فهي مختلفة عن اللفظة المعجميّة أو اللفظة في عموم الدرس اللغويّ.

٩- يمتلك منهجنا بعداً آخر لاستقلاليّة اللفظة القرآنيّة في مستواها الاستعمالي أو خصوصياتها القرآنية؛ وذلك أنه لا ينبغي أنْ تُفهَم دلالة اللفظة عبر اشتقاقها أو جذرها المعجميّ قياساً على ما اشترك معها من الألفاظ الأخرى اشتقاقيّاً فلكلّ صيغة خصوصيتها الدلاليّة في القرآن الكريم، بمعنى أنّ اللفظة في منهج تفسير القرآن بالقرآن هي كتلة لفظيّة وكتابيّة، لها خصوصيتها عن أقرب مشتقات مادتها المعجميّة.

١٠- دلالة اللفظة هي حصيلة ما تشتمل عليه من سمات متعددة بعضها متعلق بجذرها اللغويّ وطبيعة المعنى المتضمن فيها، وكذا صيغتها الصرفيّة، ثم ما تحمله تلك اللفظة من خصوصيّة عرفيّة أو استعماليّة، وفي القرآن يضاف عليها خصوصيّة قرآنيّة، وهي الأهم في إحداث المفارقة القرآنية من غيره من المستويات اللغوية الأخرى.

ولعل أبرز ما نذكره هنا ألفاظ: الصلاة، والحج والزكاة، والجهاد وغيرها (وقد عرف ذلك تراثيّا بالألفاظ الإسلامية)[١١].

وفي هذا السياق ستندرج لفظة الساعة[١٢] باستعمال قرآنيّ فريد. مع إمكانية أن تتوسع هذه الألفاظ توّسعاً واضحاً، ولا تقتصر على الألفاظ المتعارف عليها.

١١- هذه الخصوصية الاستعماليّة للألفاظ القرآنيّة لا تمنع من

(١١) من الكتب المتفردة في هذا الجانب كتاب: الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت ٣٢٢هـ).

(١٢) ينظر: السّاعَة فِي القرآن الكَرِيْم دراسةٌ دَلاليَّةٌ في ضَوْءِ مَنْهَجِ المُدَوَّنَةِ الْمُغْلَقَةِ، د. حسن عبد الغني الأسديّ، مجلة كلية التربية عدد خاص بالمؤتمر العلمي الثامن عشر لكلية التربية، الجامعة المستنصرية، ٢٠١١م. (ص١١-ص ٢٣) ونشر بمجلة والقلم ع ٢٤س ٢٠١٢، ٦م (ص٢٤-ص٣٤).

أن يكون هناك اشتراك دلاليّ بين الألفاظ التي تعود إلى جذر معجميّ واحد، بل قد يكون هو الطريق الوحيد للكشف عن الدلالة القرآنيّ، ولا سيما مع الألفاظ التي لم تستعمل إلاّ مرة واحدة.

ومن هنا وضعنا اصطلاحات نراها دالّة على الخصيصة الاستعماليّة والخصيصة الاشتقاقيّة من نحو (المفرد اللفظيّ والمفرد الصرفيّ، وكذا في الجمع: الجمع اللفظيّ والجمع الصرفيّ).

١٢- يرفض المنهج التعويل أو الإفادة من روايات أسباب النزول، لأنّها من خارج المدونة لا من داخلها، مع ما يشوب هذه الروايات من علل، وكونها بمنزلة لا يعتدّ بها كثيراً عند المفسرين ولا عند غيرهم من الفقهاء مع عدم استيعابها لسائر الآيات.

١٣- إن تقسيم الآيات القرآنية على مكيّة ومدنيّة غير معتدٍ في منهج المدونة المغلقة؛ لأنه تقسيم خارجيّ مقترن بسبب النزول. على أنّ هذا التقسيم يمكن أن يكون من نتائج المنهج عبر إدراكنا للبيئات الاجتماعية التي يرسمها لنا الاستعمال القرآنيّ وما تتبعه من مسالك أو أنساق تكتسب طابع الخصوصية فيمكن إفرازها مكيّة ومدنيّة وغير ذلك.

١٤- القول بمستويات متعددة من الدلالة القرآنية، أو وجود طبقات من الفهم كما عبّرت بعض الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنّ للقرآن ظهراً وبطناً وأنّ للبطن بطناً الى سبعة أبطن. يمكن أن نفهمه في إطارنا التدويني المغلقة بإمكانية القرآن لإحداث شبكة دلالية ولفظية قرآنية تتعالق بها مكونات هذه

المدوّنة من نحو دلالة عدد مرات استعمال اللفظة أو موقعيتها، وربطها برقم السورة وعدد آياتها أو نحو ذلك ما يظهر بعض الخصوصيات القرآنية. من نحو ما يذكر في الاعجاز الرقمي في القرآن الكريم. وعدد مرات الاستعمال وربطها بدلالة اللفظة. وكذا إذا كانت من التوسّع في مصاديق الآية على نحو أنَّ معنى الآية ينطبق على جوانب أُخرى لم تكن ملحوظة سابقاً، ومن الراجح أن يكون في طائفة من الآيات لا كلها..

المدوّنة القرآنية (بمالها من خصوصيّة لغويّة) نصّ عربيّ الألفاظ إلهيّ النسج والدلالة، وفي تركيبه ونسج آياته ما حيّر العقول، على الرغم من فصاحة المتقدمين، وحسن كلامهم. ويبدو أنّ من جملة هذا طرائق النسج على نحو لم يكن مستعملا، ولم تألفه الأسماع؛ ولعل أوضح مثال نقدّمه ههنا نظام الآيات والسور وهي من طرائق ترتيب النصوص والموضوعات على نحو لا تُعلم الى الآن علته الحقيقيّة؛ ومن ذلك تلك المكونات الحرفيّة (الحروف المقطّعة) التي تصدرت في طائفة من السور لتكون جزءاً من آياته التي لفتت الأنظار، زيادة على الجانب الدلاليّ الذي صاغ فيه القرآن دلالات جديدة لم تكن معهودة!!.

إنّ منهج البحث هو محاولة لتأسيس رؤيته للنصّ الإلهي عبر (دلالة اللفظة) القرآنية؛ وذلك لأنّ الألفاظ هي الوحدات الدلاليّة الصغرى في هذه المدوّنة فهي أول ما يتمّ للمتلقي إدراكه من معنى الآية، ويتّضح أثر المتلقي هنا من الوظيفة التي أُنزل القرآن لأجلها أعني (الهداية) التي أرادها الله لعباده؛ قال تعالى:﴿إِنَّ هَذَا

الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(الإسراء٩).

وهي هداية متعدّدة الجوانب، أوّلها أن تهديه تلك الآيات إلى الطريقة الصحيحة لفهم دلالات ألفاظها المفردة، ومنها إلى الدلالات الأعلى (التركيبية والمقاصد). وهو مستوى العمل القادم التي ندعو الله في أن يوفقنا إليه لإخراج تفسير للقرآن بالقرآن، على وفق هذه الضوابط القرآنية الآنفة الذكر.

المبحث الأول
المتشابه: الدلالة و ضياع المفهوم

الدلالة اللغوية للمتشابه:

تعود لفظة المشابه إلى المادة اللغوية (شبه)، قال فيها ابن منظور: «الشَبَه والشَبه والشِبه والشبيه: المثل والجمع أشباه. وأشبه الشيء الشيء: ماثله، وفي المثل: من أشبه أباه فما ظلم وأَشْبَه الرجلُ أُمَّه وذلك إذا عجز وضَعُفَ...»[١٣]، وقال: «أشبهت فلانا وشابهته و أشتبه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه، وفي التنزيل: مشتبها وغير متشابه»[١٤]، فالمعنى المشترك لاشتقاقات هذه المادة هو المشابهة والتماثل بين الأشياء ومن ههنا فالمتشابه هو اسم الفاعل من الفعل (تشابه) وتستبطن بنية هذا الاسم المشاركة ما يعني أنّ المتشابه هو الذي يتشابه مع غيره أو الذي يتشابه أفراده بعضهم مع بعضٍ إنّ لم يذكر الطرف الآخر في الشبه.

(١٣) لسان العرب: ٤/ ٢١٨٩ (مادة شبه). والمثل هو شطر بيت شعريّ، وينظر: مجمع الأمثال: ٢/ ٣٣٣.

(١٤) لسان العرب: ٤/ ٢١٨٩ (مادة شبه). والآية (الأنعام ٩٩) وسيأتي الكلام عنها.

ومن الفعل اشتبه أخذ اسم الفاعل (مشتبه) وبنية هذا الفعل تستبطن حدوث المشابهة بعد أن لم تكن[١٥].

وجاء في اللسان أيضا: «المتشابهات: المتماثلات، وتشبه فلان بكذا، والتشبيه التمثيل»[١٦].

ويظهر أنّ هذه الدّلالة هي الأولى، وتطوّر منها معنى الالتباس؛ إذ إنّ الأمور إذا أشبه بعضها بعضا لم تتميز؛ ولهذا قيل: «المشتبهات من الأمور: المشكلات، وجاء في حديث حذيفة: ذكر فتنة فقال تشبه مقبلة وتبين مدبرة، قال شمر: معناه ان الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها و يركبوا منها ما لا يحل؛ فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها انه كان على خطأ. والشبهة: الالتباس. وأمور مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضا...وشبه عليه: خلط عليه الأمر حتّى اشتبه بغيره»[١٧].

فدلالة الالتباس ظهرت في بعض اشتقاقات هذه مادة (شبه) مستندة إلى الأصل الأول، وهو المشابهة والتماثل، إذ لولا ما حصل من مشابهة الأمور بعضها بعضا لما خلط بينها، ولم تميّز.

وسيظهر أنّ القرآن الكريم حافَظ على استعمال ألفاظ هذه المادة بالمعنى الأول كما هو؛ إذ لم يرد من ألفاظ القرآن من هذه المادة ومنها لفظتا متشابه ومتشابهات إلا وهو يحمل دلالة المشابهة ولم يرد منها ما حمل دلالة الالتباس.

تعدد الدلالة وغموض المفهوم:

لقد تعددت الآراء في تحديد دلالة المتشابه في القرآن الكريم،

(١٥) ينظر الصاحبي في فقه اللغة: ٢٢٣.
(١٦) لسان العرب: ٤/ ٢١٨٩ (مادة شبه).
(١٧) لسان العرب: ٤/ ٢١٩٠ (مادة شبه).

وبخاصة ما أشارت إليه الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾(آل عمران ٧).

قال الفخر الرازيّ: «الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه، ونحن نذكر الوجه الملخص الذي عليه أكثر المحققين، ثم نذكر عقيبه أقوال الناس فيه»[١٨]، وأوصل المتتبعون عدد هذه الآراء إلى ستة عشر رأيا[١٩]، واقترن الكلام عندهم في هذه الآراء بالمحكم بوصفه القسم المقابل للمتشابه، وأقترن ذلك أيضا ببيان رأيهم في دلالة (التأويل)، وكانت هذه الألفاظ الثلاثة مدارا للاجتهاد وكأنه لا مشاحة في الإتيان برأي أو أكثر مع فقدان الدليل الذي يخصّ دلالة ما دون غيرها.

فمن ذلك ذهاب بعضهم إلى القول بأن الحروف المقطعة في بدايات بعض السور القرآنية هي الآيات المحكمات و الآيات الأخرى متشابهات، وقول بعضهم ان الآيات المنسوخة هي المتشابهة وان الناسخة هي المحكمة، ومن غير الواضح ههنا كيف سيتبع من في قلوبهم زيغ الآيات المنسوخة لإحداث الفتنة، وطلب تأويلها.

ونحا بعضهم إلى القول بأن المتشابه ما لا مصداق محدد له في الواقع أما المحكم فما له مصداق واقعي محدد. والتأويل هو وجود ذلك المصداق الواقعي لما أورد من آيات. زيادة على أن لكلّ رأي من الآراء مأخذاً أو أكثر ضد الآراء الأخرى، إلا أن

(١٨) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): ٤/ ١٠٦. وذكر ابن منظور مثل ذلك في مادة (شبه).

(١٩) ينظر: علوم القرآن: ١٩٦، وما بعدها، أصول التفسير والتأويل: ٢٤٦ وما بعدها.

الشائع عند معظم المتأخرين ذهابهم إلى كون المحكم: ما أريد به ظاهر اللفظ من الآيات القرآنية، أما المتشابه منها فهو: ما أريد به خلاف ظاهره[٢٠]. وهو المعنى المراد بالمعنى الباطن!.

يرد في هذا الموضوع ما جاء من الآيات في وصف القرآن نفسه بكونه: ﴿أَلَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(هود١)، وفي آية أخرى جاء الوصف الذي يفهم منه أنّ القرآن كله كتاب متشابه وذلك في قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ...﴾(الزمر٢٣).

(٢٠) ينظر: أصول التفسير والتأويل: ٢٥٨ (القول الثالث عشر).

وبين الآية الاولى التي تقول أن من الكتاب محكم الآيات والثانية التي تقول كلّه متشابه يأتي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(آل عمران٧) التي تقول إنّ من الكتاب ما هو محكم، ومنه ما هو متشابه.

ولعل من اللافت هنا أنّهم قد قبلوا التناقض في مدلول هذه الآيات من حيث أرادوا أم لم يريدوا؛ وفي سبيل رفع هذا التناقض ذهبوا إلى ما رأوه المخرج الذي يرفع هذا التناقض فجعلوا الإحكام من جهة، والتشابه من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين «ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الأول الشامل حيث يجدون أنّ العلاقة التي صححت إطلاق وصف

الإحكام على الآيات القرآنية كلها هي ما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين.

كما يجدون أنّ العلاقة التي صححت إطلاق وصف المتشابه عليه هي: محض التماثل والتشابه بين بعضه وبعضه الآخر في الأسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء ٨٢)»[٢١].

ويتضح من النصّ أنّ ما صحّحوا به لا يعدو أن يكون رأياً لا يمتلك دليلا علميّاً (يرفع التناقض!). ويبدو أنّ الذي أوصلهم إلى هذا الموضع أنّهم لم يحاولوا معرفة دلالة هذه الألفاظ القرآنية من خلال سياقاتها اللفظية، ولم يكن لهم شأن في تتبع موارد استعمال هذه الألفاظ في القرآن الكريم، بل تعاملوا مع كلّ موضع منها كون ما ورد فيه من لفظ بدلالة وان ما ورد في الموضع الآخر بدلالة أخرى هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى لم يفرقوا بين استعمال الفعل (أحكمت) في موضع واستعمال الاسم (محكمات) في موضع آخر. زيادة على أنهم فهموا من المتشابه والمحكم كونهما متعلقين بالقرآن الكريم، علما أنّ الآيات الثلاثة الآنفة الذكر ليس فيها ذكر للفظة القرآن، كل ما في الأمر أن مجيء لفظتي (الكتاب وكتاب) دعتهم إلى أن يفهموا منهما دلالتَهما على القرآن؛ وهو أمر نرى أن تتبع اللفظة في موارد استعمالها في القرآن هو الذي يبيّن مدى صحة هذا الفهم من عدمه؛ وذلك ما سيعمل البحث على بيانه على نحو التفصيل لما بين لفظتي الكتاب والمتشابه من ترابط.

(٢١) علوم القرآن: ١٩٤-١٩٥.

المبحث الثاني
الألفاظ القرآنية وغلق المدونة

أشرت فيما سبق إلى أن المفسرين وغيرهم من الباحثين في العلوم القرآنية لم يعطوا لأنفسهم فسحة للكشف عن دلالة الألفاظ القرآنية من مواضع استعمالها في النص المقدس؛ وهو ما أدى الى ظهور كم من الآراء لا تعبّر إلا عن ضياع المفهوم الدلالي الذي أراده القرآن من ألفاظه. ولما كان الإطار المنهجيّ في الكشف الدلالي في بحثنا هذا يرتكز على (منهج المدونة المغلقة) فان تتبع موارد استعمال الألفاظ المشتقة من المادة اللغوية (شبه) في القرآن الكريم سيكون جزءا مهما في عملنا مع ملاحظة الاقترانات اللفظية المصاحبة للفظة الاساس؛ لهذا سيكون تقسيم موضوعات هذا المبحث قائما على وفق ورود اشتقاقات هذه المادة في النص القرآني وهي كما يأتي:

١. استعمال (شُبِّهَ).
٢. استعمال (تَشَابَهَ).
٣. استعمال (تَشَابَهَتْ).
٤. استعمال (مُشْتَبِه).
٥. استعمال (مُتَشَابِه).
٦. استعمال (مُتَشَابِهَاتٌ).

يبلغ عدد موارد استعمال هذه الألفاظ اثنا عشر مورداً، جاءت في ست سور هي سور: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، والرعد، والزمر).

وفيما يأتي التفصيل في هذه الموارد بحسب الألفاظ الآنفة الذكر:

١ـ استعمال شُبِّهَ: اُستعمل هذا الفعل في سياق نفي ادّعاء اليهود قتلهم نبيّ الله عيسى عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(النساء ١٥٧).

فالآية بعد أن تنفي ادّعاء اليهود قتلهم المسيح عليه السلام تستدرك على ذلك بذكر ما أوقعهم في ذلك بقوله (وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) فعلى ما يبدو أنّهم قد قتلوا رجلاً آخر ظنّوه هو المسيح عيسى عليه السلام؛ وزادت الآية تأكيدها في أنّ الذي حصل كانوا فيه مختلفين إذ يبدو أن بعضهم لحظ أنّ من قتلوه ليس هو المسيح بل انه شبيه به؛ ومن ههنا كان عملهم قائما على الظن مع تأكيد النفي الإلهي بقوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾! و بهذا تظهر دلالة هذا الفعل (أي: شبه) على المشابهة في الصورة والهيئة الخارجية.

٢ـ استعمال (تَشَابَهَ): استعمل هذا الفعل في ثلاثة موارد: أولها في سورة البقرة في قصة بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها، قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾(البقرة ٧٠-٧١).

فقد حاولوا المماطلة وخاطبوه بأنه يتخذهم هزوا، وكان لهم أن يبادروا إلى التنفيذ، فاعترضوا بتشابه البقر فيما بينها، ومن دون

صفات اللون والعمل والعمر ونحو ذلك لا يمكن تمييز أفراد هذا الجنس (البقر)؛ لهذا جاء قولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فلا يستطيعون التفريق بين بقرة وأخرى لتشابههما، وقولهم ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ هو بعد أن ذكر لهم الصفات المميزة بين أفراد هذا الجنس، فقطع عنتهم ومماطلتهم وإلاّ لكان لهم أن يعلموا كل طلب من الله ورسوله هو حق بذاته.

وجاء استعمال الفعل (تَشَابَهَ) في إطار المشابهة والتماثل المفترض حدوثهما بين صنفين من الخلق وذلك دحضا لحجة من اتّخذ إلها آخر غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(الرعد١٦).

فدلالة الفعل (تَشَابَهَ) هي المشابه والتماثل في الصورة والتكوين الخارجي، ووقوع ذلك بين الأفراد يجعل التمييز بين الخلق متعسّراً. وهو فرض نفته الآية للاحتجاج على القائلين بالشركاء. ووردت الكاف في قوله (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) بمنزلة النص على دلالة المشابه في التكوين.

أما المورد الثالث لاستعمال هذا الفعل فجاء في (آل عمران٧) ولم تخرج دلالة الفعل فيه عمّا ذكر في الموضعين السابقين.

ولنا وقفة مفصّلة مع هذه الآية قريباً.

٣ـ استعمال (تَشَابَهَتْ): جاء الفعل (تَشَابَهَ) وقد ألحقت به تاء التأنيث في مورد واحد وهو قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾(البقرة١١٨). فدلالة الفعل (تشابهت) واضحة في المشابهة والتماثل بين القلوب وما يصدر عنها.

٤ـ استعمال (مُشْتَبِه): ذُكر هذا اللفظ في مورد واحد وذلك في (الأنعام ٩٩)، جاء في اللسان: «وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منها صاحبه. وفي التنزيل: مشتبها وغير متشابه»[٢٢]، وسنقف عند هذه اللفظة قريباً.

٥ـ استعمال (مُتَشَابِه): ورد هذا الاسم في أربعة موارد قرآنية: أولها في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(البقرة٢٥).

إنّ التشابه بين ثمار الرزقين الرزق في الجنّة والرزق فيما قبلها، سيكون ملاحظا عند هؤلاء، ولهذا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل؛ فكانت دلالة (متشابه) واضحة في المشابهة والتماثل في الصورة والهيأة الخارجية. ويعضّد هذا القول في دلالة هذا اللفظة ما جاء عن الإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السلام في دلالة اللفظة في قوله تعالى: ﴿**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾(البقرة٢٥) بقوله عليه السلام: «شبه بعضه بعضاً بأنّها كلّها خيار، لا رذل فيها، وبأنّ كل صنف منها في غاية

(٢٢) لسان العرب: ٨/ ١٧مادة شبه.

الطيب، واللذة؛ ليس كثمار الدنيا التي بعضها نيء، وبعضها متجاوز لحد النضج والادراك إلى الفساد من حموضة ومرارة، وسائر ضروب المكاره. ومتشابها، أيضا متفقات الألوان مختلفات الطعوم»[٢٣].

جاء في اللسان قوله: «وأما قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فإنّ أهل اللغة قالوا معنى متشابها يشبه بعضه بعضا في الجودة والحسن. وقال المفسرون: متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ويختلف في الطعم؛ ودليل المفسرين في هذا قوله تعالى: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ لأنّ صورته على الصورة الأولى، ولكن اختلاف الطعم مع اتفاق الصورة أبلغ وأغرب عند الخلق»[٢٤].

وجاء عن ابن الأعرابي: «وشبّه إذا ساوى بين شيء وشيء»، وعنه في قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، قال: «ليس من الاشتباه المشكل إنما هو من التشابه الذي هو بمعنى الاستواء»[٢٥].

ومن موارد هذا اللفظ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام٩٩).

وجاء في السورة نفسها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام١٤١).

(٢٣) البرهان في تفسير القرآن: ١/ ١٥٥-١٥٦.
(٢٤) لسان العرب: ٨/ ١٨ مادة (شبه)
(٢٥) لسان العرب: ٨/ ١٨ مادة (شبه)

الملاحظ أن دلالتي اللفظتين (مشتبها ومتشابه) في الآيتين لا تخرج في إطارهما الدلاليّ العام عن المشابهة والتماثل التي ظهرت فيما سبق من ألفاظ المادة اللغوية (شبه).

ويعني هذا أنّ (متشابها) متعلق بالهاء في (به) في (البقرة٢٥)، وهو يعود على الرزق الذي يؤتي إليهم في الجنات، وهي تبين حال هذا الرزق وتصفه بأنّ ثماره يشبه بعضها بعضاً لا أن يراد مشابهتها لثمار الدنيا كما تقدم آنفا.

إذاً فدلالة متشابه ستكون للشيء المتعدّد داخليا ذي أقسام أو عناصر وبعضها يشبه بعضها الآخر.

أما قوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ و ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ المذكوران في الآيتين من سورة الأنعام فهو ممّا يخص ثمار الدنيا التي تتعدّد مظاهر المشابهة بينها كما تتعدّد مظاهر عدم المشابهة فالثمار المذكورة تشترك في تكوينها على صورة تجمع عنقودي وفي داخل ثمرتها النوى التي لا تؤكل في العادة، وهي مختلفة في طبيعة ثمارها وطعومها، ونحو ذلك.

وإذا كان (متشابه) قد أشير به إلى مجمل هذه الثمار (الرزق) وتشابه أفراده. كما جاء في ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فإنّ (مشتبه) أقرب إلى تعلق دلالته بما بين أفراد الصنف الواحد من تشابه إذ معلوم أن جنس الرمان أو الزيتون يضم أنواعاً عدة لها ما يميزها ولكنها تبقى متشابهة ضمن الجنس الأكبر. ويتناسب ذلك مع كون «التشابه لمطاوعة المفاعلة، كما أن التشبّه لمطاوعة التفعيل، والافتعال كالمجرد ويدلّ على الاختيار والانتخاب.

فالمشابهة هو الإشباه مع الاستمرار، والتشابه مطاوعة المشابهة مستمرّاً فيدل على تحقق الشبه من حيث هو من دون النظر الى متعلق، كما في المشابهة»[٢٦].

وتمايز الأصناف داخل الجنس الواحد يحدث في مرحلة تالية من مراحل النمو. ثمَّ إنّ التشابه لا يعني التماثل التامّ، والاستواء في كلّ شيء، بل يعني أنّ الشبه يكون من جهات كثيرة، والاختلاف في جهة أو جهتين ما يعني أنّ المتشابه في القرآن الكريم أقرب إلى تكون دلالته على المشابه في الصورة المرئيّة أو الهيأة المدركة بحدود مادية وهي الهيأة الخارجية. وهذه الدلالة يمكن أن تلاحظ في الألفاظ الأخرى التّي مضى ذكرها وهي (شبه وتشابه ومشتبه) وستأتي لفظة (متشابهات) قريبا. وبقي لـ(متشابه) مورد واحد سنعرض له في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢٦) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٦/ ١٣.

٦- استعمال (مُتَشَابِهَاتٌ): هذه اللفظة جمع مؤنث مفردها متشابهة ومتشابه لجمع غير العاقل التي استعملت في مورد واحد فقط، وذلك في وصف قسم من آيات الكتاب بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...**﴾(آل عمران٧).

ولمّا لم يُستعمل المفرد (المؤنث أي: متشابهة) في القرآن الكريم، فنرجح أنّ مفردها اللفظي والدلاليّ هو اللفظة القرآنيّة (متشابه) ولا سيمّا أنه استعملت وصفا في نفس الحقل المتعلق بما

أنزل الله، قال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(الزمر٢٣). وسيأتي بيان هذه الآية في المبحث الثالث.

على ما تقدّم من الدلالة القرآنية للفظة متشابه، في موارد استعمالها في القرآن، ستكون دلالته هي الأشد قربا لـ(متشابهات). فمتشابهات في الآية من آل عمران تخصّ قسما من آيات (الكتاب) يشبه بعضها بعضاً، ويستند قولنا هذا الى مبدأ منهجيّ من مبادئ هذه المدوّنة وهو أنّ القرآن لا اختلاف فيه، لذا اقتضى أنْ يكون استعمال اللفظة بالدلالة نفسها في عموم القرآن الكريم، بصفته الواضحة من أنّ القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضا. مع لمح كونه متعدد الأجزاء لاستعمال جمع المؤنث، مع القلة التي تظهر في صيغة جمع الإناث في القرآن الكريم!!...وهذا الأمر سنلاحظه أيضاً في كتاب أنزله الله تعالى بوصفه بـ(متشابه)، ما يعني أنّ الآيات الذي يتضمنها هذا الكتاب يشبه بعضها بعضا. وواضح قرب هذا الوصف من الوصف المذكور آنفاً بأنّ قسماً من آيات الكتاب متشابهات، وهو ما سيأتي تفصيله في المبحث الرابع من هذا الفصل.

نخلص في نهاية هذا المبحث الذي تتبعنا فيه موارد استعمال الألفاظ الواردة لمادّة (شبه) إلى أن هذا الألفاظ قد وردت في القرآن الكريم بدلالة تشابه الصورة المرئية، ولم يأت منها ما استعمل بدلالة الالتباس. بمعنى أنّ القرآن الكريم قد أبقى هذه

الألفاظ داخل الإطار العام لمعناها اللغوي الأول، مع إفادته من اضافات تُتيحها الصيغة الصرفية، لذا برزت خصوصية الاستعمال القرآنيّ بدلالة هي: التشابه التي يكون بين أفراد الشيء الواحد أو ما بحكمه. وهو ما ظهر في المواضع التي استعملت فيها هذه اللفظة.

ومن ثمّ فوصف الكتاب الذي أنزله الله تعالى بأنه (كتاباً متشابهاً) لا يستقيم إطلاقه إلاّ على ما تعدّد في ذاته بكونه ذا أجزاء (المكونات)؛ وإنّ تلك الأجزاء يشبه بعضها بعضاً؛ ليصحّ وصفه كلّه بمتشابه في الصورة (الهيأة الخارجية). وهو الذي يعضّده تفسير الإمام السجاد عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ كما تقدّم.

لقد حاول المفسرون والباحثون في علوم القرآن- كما سبق أن ذكرنا - الجمع بين التباين في أوصاف كتاب الله فهو محكم كما في آية (هود١)، وكلّه متشابه في آية أخرى (الزمر٢٣)؛ وكلاهما معا فبعض آياته محكمات والأخرى متشابهات، فاعتقدوا أنّ ذلك يتمّ عبر تغاير الجهة التي يوصف بها الكتاب بالوصفين؛ فوصف بـ (المتشابه) للتشابه بين أفراده في الأسلوب والهدف وسلامته من التناقض.

وكذلك الحال في صفة الإحكام التي فهموها من جهة ما في القرآن الكريم من إحكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين؟!.

فبعد بيان تقابل الصنفين (المحكمات والمتشابهات): «وَقَدْ أَشَارَتِ

الْآيَةُ: إِلَى أَنّ الْآيَات الْقُرْآن صِنْفَان: مُحْكَمَاتٌ وَأَضْدَادُهَا، الَّتِي سُمّيَتْ مُتَشَابِهَاتٍ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْمُحْكَمَاتِ هِيَ أُمُّ الْكِتَابِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمُتَشَابِهَاتِ هِيَ أَضْدَادُ الْمُحْكَمَاتِ»[٢٧]، عبّر ابن عاشور عن نظرته لتداخل الوصفين واجتماعهما معاً ومتعلقهما واحد هو القرآن: «وَقد دلّ هَذِه الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَدَلَّتْ آيَاتٌ أُخَرُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُحْكَمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ﴾(هود١) وَقَالَ: ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾(يُونُس١) وَالْمُرَادُ أَنَّهُ أُحْكِمَ وَأُتْقِنَ فِي بَلَاغَتِه، كَمَا دَلَّتْ آيَاتٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً﴾(الزمر٢٣).

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَشَابَهَ فِي الْحُسْنِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَقِّيَّة، وَهُوَ مَعْنَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ: لِاخْتِلَافِ الْمُرَادِ بِالْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ فِي مَوَاضِعِهَا، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَقَامَاتُ»[٢٨].

وكما يتضح فهو توجيه لا دليل يقتضي صحته ويحكمه إلا ظنّ المفسّر؛ ولو عكس لما كان هناك من ضير، فهذا العمل لا يتجاوز محاولة التسويغ للجمع بين الوصفين المتناقضين (المحكم والمتشابه) كما يبدو من كلامه وكلام غيره من المفسرين؟؟!!. على أنّه لا دليل يحتّم كون الوصفين متعارضين ولا سيما في ظلّ قولنا إن دلالة التشابه متعلّقة بالشبه اللفظيّ في الصورة والهيأة.

(٢٧) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: ٣/ ١٥٥.

(٢٨) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: ٣/ ١٥٦.

المَبْحَثُ الثَّالثُ
كتَابٌ كلُّهُ مُتَشابهٌ

الوصف الذي قدّمتْه الآية لبعض ما أنزل الله بكونه كتاباً يشبه بعضه بعضاً، وفهم المفسّرون منه أنّ المقصود به كتاب الله (القرآن الكريم) فيه نظر، ولاسيما أنّنا نسعى إلى أن يكون تحديد دلالة الألفاظ القرآنية من داخل القرآن نفسه؛ وفيما يأتي تفصيل ما ذكرته الآية، وهي قوله تعالى: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾(الزمر٢٣). ونرتب النظر هنا على وفق الألفاظ بحسب ورودها في الآية:

أوّلا: أَحْسَن الْحَدِيثِ:

وهو أول أوصاف الكتاب المذكور، وجاء بإسناد نزّل إلى الله (عزّ وجلّ). مع تقديم لفظة الجلالة التي تظهر المنزلة الرفيعة لهذا الكتاب بأنه شأن لله حصراً، وجاء الوصف بـ(أَحْسَن) ليشير إلى أعلى درجات الإتقان لما أضيف إليه؛ وهو لفظة (الْحَدِيثِ)، وهي من الألفاظ القرآنية التي تكرر استعمالها في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ وسيساعدنا هذا الأمر في الوقوف على الدلالة القرآنية لهذه اللفظة.

ومن ثم ستكون المفتاح لفهم طبيعة الموضوعات التي اهتم بها هذا الكتاب. وطبيعة الآيات التي يشتمل عليها!.

لقد استعمل (الحديث) في القرآن الكريم في خمسة موارد أخرى هي قوله تعالى:

* ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الكهف٦).

* ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ* لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ* أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾(النجم٥٧-٦٠).

* ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ*تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(الواقعة٧٧-٨٢).

* ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ*خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ* فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القلم٤٢-٤٤).

* ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(لقمان٦-٧).

والتأمل في هذه الموارد يقود الى النتائج الآتية:

١) اقترن استعمال (هذا الحديث) بطائفة من الألفاظ التي ترسم لنا ظلالا دلاليّة للفظة الحديث وتلك الألفاظ: (تَعْجَبُونَ، ومُدْهِنُون، ويُكَذِّبُ، ولَمْ يُؤْمِنُوا) ما يوضّح أنّه أمر لَقي الرفض. ويظهر أنّ هذا الرفض كان من المسلمين، إذ إنّ ورد في المورد الأول من الألفاظ ما يبيّن أنهم كانوا قد آمنوا من قبل بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وآله لكنهم رفضوا الإيمان بهذا الأمر، وكان الرفض

شديد الوطأة على رسول الرحمة؛ فلفظة باخع استعملت للدلالة على قرب الهلاك أسفا على هؤلاء الذين لم يؤمنوا بهذا الأمر، ولاسيما مع استعمال الفعل ههنا (اي: لم يؤمنوا) على حين اختلف الأمر في المورد الآخر لـ (باخع)، وذلك بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء٣) فهذا المورد أقل وطأة على رسول الله؛ فلم يرد في هذا الموضع لفظة (أَسَفاً) كما جاء استعمال الاسم (مؤمنين) ولم يستعمل الفعل.

٢) يبدو أنّ الأمر المعبّر عنه بـ(الحديث) تتعلق دلالته بالحوادث التي هي جزء من الغيب، ممّا يحدث في مستقبل الزمان؛ ولعله من ملاحم آخر الزمان!. وقرينة هذا الجمع اللفظي للحديث (أي: الأحاديث) التي استعملت في سورة يوسف عليه السلام حصراً، بوصفها مما علّم الله تعالى نبيه يوسف الصديق عليه السلام تأويلها أي: قدرته على إظهار وقائع تلك الأحاديث، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(يوسف٦).

وتظهر بوضوح في جوابه لصاحبيه في السجن، فكان جوابه لهما على ما رأى كل منهما في المنام أن عرفهما بحقيقة ما سيحدث له في المستقبل بل قال لهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(يوسف٣٧)؛ مع ملاحظة اقتران الألفاظ: علّم وتأويل

والأحاديث ومن التبعيضيّة ببعضها في كل مواردها من هذه السورة[٢٩].

٣) ويشير المورد (هـ) إلى أن هذا الحديث سيتخذ عند بعض الناس لهواً، وهزواً، ولا تكون له المنزلة التي أرادها الله لها كما قد يفهم من دلالة (لهو الحديث)، ولا سيّما لو أخذنا اللفظتين كلّ منهما على نحو مستقل عن الأخرى.

نظير ذلك الحالة التي عبَّر عنها بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ* وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ* يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(الجاثية٦-٩).

٤) الملاحظة البارزة في قوله (أحسن الحديث) تعني أنّ المذكور هو أرفع درجة وأعلى رتبة من غيره من الأحاديث التي عُلّمها يوسف الصديق عليه السلام، كما انّه أرفع درجة ممّا عُلّم العبد الصالح الذي اصطحب نبي الله موسى عليه السلام المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾(الكهف٧٠)؛ فجاء بالفعل (أحدث) ثم آل الأمر إلى ما ذكره تعالى: ﴿.. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(الكهف٨٢) فذكر (تأويل) أفعاله الثلاثة وهي: خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار، وهي أفعال قام بها ذلك العبد من عِلمه بمستقبل الأمور، التي لم يُطلع الله تعالى عليه نبيه الكليم موسى عليه السلام.

(٢٩) لقد وقع أغلب المفسرين في الالتباس عندما تصوروا أن (تأويل الأحاديث) عند يوسف عليه السلام هو (تأويل الرؤيا). وقد ظهر في الآية المذكورة من سورة يوسف أنّ الذي علّم الله تعالى يوسف يفوق بكثير تأويل الرؤيا كما هو واضح. وقد أفردتُ بحثاً خاصاً في الدلالة القرآنية لتأويل الأحاديث. وقد شغل الفصل الرابع من كتابنا منهج المدونة المغلقة مباحث تأسيسيّة لتفسير القرآن بالقرآن مباحث تأسيسية لتفسير القرآن بالقرآن: ١٤٧ وما بعدها. وينظر أيضاً: دلالة (تأويل الأحاديث) عند يوسف الصديق عليه السلام في ضوء منهج المدوّنة المغلقة ضمن كتاب: اللسانيات بين منجزات الحداثة وهواجس التأصيل، مجموعة من الباحثين، مطبعة تموز، دمشق، ط١، ٢٠١٦.

ويمكن أن يكون ذلك الحديث متعلّقاً بالوعد الإلهي ويوم تحققه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور٥٥). وهل هناك أحسن من تحقق الأمن والتوحيد الخالص.

ثانيّاً: كتاباً:

يشير هذا اللفظ إلى الهيأة التي نزل بها ما تقدم وصفه بأحسن الحديث فقد نزّله الله بهيأة مكتوب وهنا ينبغي أن يوجد ما يكتب عليه وفي اللسان: «... فالكِتابُ ما يُكْتَبُ فيه وقيل الصّحيفة والدَّواةُ» و«الكتاب ما يكتب فيه»[٣٠]؛ كما أنه يفيد اشتماله على مسائل متحدة في الجنس[٣١]. على ما جاء في الدلالة اللغوية التي لم تبتعد عنها الدلالة القرآنية للفظة (الكتاب) وهذا الوصف لا ينطبق على القرآن الكريم الذي أُنزل وحيا مفرّقا وآيات تتلى وليس مدوّنا؛ قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾(الإسراء١٠٦).

وتعدّ لفظة الكتاب من الألفاظ التي اختلف المفسرون في تحديد دلالتها. وهو أمر تكفّل تفصيله بحث مستقل للدلالة القرآنية للفظة الكتاب؛ ويمكننا أن نتصور وجود صحف عند رسول الله صلى الله عليه وآله على غرار ما كان عند موسى عليه السلام من صحف وألواح الى جانب التوراة. يقتصر ما فيها على ذكر الحوادث التي

(٣٠) تاج العروس مادة (كتب)ج ٢.
(٣١) ينظر الفروق اللغوية: ٤٤٦ و٤٤٧.

ستقع في المستقبل، ولاسيما أنّ هناك أحاديث نبوية كثيرة تتحدث عن الملاحم والفتن وما مرّ بالمسلمين، وما سيمرّ بهم حتى قيام الساعة. والتفاصيل في هذا المجال كثيرة عند سائر المسلمين.

ثالثاً: متشابهاً:

وهي اللفظة التي عقد البحث للكشف عن دلالتها القرآنية، وسبق القول إنها تعني المشابهة في الصورة والهيأة الخارجية المرئية؛ ولما كان من خصائص القرآن أنّه لا اختلاف فيه؛ بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء٨٢) إذن فسيكون لكلّ لفظة قرآنيّة دلالة واحدة تصحبها أينما استعملت في القرآن؛ فتعدد الدلالة للفظة الواحدة بين مورد وآخر هو من الاختلاف المنفي بصريح الآية، فعلى ما سبق يكون أحسن الحديث: كتابا يشبه بعضه بعضا فأقسامه وآياته يشبه بعضها بعضا في هيأتها وصورتها.

رابعاً: مثاني:

مثانٍ جمع مثنى، ولم تستعمل هذه اللفظة في غير هذا المورد، ويساعدنا في تحديد دلالتها أنّ القرآن استعمل المفرد منها وهو (مثنى) غير المعرّف بـ(أل) في ثلاثة موارد هي قوله تعالى:

* ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...﴾(النساء٣).

* ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(سبأ٤٦).

* ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فاطر١).

ويبدو واضحا أنّ الدلالة القرآنية للفظة (مثنى) هي: الاثنان أو الاثنتان المجتمعان سوية!. وعلى ذلك فدلالة الجمع اللفظي (مثاني) النكرة أيضا فتكون دلالتها على ثنائيات متعددة ومجتمعة معاً.

على ذلك فإنّ أحسن الحديث مشتمل على أجزاء كتابية (كلمات، أو حروف) مكررة في ترتيب ثنائي كل اثنين معاً.

إن اجتماع الوصفين في هذا الكتاب (أي: متشابها مثاني) يضعنا بإزاء كتاب يشبه بعضه بعضا مرتبٌ على هيأة مكررات ثنائية؛ وبذلك فهو كتاب ذو نمط غير مألوف من التأليف، وكذا ما اشتمل عليه؛ وكأنّنا بهذا الوصف بصدد كتاب قد صيغت مكوناته (أو وحداته اللفظيّة) على وفق نظام للتشفير.

ومن الوصف الأخير، وهو وصف خارجيّ في بيان أثر الكتاب بأن تقشعرّ جلود الذين يخشون ربّهم، وهي صفة لا يشتمل عليها إلا القليل، فيكون الـ (كتاب) قد اشتمل على الأهوال ونحو ذلك ممّا يقتضي أن تقشعرَّ له جلودهم، الأمر الذي يدعوننا إلى القول بأن هذه الأوصاف لكتاب آخر ولا يمكن أن تنطبق على القرآن الكريم، فالآية تعرض إلى كتاب إلهيّ آخر هذه هيأته، أو تأليفه على نحو غريب وغير معتاد فالكتاب اشتمل على ثنائيات متشابهة وهي طريقة على ما يبدو تنسجم ونمط الاختزال لكمية هائلة من المعلومات.

وقد جاء استعمال لفظة كتاب في موارد كثيرة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(هود٦).

ويظهر الربط هنا مع (تأويل الأحاديث) في ذكر لفظة رزقها هنا، وهي التي ذكر معها الفعل (ترزقانه) على لسان يوسف عليه السلام مخاطبا صاحبيه، ومن هنا نقترب من القول في دلالة لفظة (المثاني)[٣٢] القرآنية الواردة في القرآن في مورد وحيد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(الحجر٨٧)، للدّلالة على جنس من الكتب الإلهيّة التي تم نسجها بطريقة خاصة هي نفسها الطريقة التي نسج عليها (كِتَاب أَحْسَن الْحَدِيثِ) الذي نحن بصدده. فآيات هذه الكتب رُتِبت على هيأة تجمعات ثنائية مكونة من آيتين آيتين، أو لفظتين لفظتين، أو حرفين حرفين بحسب ما يمكن أن تحتويه هذه الكتب المثناة؛ ما يعني أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد أوتي سبع كتب من هذا الجنس، وأفرد عنها (القرآن الكريم) لما بينه وبينها من تمايز مع وصفه بـ (العظيم) التي تظهر كون القرآن أرفع مكانة مقارنة بهذه السبع من المثاني. وذكر القرآن في هذا السياق عطفا على (سبعا) يعضّد الناحية الكتابية لهذه السبع. ويظهر أن الحرف الجر (مـن) ذكر لبيان جنس هذه السبع لا لدلالة التبعيض إذ لا دليل على وجود كتب أخرى لها الهيأة المثاني نفسها من التأليف ونسج الآيات.

ويبدو أنّ هذه الكتب الإلهية من مختصات النبوة التي يخصها

(٣٢) ينظر: المثاني في القرآن الكريم دراسة دلاليّة لألفاظ القرآن الكريم في ضوء منهج المدونة المغلقة، مجلة كلية التربية، وهو من بحوث المشاركة في المؤتمر العشرون لكلية التربية بالجامعة المستنصرية، في نيسان ٢٠١٣م.

الله تعالى نبيه الكريم، لأنه لم يجرِ تداولها، وفي السنة النبوية الطاهرة المروية من طريق أهل البيت ومن طريق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب أهل السنة من أمور الغيب وحوادث الزمان وآخره وكلام الله المروي في الأحاديث القدسية ما يمكن أن يفهم أنه قد تمّ أخذه عن الله تعالى من هذه الكتب، ولا يمنع أن يطلع رسول الله بعض أصحابه وأهل بيته على ما فيها، وذلك هو صريح تكملة الآية كما في الفقرة ذي الرقم (٥) الآتية.

ممّا تقدم ظهر البون الشاسع بين هذه الدلالة التي توصلنا إليها، وما ذهب إليه المفسرون من تفسير السبع المثاني التي اختلفوا في المراد منها على آراء كثيرة ذكرها مختصرة صاحب لسان العرب في كلامه عن المادة (ثنى)[٣٣]، ومن تلك الآراء: سورة الحمد أو أنها سور القرآن لكونها تثنى على مر الأوقات وتكرر فلا تدرس أو أنها السور السبع الطوال. وأيضا قولهم في وصف كتاب بـ (مثاني) لما يُثنّى وتتجدّد فوائده حالاً بعد حال[٣٤].

(٣٣) ينظر: لسان العرب: ١/٥١٣-٥١٤ مادة (ثنى).
(٣٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ١٧٩.

خامساً: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الجُلُودُ:

قوله تعالى: ﴿.. تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ..﴾ يتعلق هذا الوصف بالجماعة المؤهلة للاطلاع على هذا الكتاب، واستيعاب ما قد تهول المرء معرفته؛ إذ الجلود تقشر لدى سماعها آيات بهذا المعنى مثلما يهولها ما تسمعه من آيات الوعيد، ومواقف الحساب، وعظمة بعض الأقدار، ومجريات الابتلاء وضيق الدنيا على المؤمنين على رحبها؛ مما جاءت به بعض آيات القرآن الكريم؛ لكن جانبا واسعا

من آيات القرآن تنحو الى تنظيم جوانب حياة الإنسان الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة من قبيل آيات النكاح والمواريث والزكاة والخمس وذكر ما أُحلّ من الطيبات والجنات ونعيمها. وهو مالا وجه لأن تقشعرّ الجلود عند قراءتها أو سماعهم؟! ولا يعني ذلك التوهين من مقام هذه الآيات الكريمة فلكلّ من الآيات عظمتها على المستويين العقلي والعاطفي، ولها الإعجاز الإلهي المتعدّد الجوانب؛ إلاّ أني أريد التأكيد على أنّ الوصف المذكور في الآية موضع البحث (كتاب أحسن الحديث) ليس المقصود به (القرآن الكريم) لعدم انطباق الوصف المذكور عليه على نحو كليته بل هو ما سبق ان ذكرته في الفقرة السابقة.

لقد تمّ الربط بين (الذين يخشون ربهم) الواردة في الآية وبين الغيب في آيات أخرى الأمر الذي يعضّد خصوصية ما يُطلعهم الله ورسوله عليه؛ قال تعالى: ﴿...إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾(فاطر١٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الملك١٢).

ويرد لفظ (ربّهم) لإظهار طبيعة علاقتهم مع الله تعالى إذ تؤسس على إحساسهم بالواجب الأخلاقي، واعترافهم بنعم الله لا على الخوف من القدرة والعظمة الإلهيّة التي يدل عليها لفظ الجلالة (الله) فتكون عبادتهم له (أو خشيتهم الله) نابعة من منطلق (عبادة العبيد)؛ بل هي عبادة الأحرار التي يدل عليها قول الأمام علي (كرم الله وجهه): (ربي ما عبدتك خوفا من عذابك أو طمعا في جنتك، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك). مع ملاحظة أنّ

مظهر الخشية عند اطلاعهم على ما فيه هذا الكتاب ينحسر ههنا، ليبدو عليهم مظهر السكينة بذكر الله، وهو اللفظ الدال على الألوهية المطلقة لله تعالى.

أقرب الأمثلة:

إنّ المسلك اللغويّ الذي سلكناه المرتكز على السياق اللفظي الذي اشتملت عليه الآية المتقدّمة وسياق بعض ما اقترن بها من ألفاظ في آيات أخر؛ يمكننا أن نتصوّر أنّ أقرب صورة إلى الأذهان تكون وسيلتنا لنمثّل بها طريقة نظم أو نسج هذا الكتاب الموصوف بـ(متشابها مثاني) من واقع ما نعيشه في حياتنا المعاصرة ودخولنا في عصر المعلوماتية؛ ولاسيما التقنية الرقميّة التي يقوم عليها نظام الحاسب الآلي إذ تستطيع تخزين كمية هائلة من المعلومات لا تستوعبها إلا مئات الآلاف من الكتب المطبوعة!.

ولا يتعدّ مكان ذلك التخزين بضعة مليمترات بل أقل؛ وهذا النظام الرقميّ[٣٥] هو نظام ثنائي يستند على نظام كهربائي يرمز له برقمين (٠١) مكررين (٠١٠١٠١٠١) على صورة سلاسل من هذه الثنائيات بأعداد تفوق الحصر فالرقم «٠» يرمز لعدم وجود تيار كهربائي، ويرمز (١) لمرور التيار الكهربائي. ويتكرر هذا النظام في خلايا التخزين ملايين المرات وسُمي بالنظام الرقمي لأنه يقوم على الرقمين.

ومن هنا نرى أنّ هيأة (٠١) رمزين افتراضيين يتكرران على صورة ثنائيات متشابهة، ومثلما للحاسب الآلي ما يناسبه من مفاتيح، وأوامر لاستخراج ما فيه من معلومات فكذلك هذا الكتاب الإلهي الذي قد تفوق قدرته في خزن المعلومات أية قدرة معروفة الآن،

(٣٥) ((نظام الأعداد الثنائي Binary Number System
نظام الأعداد الثنائي، فعلياً، هو أساس الثورة الرقمية بالكامل، وأساس عمليات المعالجة الحاسوبية كلها. بشكل بسيط، فإن هذا النظام يتألّف من عددين فقط: (٠ و ١). وبالتالي فإن أساس النظام هو (٢) ومكونات النظام هي (٠،١). كي تصبح الصورة أوضح، فإن أي نمط من أنماط المعلومات، يتم ترميزه في نظام الأعداد الثنائي باستخدام سلسلة من الأصفار والواحدات. فكر بأي نمط من أنماط المعلومات: حرف، كلمة، صورة، فيديو، كلها يتم تمثيلها في نظام الأعداد الثنائي باستخدام سلاسل طويلة من الأصفار والواحدات، ولا شيء سواها.
= تكمن أهمية النظام الثنائي، من كونه نظام الترميز المستخدم لتمثيل المعلومات والمعطيات ضمن الدارات الحاسوبية والرقمية، فأي معلومة، يتم تحويلها بشكل أساسي إلى نظام الأعداد الثنائي، ومن ثم يتم تتم معالجتها ضمن الحاسوب، وأخيراً يتم تحويل ناتج المعالجة للشكل الذي نستوعبه، ويتم إظهاره. هذا – ببساطة – مبدأ عمل كافة الأجهزة الحاسوبية، بدءاً من الحواسيب المنزلية، إلى الحواسيب المحمولة، وصولاً للهواتف الذكية والحواسيب اللوحية. بالطبع، هنالك قواعد للتحويل بين أنماط المعطيات والمعلومات لتصبح متناسبة مع النظام الثنائي، وكذلك طرق لتحويل المعلومات والمعطيات من النظام الثنائي إلى الأنماط الأخرى، لتصبح قابلةً للفهم والاستيعاب من قبلنا.)) أسس المنطق الرّقمي: أنظمة العد Number Systems، نشرت بواسطة: Mario Rahal ، منتدى 4ELECTRON.

وللكتاب مفاتح هي عنده تعالى، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام٥٩).

فهنا يشتمل هذا الكتاب على كل حبة وكل رطب ويابس أحصاه الله تعالى في هذا الكتاب الذي عبّر عنه بـ(كتاب مبين). وربط هذا بما قبله واضح أن ذلك من علم الله تعالى بالأمور، واختص لنفسه بمفاتيح الغيب، والمواضع الدالة على أن هناك من الكتب ما اشتمل على الأمور الغيبية وعلى نحو الاستقصاء واضحة ومن تلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾(الإسراء٥٨). ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾(الأحزاب٦). ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾(النبأ٢٩).

فعلى ما تقدّم فوجود كتاب فيه تفصيلات ما يقع في هذه الدنيا، وذكر كل ما خلق الله وكل ما كان ويكون أمر تناولته الآيات القرآنية بصورة واضحة، وعلى هذا فان الكتاب المتشابه هو واحد من هذه الكتب[٣٦] التي اعتنت بسرد أشياء محددة تقشعر منها جلود الذين يخشون الله تعالى، ولكن يبدو أن هناك نظاماً آخر للكتابة تمّ نسج معلومات هذا الكتاب على وفقه.

(٣٦) الإشارات والأحاديث الصريحة في وجود هذا الكتاب التي تصححها هذه الآيات القرآنية التي تناولت لفظة الكتاب كثيرة، ولا سيما عن أهل البيت عليهم السلام. وتطبيقا لمبدأ عدم الافتراق وهو آلية منهجية تبين التعاضد والتوافق بين ما يستعمله أهل البيت من الألفاظ القرآنية وتوافقها الدلالي مع القرآن الكريم، ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في إشارة الى أن الناس قد نبذوا هذا الكتاب ولم يرتضوه فأصبح غريباً وذلك قوله في بعض خطبه في ذكر حال الكتاب فيما سيأتي من الأزمان: ((وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِ، وَلا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلا فِي الْبِلادِ شَيءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ!. فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ

المبحث الرابع
آيات الكتاب، محكمات و متشابهات

تقدم في ما سبق القول بأن لفظة (متشابهات) ذكرت مرة واحدة في القرآن الكريم، وجاءت وصفا لضرب من آيات الكتاب مع ضرب آخر هو (آيات محكمات) وقد قلنا فيما تقدّم: إن متشابهات (يعني أنها آيات يشبه بعضها بعضا). وهنا في هذا المبحث سنقف مفصّلا عند هذه اللفظة وما اقترن بها من المصاحبات لفظية.

أولا: آيات متشابهات:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(آل عمران٧-٩).

ابتدأت سورة آل عمران بما عرف بالحروف المقطعة، وهي مكونات حرفيّة ظهرت في بدايات طائفة من السّور القرآنية، وقد أعقبها في الآية الثالثة ذكر (الكتاب) وهذا الاقتران ما بين هذه الآيات التي تتكون من الحروف المقطعة، والكتاب سيظهر جليّا في أغلب الموارد التي جاء فيها ذكر هذه الحروف؛ ولنا وقفة مفصلة عند هذا الاقتران في بحث آخر في الدلالة القرآنية للفظة الكتاب[٣٧]، وبحث آخر عن هذه الحروف المقطعة وما دلالتها بل الأحرى ما المقصود من إيرادها.

حَمَلَتَهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ مُنْفِيَّانِ طَرِيدَانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لأَنَّ الضَّلالَةَ لا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنِ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ الْعُقُوبَةَ السَّيِّئَةَ. وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ، وَتَغْيِيبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنَّقِمَةُ)).
(نهج البلاغة: ٣١٤، الخطبة١٤٧)

(٣٧) وقد أنجز البحث وهو بعنوان: الدلالة القرآنية للفظة الكتاب في ضوء منهج المدونة المغلقة (لم بنشر).

وأعقب ذلك ذكر الكتب السماوية التي أُنزلت من قبل: وهي التوراة والإنجيل والفرقان، ثم ذكر قدرة الله بأنه لا يخفى عليه شيء، وهو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء. ومن ثمَّ الآية مدار البحث وهي الآية السابعة من سورة آل عمران، ونصت الآية على أنّ (الكتاب) الذي أنزله الله تعالى فيه قسم من الآيات هي على نوعين هما:

١ - آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ.

٢- آيَاتٌ مُتَشَابِهَاتٌ

الملاحظة المهمة في الاستعمال التركيبي لإيراد نوعي الآيات يقودنا إليها وجود الجار والمجرور (منه) الذي جاء متعلقاً بلفظة الكتاب، إذ إيراده هنا يؤدي بنا إلى القول بأنّ العطف بالتشريك بين هذين الضربين من الآيات دالّ على أنهما من قسم واحد من الكتاب؛ لا أن النوعين قسمان مستقلان كل قسم منهما في قبالة القسم الآخر. ويعني ذلك أنّ هناك آيات أُخَر يضمّها هذا الكتاب غير هذه الموصوفة بالمحكمات والمتشابهات. وهي مسألة لم يذكرها المفسرون ممن اطّلعنا على تفسيرهم لهذه الآية.

ولتوضيح هذه المسألة نقول إنه لو أريد بهما كونهما قسمين في الكتاب لكرر (منه) قبل وأخر متشابهات بمعنى أن تكون ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَمنه أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾!! وهذا هو ما ظهر في موارد عدة في الآيات القرآنية وهي بصدد ذكر أقسم الشيء على نحو كونها أقسام عامة من نحو قوله تعالى:

* ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة٧٤).

* ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة٢٥٣).

* ﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾(يونس٤٠).

ويكون تكرار الجار والمجرور في هذه الآيات قرينة دالّة على أن ما بعد تكرارها قسم بذاته في قبالة القسم المذكر سابقا على عكس ما في الآية من آل عمران أو الآيات من نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾(هود١٠٠).

إذا يتضح من الآيتين التاليتين أن قسمي (قائم وحصيد) مترافقان لتعلقهما بالقرى الظالمة ولم يكون بصدد حصر أقسام القرى عموما. أمّا الحال فمختلف في الآيات التالية:

* ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود١٠٥-١٠٨).

فلوجود قرينة صارفة إلى كون (شَقِيّ وَسَعِيد) قسمين متقابلين هي التفصيل الذي ورد في صدري الآيتين (١٠٦و١٠٨)، بـ (أمّا) لتقوم مقام تكرار منهم أو نحوه. ولمّا لم توجد هذه القرائن في الآية من آل عمران أو فيما بعدها، تعين ظاهر الكلام أن هناك قسم من آيات الكتاب فيه آيات محكمات وآيات متشابهات أمّا الأقسام الأخرى فلم تذكرها الآية.

ولعل القلة في استعمال جمع الإناث لآيات (محكمات ومتشابهات) يتناسب ودلالتها على القلة محددة داخل قسم لا أن يكونا القسمين المكونين للكتاب.

ولم ترد لفظة (محكمات) في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، ولكن اُستعمل مفردها اللفظي والدلالي (محكمة) نكرة غير معرف بأل أيضاً وذلك في موضع واحد وصفا لـ (سورة) قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾(محمد ٢٠).

واستعمل القرآن الكريم مجموعة من ألفاظ مادة (أي: حكم)، ولو تأملنا في دلالاتها لوجدنا الاستعمال القرآني حافظ على إطارها الدلالي اللغوي العام وهو:)الاتقان) أو (المنع من الفساد)؛ جاء في القاموس: «أحكمه: أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد»[٣٨] و«منع منعاً لإصلاح»[٣٩].

وعلى هذا فالحكيم فعيل من حكم الذي يضع الأشياء في مواضعها المانع من فساد متعلقها. وبهذا فآيات مُحْكَمات ببناء

(٣٨) القاموس المحيط: مادة حكم.
(٣٩) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٤٨.

اسم المفعول: آيات متقَنة، إذ هي ليست مما يمكن أن يفيد منه من كان في قلبه زيغ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ لتحقيق مآربهم، ولمّا كانت الدلالة القرآنية للفظة تأويله تدلّ على وقائع ستحدث[٤٠] وليس فهما لمعنى آيات ونحو ذلك. فقوله ابتغاء تأويله أي طلبا لمعرفة تلك الحوادث أو الحصول على علمها. على حين أن المحكمات لا يمكن ابتغاؤها لتفرد الله تعالى بها. وسيأتي مزيد من التفصيل.

المحكمات أمّ الكتاب:

استعمل تركيب (أمّ الكتاب) في موضعين آخرين من القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(الرعد٢٩)، وفي قوله تعالى: ﴿حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الزخرف١-٤). وهو الموضع الذي يربطنا باستعمال (أمّ) في تركيب آخر بموردين، وذلك قوله تعالى:

* ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(الأنعام٩٢).

* ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(الشورى٧).

فدلالة الهيمنة على بقية أجزاء الكتاب التي تدل عليها لفظة (أمّ) تعضّد بهذا التركيب القرآني الإضافي وهو (أُمّ الْقُرَى) الدالّ

(٤٠) ينظر للتفصيل بحثنا: منهج المدونة المغلقة والدّلالة القرآنيّة لفظة (تأويل) أنموذجا مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، المجلد ٣٥، الجزء الاول ٢٠١٥، الصفحات ٣٠١-٣٤٣.

على مكة المكرمة[٤١]. بل هي سنة الله في إهلاك الامم ألّا يقع فيها الهلاك إلاّ أن يبعث رسولا إلى أهم قراهم ولها هيمنتها على ما حولها من القرى واستعمل تركيبا آخر؛ وهو (أُمّهَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(القصص٥٩).

لقد ذكر أهل اللغة: «أمّ الشيء أصله»[٤٢]. وهو ما أخذوه عن الخليل الذي قال: «إعلم أنّ كلّ شيء يضم إليه سائر ما يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أما. فمن ذلك: أم الرأس وهو: الدماغ... ورجل مأموم. والشّجة الآمة: التي تبلغ أمّ الدماغ... وقولهم: لا أم لك: مدح، و هو في موضع ذمّ. وأم القرى: مكة، وكلّ مدينة هي أم لما حولها من القرى. وأم القرآن: كل آية محكمة من آيات الشرائع والفرائض والاحكام. وفي الحديث: (إن أم الكتاب هي فاتحة الكتاب) لأنها هي المتقدمة أمام كل سورة في جميع الصلوات. وقوله تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا﴾، أي: في اللوح المحفوظ»[٤٣].

ويظهر في الآية تعلّقها بالفعلين (يَمْحُو وَيُثْبِتُ). وهو أمر جدير بالملاحظة لإبراز وظيفة هذه الآيات، ومن ثم تحديد طبيعتها، أو على الأقل تصوّرها. فهذه الآيات التي عُبّر عنها بـ (أُمُّ الْكِتَابِ) لها الهيمنة على مجمل ما ينزل من أمر الليل والنهار، وأرزاق العباد وآجالهم وحوادثهم فعلهم وتركهم، وغير ذلك من التفاصيل الجزئية. وتتضح هذه الدلالة من سياق الآية إذ أتى

(٤١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٨٥.
(٤٢) اللسان: ١/ ١٥٩ مادة (أم)، قال: ((قال الخليل: كلّ شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أُمًا))، ومفردات ألفاظ القرآن:٨٥.
(٤٣) كتاب العين: ٨/ ٤٢٦.

بالواو لتربط الفعلين بما اختصّ الله به نفسه فقال (عِندَهُ) وهو ظرف مكان وتقديمه لإفادة الاختصاص على نحو أشد ممّا لو قال (وَأُمُّ الْكِتَابِ عِندَهُ). و يبرز من هذا الربط تعلق هذه الآيات بالحوادث عبر القدرة على التغيير فيها أوفي تفصيلاتها، وهي من جملة ما تفرّد الله تعالى بها، ولم يَكِل أمرها الى غيره؛ وله تعالى أن يغيّر فيما كتب وقدّر من حوادث الدنيا والآخرة. ولعل ما ذكره الرازي في الآية ممّا يفيد لتوضيح الدلالة القرآنيّة لـ (أُمّ الْكِتَابِ) عبر الفعلين المذكورين في الآية، فقد ذكر فيها قولين هما:» القول الأوّل: إنّها عامّة في كلّ شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ قالوا: إنّ الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل، والسعادة، والشقاوة، والإيمان والكفر، وهو مذهب عمرو بن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه[وآله] وسلم»[٤٤].

(٤٤) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): ١٩/ ٦٤-٦٥.

وممّا جاء في تفسيره للمحو والإثبات: «أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت، وأثبت كتاباً آخر للمستقبل، وذكر من الأقوال الثامن: أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب، ثم يزيلها بالدعاء والصدقة، وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى. التاسع تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو وما حصل وحضر فهو الإثبات. العاشر: يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدا فهو المنفرد بالحكم كما يشاء، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام

والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه»[٤٥]؛ وأونوّه الى الفرق بين هذا، ومسألة الاطِلاع على الغيب الذي نصت آيات القرآن على إمكان حدوثه لمن ارتضاه الله؛ قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾(الجن٢٦ -٢٧). فمعرفة الغيب شيءٌ والتحكّم بالغيب بالتغيير محواً وإثباتاً شيءٌ آخر آثر الله تعالى أن تكون عنده لا عند غيره. فالآيات المحكمات تسلك مسلك المفاتيح المتحكّمة لإيقاع تلك التغيرات ومحو غيرها. وكذلك يمكن أن نفهم مصطلح (أم القرى) وارسال الرسل الى أم تلك القرى، لكونها مفتاح التغيير الذي يسعى إليه الرسل وكذلك هي اثبات الحجة على الآخرين من القرى حولها عبر اثباتها على أمّها ومحورها الذي تدور حوله.

وبهذا فإنّ دلالة الأم في التركيبين (أم الكتاب وأم القرى) أنها الأصل لإحداث التغيرات المطلوبة فيما يتعلق بها.

ولقد بدت هذه الدلالة واضحة فيما روي عن الإمام علي عليه السلام وهو قوله:» ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ وهي هذه الآية: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[٤٦] تسليماً لله تعالى بإرادته التي لا يمنع شيء من إمضائها، وجاء من الأحاديث ما يعضّد ما مضى من دلالة الألفاظ من ذلك ما ذكره الحاكم النيسابوري بإسناده: «عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله عز وجل:

(٤٥) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): ١٩/ ٦٥.
(٤٦) الاحتجاج: ١/ ٣٤٠.

﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء﴾؛ قال: من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي جملة الكتاب». وقال: «قد احتج مسلم بحماد واحتج البخاري بعكرمة، وهو غريب صحيح من حديث سليمان التيمي ولم يخرجاه».(٤٧)

وروي بإسناده «عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله عز وجل: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء﴾ قال: ينزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان فيُدبّر أمر السنة، فيمحو ما يشاء غير الشقاء والسعادة، والموت والحياة»(٤٨).

ويقويّ اختصاص (أُمّ الْكِتَاب) به تعالى بها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الزخرف٤) وهي الآية التي ذكرناها فيما مضى، وذلك بقوله (لدينا) فقد جاء متعلّقاً بأمّ الكتاب لتحصر وجودها عند الذات المتكلمة المعبّر عنها بالضمير (نا) كما كان (عنده) متعلّقا بالله في الآية المتقدّمة؛ ولم يكن تعلق لدينا بالضمير في (إنّه) ولو كان متعلقا به لقال: وإنّه لدينا في أم الكتاب.

وجاء من الأحاديث في تفسير آية المحو والاثبات ما يعضّد الدلالة التي ذكرناها لأُم الكتاب؛ من ذلك ما روي عن الفضيل بقوله: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: العلم علمان: علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه احد، يحدث فيه ما يشاء...»(٤٩).

وذكرت بعض الأحاديث أنّ كل ذلك مكتوب عند الله في (كتاب)، وذلك ما ورد عن الصادق عليه السلام بقوله: «إن الله تبارك

(٤٧) المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٢/ ٣٨٠. تفسير سورة الرعد.
(٤٨) شعب الإيمان للبيهقي: ٥/ ٢٥٦.
(٤٩) البرهان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٩٣.

وتعالى كتب كتابا فيه ما كان وما هو كائن، فوضعه بين يديه، فما شاء منه قدم، وما شاء منه محا، وما شاء منه أثبت، وما شاء منه كان وما لم يشأ لم يكن»[٥٠].

تأويل المتشابه

عوداً إلى الآية السابعة من آل عمران، وقوله تعالى في شطر الآية الثاني: ﴿...فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾(آل عمران٧)، تأتي لفظة (زيغ) في القرآن الكريم لتشير إلَى استقرار هذا الزيغ في قلوب هؤلاء؛ وخاصة مع تقدّم الجار والمجرور (في قلوبهم)، وجاء في الآية التالية ما يُبيّن أنّ الزيغ هو انحراف عن الهداية فقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(آل عمران٨)، إذ الفعل (هديتنا) هو الحالة الأسمى في العلاقة مع الله وهي منزلة تكتسب بعد الإيمان والعمل الصالح كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(طه٨٢). وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(التوبة١١٧). وكما يبدو فإنّ الفعلين من هذه المادة وردا منفيين على حين أنّ الاسم (زيغ) ورد مستقراً في نفوس من تعلّق بهم، ما يلمح أنّ الفعل ما إن يقع من الانسان حتى يستولي عليه لوقوعه من القلب الذي هو مصدر التعقّل والفهم.

(٥٠) البرهان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٩٣- ٢٩٤.

وإنّ البحث في دلالة هذا الفعل والألفاظ القريبة منه اشتقاقاً يحتاج الى وقفة مستقلّة؛ وما ذكرناه في بيان لطبيعة ما اتسمّ به هؤلاء من سيطرة مرضهم ليسول ليتوجهوا إلى العمل.

هذا التوجّه ممن في قلوبهم زيغ وتوجهه نحو الآيات المتشابهات واعطائها التأويل التي يريدون، يدعمه كون الآيات المتشابهات هي تلك الآيات الدالة على أمور تحدث ووقائع ستكون مستقبلا، يسنده أيضاً ما توصلنا إليه لاحقا[٥١] من الدلالة القرآنية للفظة (تأويل) التي تظهر في عموم مواردها التي استعملت فيها دالّة على حوادث ستقع لاحقا، فالتأويل: «الحوادث التي ستقع في المستقبل والأسباب الخفيّة لما يقع، وهي معرفة من الله تعالى يعطيها بعضا من أوليائه يعرفون بها، قد تكون عبر الكتاب الذي يحتوي تفصيل كل شيء، وأنّ بعض ذلك له يوم يتحقق فيه. وهي دلالة ترتبط بالأعيان وليست هي من مستويات فهم القرآن الكريم ولا تتعلّق بالمستوى اللفظيّ، بل بالوجود (عالم التكوين)»[٥٢].

نتائج البحث:

استند قيام هذا البحث على النظر الى القرآن الكريم بوصفه مدوّنة إلهية مستغنية عن غيرها في بيان معانيها، أو دلالة ألفاظها وذلك ما أبرزته طائفة من الآيات والأحاديث التي تدلّ على أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وذلك يتمّ عبر منهجية المدونة المغلقة التي ندعو إليها للكشف عن دلالة الألفاظ القرآنية وهي ههنا (متشابه ومتشابهات ومحكمات وأحكمت) التي استعرضنا في صدارة البحث أهميتها لدى عموم المشغلين بالتفسير وعلوم القرآن والفقهاء.

(٥١) أنجز بحث التأويل بعد مدة من انجاز بحث المتشابه والمحكم في القرآن الكريم.

(٥٢) منهج المدونة المغلقة والدَّلالة القرآنيَّة لفظة (تأويل) أنموذجا: ٣٣٦، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، المجلد ٣٥، الجزء الاول ٢٠١٥، الصفحات ٣٠١-٣٤٣.

وأبرز ما توصل إليه البحث من نتائج ما يأتي:

١) ما استعمل من مادة (شبه) في القرآن الكريم جاء بدلالة المشابهة في الصورة والتكوين الخارجي؛ ولم يُستعمل بدلالة الالتباس، وهو موافق لأصل معناها المعجمي.

٢) الدلالة القرآنية للفظة (متشابه) هي: التشابه أقسام الشيء الواحد، أو بين مكوناته. و ما وُصِف بهذه اللفظة فهو يشتمل على تعدّد في داخله، كما في وصف كتاب بـ(متشابه)، ووصف آيات بـ(متشابهات). إذن هذا الكتاب ذو آيات يشبه بعضها بعضاً في لفظها، وصورتها الخارجية المدركة بالبصر. وكذا الحال في متشابهات.

٣) التفريق بين لفظتي (القرآن والكتاب). فلم يكن قسما الآيات: محكمات ومتشابهات في الآية (٧) من آل عمران متعلقا بآيات القرآن المتلوّة بل خصّ قسما من آيات (الكتاب)، وهو كتاب من عنده تعالى ذكر فيه تفصيل كل شيء. وهو من الكتب المنزلة عليه صلى الله عليه وآله كما في آيات أخرى.

٤) إنّ تقسيم آيات الكتاب على القسمين الآنفي الذكر لا يشمل كل آيات الكتاب أو مكوناته؛ بل إنّ قسما منه ضمّ هذين النوعين من الآيات لوجود (منه) متعلقا بلفظة الكتاب وعدم تكرره. وهو ما لم يلتفت إليه المفسرون.

٥) أشارت الآية (٢٢) من سورة الزمر إلى كتاب إلهيّ ذي نمط خاصّ؛ آياته يشبه بعضها بعضا لوصفه بـ(متشابه) وقد رتبت آياته على هيأة تجمّعات ثنائية فقد وصفه بـ(مثانٍ). وهذا الوصف

الأخير يجعله ضمن الكتب أو الصحف السبعة التي ذكرت في الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(الحجر٨٧). ومعلوم أنّ ذلك يخالف ما ذهب إليه المفسّرون من دلالة السبع المثاني التي اختلفوا فيها كثيرا.

٦) تسلك المحكمات مسلك المفاتيح التي بها يمكن تغيير ما ينزل من حوادث عامة أو خاصة. وتفرّد الله (عزّوجلّ) بمعرفتها وكانت تسميتها بـ (أمّ الكتاب) لدلالة الهيمنة والتحكم، ولا يدرك سرها، وماهيتها إلاّ هو قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(الرعد٣٩). ودلالة الهيمنة والتحكم في استعمال آخر هو (أمّ القرى).

٧) أمّا المتشابهات فآيات الكتاب التي يتشابه بعضها مع بعض، و تبدو في النظم كأنها تختزل تفصيل كل ما سيحدث. ويظهر ذلك ما جاء بقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(هود١).

٨) ما أوردتهً من أحاديث أو أقوال لبعض العلماء والمتقدّمين في البحث استزادة وتعضيد ولم يكن من باب التأسيس. لأنّ سمة منهجنا أن يفهم بالقرآن نفسه.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١) الاحتجاج، أبو أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ (القرن السادس)، انتشارات المكتبة الحيدرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٢) أسس المنطق الرّقمي: أنظمة العد Number Systems، نشرت بواسطة: Mario Rahal ، منتدى 4ELECTRON.

٣) أصول التفسير والتأويل، كمال الحيدري، دار فراقد، مطبعة أستانة، إيران، الطبعة٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ) المحقق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١م.

٥) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، تحـ: لجنة من المحققين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،الطبعة ١٤١٩،١هـ - ١٩٩٩م.

٦) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر: الدار التونسية للنشر،١٩٨٤هـ.

٧) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلامة المصطفوي.[دون معلومات].

٨) جامع الصحيحين بحذف المعاد والطرق، أبو نعيم الحداد عبيد الله بن الحسن بن أحمد الأصبهاني (٥١٧هـ)، المحقق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

٩) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: د.علي حسين البواب، دار النشر، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٠) الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت٣٢٢هـ)، حققه: حسين بن فيض الله الهمذانيّ، مركز الدراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١١) السّاعَة فِي القُرآنِ الكَرِيْم دراسةٌ دَلاليَّةٌ في ضَوْءِ مَنْهَجِ المُدَوَّنَةِ الْمُغْلَقَةِ، د.حسن عبدالغني الأسديّ، مجلة كلية التربية عدد خاص بالمؤتمر العلمي الثامن عشر لكلية التربية، الجامعة المستنصرية،٢٠١١م، (ص١١- ص٢٣)، ونشر بمجلة والقلم ع٢٤ س٦، ٢٠١٢م (ص٢٤- ص٣٤).

١٢) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ)، حققه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، بأشراف مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٣) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٦٤م- ١٣٨٣هـ.

١٤) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مجمع الفكر الاسلامي، الطبعة الثالثة، المطبعة: مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٧ هـ. ق.

١٥) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والفنون العراق، بغداد، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٠م.

١٦) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكريّ ق٤ هـ، تحـ: محمد ابراهيم

سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٧م.

١٧) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزوآبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٨) كنز العمال في سنن الاقوال والافعال، العلامة علاء الدين علي المتقيّ بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥هت)، ضبطه وفسر غريبه وصححه ووضع فهارسه، الشيخ بكري حياني، والشيخ صفوة السفا، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٩) لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقى المصري، المحقق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي نشر دار المعارف، القاهرة.

٢٠) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢١) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م. (مع الكتاب تعليقات الذهبي في التلخيص).

٢٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)،المحقق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

٢٣) معاني الأخبار، الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ (ت ٣٨١هـ)، تصحيح علي أكبر الغفاري، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، منشورات ذوي القربى، مطبعة أميران، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ -١٣٨١هش.

٢٥) معجم كلمات القرآن الكريم، أ. د. محمد زكي محمد خضر، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

٢٦) مفاتيح الغيب المشهور بتفسير الرازيّ، فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر خطيب الري المشهور بفخر الدين الرازيّ (ت٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٧) مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى (ت ٤٢٥ هـ)، تحقيق صفوان داودي، نشر طليعة النور، ط١، إيران، ١٤٢٦هـ.

٢٨) مفهوم الجملة عند سيبويه، د.حسن عبد الغني الأسديّ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٢٩) منهج المدونة المغلقة مباحث تأسيسية لتفسير القرآن بالقرآن، مطبعة الرافد، قم المقدسة، ط١، ٢٠١٧م.

٣٠) منهج المدونة المغلقة والدَّلالة القرآنيَّة لفظة (تأويل) أنموذجا، د. حسن عبد الغني الأسدي، مجلة الكلية الاسلامية الجامعة، النجف الاشرف، المجلد٣٥، ج١، ٢٠١٥.

٣١) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (ت٤٠٦ هـ)تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية.


٣
اللفظ القرآني
بين القوة والفعل
د. أحمد حسين جاسم محمد الصفار

مقدمة

يتناول القرآن الكريم ألفاظا تبدومترادفة من حيث المعنى، مثال: الحب والود، والكراهية والبغض، والعدل والقسط. عادة ما يفسر أحدهما بدلالة الآخر في معاجم اللغة.

ولكن لوراجعنا الآيات الكريمة نرى أن هناك تفاوتا كبيرا، فلواستبدل لفظا مكان آخر لبانت الركة والضعف، وكثيرا ما يعزى ذلك فيما لوتساءلت لجاء الجواب للضرورة البلاغية، والصورة الجمالية. نعم أنه يضفي بلاغة أكبر بالتأكيد كما أراده الله سبحانه وتعالى أن يكون موضعه في الآية، ولكن يبقى التساؤل كيف تأتت هذه البلاغة؟ قطعا لدقة معناها الذي ينسجم ودلالته في الموضع المناسب من الآية.

لكني لازلت ابحث عن جوهر الفارق إن وفقني الله عز اسمه لذلك. ولا أدعي أني لامست الجوهر والعياذ بالله لكني أحاول أن أفتح باب المسألة لفهم الحقيقة وإن كانت بعيدة المنال، لكنها خطوة.

أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق، وهوالعالم بالجوهر والحقيقة أولا وآخرا وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

تمهيد في القوة والفعل

الفرق واضح بين الاثنين، فالقوة لازالت قيد الذات ولم تلامس التجربة والتطبيق، والقوة عبارة عن إمكان الشيء، لكن الفعل عبارة عن وجوده حقيقة. ولنقل في حال الذي بالذات هوالقوة، والذي بالعرض هوالفعل. ولأوضح التعبير أكثر فأقول: إن الذي له به القوة هوصورته مثل: العدل، الحب، الألم، الكراهية. والذي عنه بالفعل هومادته مثل: القسط، المودة، التوجع، البغض على التوالي.

ولا يكون الشيء من حيث هوبالقوة شيئا هومن حيث هوبالفعل شيئا آخر، فإن لم يكن مثله تماما يمكن أن يكون حقيقة أقل مما في القوة، ولا يمكن أن يخالفها أوبالعكس منها. فمن لا يكن فيه الألم لم يتوجع والذي لا يكون عادلا كيف يكون مقسطا، والذي لا يعرف الكراهية كيف يكون مبغضا، والذي يكون الصدق قيد ذاته كيف لا يكون صادقا. ومنطقيا كلما اقترب الفعل من القوة كلما وصل نحوالكمال، فالقوة هي الصورة والفعل تجسيمها. ومن ناحية التفاصيل والكثرة فالقوة هي الراجحة أما الفعل فيكون أقل لدى الإنسان. ونقطة أخرى إنَّ ما في العقل هوقوة فقط وهذه القوة تحتاج الى حركة لإخراجها للفعل ولا حركة في العقل. والتكامل لدى الإنسان يعني سعيه لأن يكون الفعل قريبا جدا للقوة، لأستعير مثالا من القرآن الكريم في عنوان القوة في الآية الشريفة ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ**

مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[١]. ومما جاء في تفسير الآية[٢] إن معناها: والله لقد همت به والله لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع؛ لأن الهم كما قيل- لا يستعمل إلا فيما كان مقرونا بالمانع، يعني أقسم لقد - قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهم إلا بأن تشفع الإرادة بشيء من العمل. «فهي همت ولازال الفعل لم يتحقق بعد. أما يوسف عليه السلام فإن لم يكن محصنا ومعصوما لكان يهم بها كذلك لكن الله سبحانه وتعالى نفى عنه ذلك بأنه عليه السلام قد ﴿رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ والمعنى أقسم لولا رؤيته برهان ربه لهم بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه)[٣]». ومن جميل صنع الله سبحانه أنه رفع عنه أصلا هذه (القوة) وهنا هو(الهّم)، بقوله ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[٤] ولم يقل: لنصرفه من السوء والفحشاء فتدبر فيه[٥].

الفصل الأول: العدل والقسط

لأجل إقامة العدالة في أي محاولة عند تطبيق القانون المدني فمن الممكن جدا أن يتم فيه التجاوز على انسانية الإنسان لجفاف مواد القانون من جهة ولابتعاده عن الواقعية من جهة أخرى. ومن مراجعة القرآن الكريم، أجد أن العدل هومفهوم نظري يرجى منه تحقيق العدالة على أرض الواقع، وأيضا في تربية النفس البشرية على التأدب به والتهيؤ لتطبيقه. أما العدل كمفهوم ومدرك نفساني ومستحسن عقلا فيراد منه أن يطبق عمليا ويفعل على أرض الواقع على الإنسان من جهة وعلى ما يحيط به، ومصداق

(١) يوسف: ٢٤.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ)
(٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ)
(٤) يوسف: ٢٤.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).

هذا التطبيق الذي تبناه القرآن الكريم هومفهوم القسط، ولتأكيد هذا التصور علي أن أراجع الآيات الكريمة والرجوع الى تفسيرها. لمعرفة الفرق بين العدل والقسط في المنظور القرآني. فالعدل في اللغة: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهوضد الجور". لاحظ دقة التعريف في أن العدل هوما قام في النفوس، وهوما أقصده هنا أن العدل هنا هوقوة لازالت قيد الذات ولم يلامس التجربة والتطبيق[٦]. وأن تطبيق قوة العدل عمليا هوالالتزام بما جاء تماما في التعريف العقائدي للعدل على أنه: إعطاءك لذي حق حقه، وهوغير المساواة، كما هوواضح للبيب، وهذا ما عنيته بانتقاله من القوة الى الفعل، وهذا ما أود بيانه وتوضيحه. لنرى إذا ما الفارق بين العدل الذي هو (القوة) وفعلها وهوالقسط؟ عند الرجوع لمعجم الفروق اللغوية[٧]، وجدت ان لفظ (القسط) هوالتطبيق العملي الفعلي لمفهوم العدل وهو (القوة) الكامنة في الذات، والذي هومن المستحسنات العقلية، التي يحثنا القرآن الكريم على العمل بها فيقول أبوهلال العسكري[٨]: (القسط يكون أولا في الوزن وغيره وله معنيان: العدل والحِصة أوالنصيب، ولذلك كلمة القسط تستعمل في القرآن في الوزن وفي غيره: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾[٩]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ﴾[١٠]. أولاً لم يستعمل العدل مع الميزان مطلقا، وفي القرآن كله لم يستعمل إلا القسط؛ لأن القسط هوالحصة والنصيب والغرض من الميزان أن يأخذ الإنسان نصيبه ولذلك لم ترد في القرآن - والكلام لا زال

(٦) لسان العرب، ابن منظور (المتوفى: ٧١١ هـ)، دار صادر بيروت.
(٧) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
(٨) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٩) المائدة:٤٢.
(١٠) النساء:١٣٥.

للعسكري- كلمة العدل مع الوزن، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾(١١). ومن أسماء الميزان القسطاس ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾(١٢)، باعتبار يأخذ حقه، فالقسط عامة، لكن مع الميزان لم تستعمل إلا كلمة القسط؛ لأن من معاني القسط الحصة والنصيب والغرض من الميزان هوالحصة والنصيب. وللعلم فإن كلمة (يقوم(لم ترد في القرآن مع العدل، بل مع القسط فقط)، مثلا: ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾(١٣) ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١٤)، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾(١٥)، ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(١٦)، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(١٧).

أما علماء التفسير فقد ذكروا أنَّ العدل هو الإنصاف. فإنصاف الْمَظْلوم عمليا يعني: اِسْتِيفاؤُهُ حَقه، أَيْ إِزالَةُ الظُّلْم عَنْهُ، وذلك لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾(١٨) أرجوالانتباه الى أنه جاء لفظ القسط في هذه الآية وليس العدل وهذا يعني فعل العدل هوالقسط، وكذلك قوله تبارك وتعالى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾(١٩)، ولأن الله عادل فإنه يجازي الناس على أفعالهم وأعمالهم وما قدموه بغض النظر عن حجم العدل الذي (هوفي دائرة الإدراك النفساني (والذي يؤمنون به فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم بقدر ما يعملون به بين الناس ويفعلونه، أي بقدر ما يقسطوا بين الناس. وأن (القسط هوالعدل البين الظاهر، ومنه سُمي المكيال قسطا والميزان قسطا ؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن، حتى تراه ظاهرا،

(١١) الأنعام :١٥٢.
(١٢) الإسراء :٣٥.
(١٣) النساء :١٣٥.
(١٤) الحديد:٢٥.
(١٥) النساء :١٢٧.
(١٦) آل عمران: ١٨:
(١٧) النساء :١٣٥.
(١٨) المائدة :٤٢.
(١٩) يونس:٤.

وقد يكون من العدل ما يخفى، ولهذا قلنا: إن القسط هو النصيب)[٢٠]، وهذا يؤيد ما ذهبتُ اليه الى أن العدل الظاهر هو القسط، والقيامة بالفعل تكون بالقسط لا بالعدل؛ لأن الأخير هوالمادة المنعقد عليها القلب والتي سيقوم بتطبيقها الإنسان، مثلا ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[٢١] وكما أن الظن والخوف والحب والكراهية لا نرى تأثيراتها الفعلية لشخص مالم ينعقد قلبه عليها ويعمل صاحبها استنادا لتأثيرها على أرض الواقع والشيء ذاته بالنسبة للعدل، لقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٢٢] بمعنى: الاجتناب عن ظن السوء طالما أنه حبيس النفس ضمن دائرة (القوة) فلا يترتب عليه أثر إلا بتفعيله. (وكون بعض الظن إثما من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثما كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرمة)[٢٣] لنعُد للقسط ونأخذ الآية التالية نموذجاً لذلك، فقد ورد فيه لفظي العدل والقسط معا لكن موقعهما مهم في توضيح ما ذهبتُ اليه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[٢٤]، ففي هذه الآية وردت ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، و﴿خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فخفتم الأولى مرهونة بعدم تحقيق العدالة في التوزيع المادي بين الأيتام، وطالما أن الجانب المادي هنا هوالسائد فكان من المناسب استعمال لفظ القسط؛ لأنه التطبيق الواقعي والمادي للعدل (فهو(فعل للعدل، أما الخوف الثاني في الآية أعلاه فقد تعلق بعدم تحقيق العدالة بين

(٢٠) معجم الفروق اللغوية العسكري.
(٢١) النساء: ١٣٥.
(٢٢) الحجرات:١٢.
(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٢٤) النساء :٣.

الزوجات في العاطفي- الأكثر شيء- هنا. ويقتضي هنا أن يستعمل اللفظ المنسجم مع المدرك النفسي، ويتمثل بالقوة وليس بالفعل، فلذلك جاء لفظ (العدل (لتحقيق العدالة على المستوى العاطفي. وهذا ما ذهب اليه تفسير الأمثل قائلا: (ولهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة) العاطفية (حيث قال سبحانه في الآية: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوحَرَصْتُمْ﴾[٢٥] أي لا يمكنكم مهما أرتم أن تعدلوا بين الأزواج في الميل القلبي، والحب والمودة)[٢٦].

وكما أسلفنا فإن لفظ القسط يستعمل في الجانب العملي ومن مصاديقه: الحكم والقضاء بين الناس، فأنه يستوجب على الحاكم أن يعرف حدود العدل أولا على المستوى الذاتي، فمن الإنصاف أن يتحلى القاضي بأسس العدل ليتحقق القسط بين الناس، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٧]، فالمقسط هوالذي يجسد العدالة بالحكم وينقلها من (القوة) الى (الفعل). وبالمقابل كيف يمكن للقاضي تحقيق العدالة بين الناس إذا كان هوفي ذاته لا يعرف معاني العدل؟ ومرة أخرى لم تكن الجملة إن الله يحب العادلين؛ لأن الكلام يدور مدار الناس - عامة الناس- وهؤلاء لن يبلغوا بتطبيقهم لصورة العدل بأكمل صوره بل سيكون قصارى تفعيلهم للعدل هوالقسط. ولذلك كانت في الآية ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. ومثال آخر ما جاء في الآية الآتية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي

(٢٥) النساء :١٢٩.
(٢٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي. مؤسسة البعثة، ١٩٩٢ .
(٢٧) المائدة :٤٢.

تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٨]، طبعا، لإقامة القسط بين الناس فإننا نحتاج الى ضوابط ومعايير يحدد على أساسها تطبيق القسط بدقة، أما المعيار هنا فهو العدل على مستوى المصلحين لينطلقوا بإقامة القسط بين المتخاصمين دون الميل لأحدهما على حساب الآخر.

فالفاقد للمعيار والضابط وهنا هو (العدل) على مستوى القوة أي (على المستوى النفسي)، فلا يمكنه ان يكون بالفعل أي (بالواقع) مقسطا لماذا؟ لأنه لا يعرف للعدل معنى والعكس صحيح. فالمقسط يجتهد لتحقيق العدالة بين الناس.

وأما من لا تتوفر فيه ملكة العدل فكيف يكون مقسطا؟ ولأن جذور الفعل في إدراك الإنسان هي القوة، فسيكون القضاء بين الناس بفعل العدل الذي هوالقسط، فيقول عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢٩]، فالرسل يجسدون العدل الذي يؤمنون به فيطبقونه بين الناس لإقامة القسط في شؤون حياتهم، ومن قسط فيهم سوف لا يرون الظلم. هناك مسألة أخرى، وهي أن الله سبحانه وتعالى هومن شرع العدل بجناحيه (القوة) وهو (النظري) والفعل وهو (العملي) وهوسبحانه الذي أمر بهما: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[٣٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[٣١]، أما من يقوم به وينفذه هم بنو أدم، وهم المكلفون به لا هو عز وجل، فالله سبحانه قد زرع العدل في فطرتهم وهداهم له، وأُمروا لأن يفعلوه بينهم بأن يقوموا بالقسط

(٢٨) الحجرات :٩
(٢٩) يونس:٤٧.
(٣٠) الحل:٩٠.
(٣١) الاعراف:٢٩.

انطلاقا من العدل الذي هوفي نفوسهم وهومنطلق تنفيذ القسط بين الناس، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٣٢).

والله العالم. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني الحب والود

كما ذهبنا في منهجنا في تمييز الفارق بين لفظي العدل والقسط ضمن إطاري القوة والفعل في المثال السابق، فإن الحب هنا يتمثل بالقوة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلب الإنسان وفي وجدانه وما يصدر من فعل الإنسان في إظهار ما يحب من سلوك أوعمل كإفراز وتجسيد لذلك الحب يسمى بالمودة أوالود الذي له علاقة مباشرة بالناس فقط. حتى إن استعمل لفظ محبة فهومظهر لذلك التحبب والتودد.

وأما غير ذلك فيظهر على شكل تصرفات تكون لها علاقة بما يحب.

وسنأتي على تفصيلها فيما بعد. مسألة أخرى؛ نلاحظها من خلال استقراء الآيات الشريفة وهي أن المودة هي إظهار الحب بين طرفين من الناس وهذه (البينية) تتردد في معظم الآيات التي ورد فيها لفظ المودة.

وتغيب تماما في الآيات التي فيها جذر(حب) بل يكون لفظ الحب متعلق مباشرة بالمحبوب، مثال ﴿تُحِبُّونَ اللهَ﴾(٣٣)، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ﴾(٣٤).

(٣٢) الحديد:٢٥.
(٣٣) آل عمران:٣١.
(٣٤) الفجر:٢٠.

فلسفة الحب:

ولا بد لنا هنا أن نمر بفلسفة الحب لنتعرف على الفارق بينه وبين الود؛ لأجل أن نفهم دلالة اللفظين في القرآن الكريم. والحب كما فلسفَهُ السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره تحت موضوع البحث الفلسفي[٣٥] ما خلاصته: (أن الحب تعلق وجودي وانجذاب خاص بين العلة المكملة أوما يشبهها وبين المعلول المستكمل أوما يشبهه، ومن هنا كنا نحب أفعالنا لاستكمالنا بِها ونحب ما يتعلق به أفعالنا كغذاء نتغذى به، أو زوج نتمتع بِها، أو مال نتصرف فيه، أو جاه نستفيد به، أو منعم ينعم علينا، أو معلم يعلمنا، أو هاد يهدينا أو ناصر ينصرنا، أو متعلم يتعلم منا، أو خادم يخدمنا، أو أي مطيع يطيعنا وينقاد لنا، وهذه أقسام من الحب بعضها طبيعي وبعضها خيالي وبعضها عقلي.

إن الحب والكمال متلازمان، فالحب تعلق خاص وانجذاب مخصوص شعوري بين الإنسان وبين كماله ففي حب المال وحب الجاه وحب العلم فإن الإنسان يستكمل نوع استكمال بالمال والجاه والعلم). مثلا: (حب الإنسان لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه، فانه يرى نفسه كبيرا قويا لأجلهم، متجملا بسببهم، إذ العشيرة كالجناح المكمل للإنسان كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُول)[٣٦]، ويؤكد النراقي[٣٧]: (أن المحبة إنما تكون بقدر الملائمة والمعرفة للمحبوب.

ولا شيء أشد ملائمة لأحد من نفسه، ولا هوبشيء اقوى معرفة

(٣٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي(ت ١٤٠١هـ)، بحث فلسفي.
(٣٦) نهج البلاغة، دار الكتاب العربي،) ١٣٩٠ هـ)، كتاب الإمام علي لابنه الحسن عليه السلام.
(٣٧) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي ١٩٨٠.

منه بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه)، قال النبي صلى الله عليه وآله: (من عرف نفسه فقد عرف ربه)[٣٨]، لأن (الحب عبارة عن ميل الطبع إلى الملائم الملذ. فالمحبة فطرية طبيعية، إذ تعرف المحبة: بأنَّها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله، ويفترق الحب عن النية، فان النية هي انبعاث النفس، وهومغاير رد الميل، بل الميل منشأ للانبعاث، وسواء حصل الوصول إلى الملذ أم لا، وبِذا يفترق عن الشوق، فان الشوق يعد في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والارادة لا تنفك عن الحب، والحب يكون مقارنا لهم، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونهما. كما أن الحب هومنشأ الأنس، والأنس يترتب عليه، وهوغاية المحبة، فلا يخلوانس عن المحبة، والمحبة قد تكون بدونه)[٣٩]، وقيل: (إن المحبة ليست من جنس الإرادة بل هي من جنس ميل الطبع كما تقول أحب ولدي أي يميل طبعي إليه وهذا من المجاز بدلالة أنَّهم يقولون: أحببت أن أفعل بمعنى أردت أن)[٤٠] إلا أن (المحبة أبلغ من الإرادة، فكل محبة إرادة، وليس كل إرادة محبة)[٤١]، (والمحبة أيضا تجري مجرى الشهوة فيقال: فلان يحب اللحم أي يشتهيه وتقول: أكلت طعاما لا أحبه أي لا أشتهيه، ومع هذا فإن المحبة هي الارادة، والشاهد أنه لا يجوز أن يحب الانسان الشيء مع كراهته له)[٤٢]. وعلى أي حال(فإن الحب هومن المعاني الوجدانية التي عندنا. معنى نسميه بالحب كما في موارد حب الغذاء وحب النساء وحب المال وحب الجاه وحب العلم، هذه مصاديق خمسة لا نشك في وجودها فينا، ولا نشك أنا

(٣٨) مصابيح الأنوار، ج ١، ص ٢٠٤، حديث: ٣٠.
(٣٩) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠.
(٤٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي،)ت ٥٤٨هـ).
(٤١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٤٢) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

نستعمل لفظ الحب فيها بمعنى واحد على سبيل الاشتراك المعنوي دون اللفظي، ولا شك أن المصاديق مختلفة)[٤٣].

الى هنا، لقد مررنا بعلاقة الحب بالنية والإرادة والشوق والشهوة والأنس والرضا والكمال. أما الود فهو: (محبة الشيء، وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين على أن التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هوتشهي حصول ما توده)[٤٤].

ولعلي وجدت ما يشبع رغبتي ويعضد ما ذهبت اليه في أن الفارق بين الحب والمودة من باب القوة والفعل هوما نطق به الطباطبائي في ميزانه قائلا: (المودة كأنَّها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع، الذي هونوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء)[٤٥]، فما أروعها من مفاضلة بين المودة والحب كما بين الخضوع والخشوع.

فالحب هوالقوة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس بالفطرة، وحبب إليهم كل خير وكل ما ينفع ويفيد. بينما كره لهم كل ما يجلب له الألم والشقاء، يقول عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[٤٦] (والمراد بتحبيب الإيمان إليهم أي جعله محبوبا عندهم وبتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به ويعرضون عما يلهيهم عنه)[٤٧] إن حب الخير – على العموم– قد غرسه الله وأنبته في نفس الإنسان. إن الله سبحانه وتعالى قد ثبت تلك الحقيقة قائلا:

(٤٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ)، بحث فلسفي.
(٤٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٤٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي،)ت ١٤٠١هـ).
(٤٦) الحجرات:٧.
(٤٧) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٤٨]، ولذلك فإنه حجة على الإنسان وسيحاسب على ذلك. وقد يفيض الله سبحانه وتعالى زيادة على هذا الحب الذي أودعه بالفطرة فيكون إلقاء منه سبحانه وتعالى على من يحب كما حدث للنبي موسى عليه السلام فجعله محبوبا بين الناظرين اليه (حيث يحبه كل من يراه كأن المحبة الإلهية استقرت عليه فلا يقع عليه نظر ناظر إلا تعلقت المحبة بقلبه وجذبته إلى موسى)[٤٩]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[٥٠]، فالحب تعلق خاص وانجذاب مخصوص شعوري بين الإنسان وبين كماله، وكلما اشتد الحب قوة كلما ازدادت الرابطة بين الذات والمحبوب قوة. إذ أن إفرازات هذه الرابطة الشعورية تظهر على الإنسان في أفعاله، فلوكانت على مستوى التعلق والميل والانجذاب للمدركات فهومودة أوشهوة أواتباع أوغيرها. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٥١] فعلاقة المحب بالمحبوب هي لملء النقص الذي يستشعره المحب، فالمحبوب هنا هوالله، وهوالكمال المطلق، فبحبه يرى المحب فيه الكمال الذي يرومه بطاعته سبحانه وتعالى[٥٢] لذلك ورد عن الصادق عليه السلام في حديث قال: (وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَ اللهَ يُحِبُّهُ فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللهِ وَلْيَتَّبِعْنَا أَ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٥٣].[٥٤]، (يعني أن تحتاج لإظهار حبك لله عز وجل عليك أن تعمل بطاعته وهوانتقال - كما ترى - القوة الى الفعل، من

(٤٨) العاديات:٨.
(٤٩) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي،)ت ١٤٠١هـ).
(٥٠) طه :٣٩.
(٥١) آل عمران:٣١.
(٥٢)الكافي، الكليني، ج ٨، ص ١.
(٥٣) آل عمران:٣١.
(٥٤) الكافي (ط- الإسلامية)، ج٨، ص:١٤.

القوة النفسانية (الحب) الى فعل الطاعة. (وكما كان حب العبد لربه يستدعي منه التقرب بالإخلاص له وقصر العبودية فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعي قربه من العبد، وكشفه حجب البعد وسبحات الغيبة، ولا حجاب إلا الذنب فيستدعي ذلك مغفرة الذنوب، وأما ما بعده من الكرامة والإفاضة فالجود كاف فيه)[٥٥].

قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٥٦]، وهذا تعبير آخر للانتقال من الحب الإلهي الى فعل التقرب للعبد وإزالة معوقات هذا التقرب وهي الذنوب من خلال غفرانها.

وكما أسلفنا، في أنه كلما قويت العلاقة بين المحب والمحبوب الذي يرى فيه الكمال التام تجعله لا يجد محبوبا آخر يغنيه عن ذلك التعلق به وطاعته، فهي مسألة وجدانية لأنَّها ستملأ كل كيان المحب فلا فراغ لتموضع محبوب آخر في قلبه. ويعبر عن درجة قوة هذه العلاقة أوهذا ا لحب بالشدة أي شدة الحب: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[٥٧].

ولذلك لا يمكن لمن رأى في الله محبوبا يراد التقرب اليه بالطاعة أن يفاضله بمحبوب غيره أيا كان غير الله؛ لأنه غير متكامل، ولا يمكن أن يتماثل فعل التقرب اليه بالطاعة كما هولله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[٥٨].

(٥٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٥٦) آل عمران: ٣١.
(٥٧) البقرة:١٦٥.
(٥٨) البقرة:١٦٥.

كيف يمكن أن يمتلئ قلب رجل بحب محبوبين متناقضين في آن واحد.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٥٩]، (كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد، فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين، فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين)[٦٠] مما سبق، نرى أن الحب هوقوة وجدانية شعورية قد ألهمها الله سبحانه وتعالى المدركات ومنها الإنسان، ومن بين تلك المحبوبات التي يحبها الإنسان بالفطرة هي: المال، والطعام، والأولاد، والمقتنيات، والدنيا وما يتعلق بها، وكذلك من المحبوبات المعنوية مثل النصر والمدح والكرامة والنجاح وغيرهما.

(٥٩) الاحزاب:٤.
(٦٠) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٦١) القيامة:٢٠.
(٦٢) آل عمران:٩٢.
(٦٣) البقرة:١٧٧.

المحبوبات التي عرضها القرآن الكريم

أولا: المحبوبات المادية:

١- **الدنيا:** قال تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[٦١]، أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا.

٢- **البر:** قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٦٢].

٣- **المال:** قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[٦٣].

٤- **المحبوبات الطبيعية للإنسان:** في الآية الشريفة الآتية قد جمع الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٦٤).

٥- الخيل: قال تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(٦٥) فالخير هنا فسر بالخيل(٦٦).

٦- حب الناس: قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٦٧).

٧- حب الطعام: قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾(٦٨).

٨- حب المال: قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(٦٩).

علما بأن مجرد حب تلك المحبوبات المادية ليس ذنبا أورذيلة؛ لأن الله سبحانه هومن أودعها في ذات النفس البشرية، ولكن المذموم هوالتعلق بها وتفضيلها على حب الآخرة.

ثانيا: المحبوبات المعنوية:

بالإضافة الى المحبوبات المادية فهناك المعنوية أيضا ومنها:

١- الطهارة: قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٧٠).

٢- الرذيلة: هناك آيات أخرى تصف العلاقة والرابطة بين. المحب ومحبوباته في الجانب السلبي مثل حب الرذيلة، والكلام هنا - حصرا - عن الشعور الوجداني والميل النفسي لحب الرذيلة، وليس الكلام عن نشر الرذيلة والعمل بذلك من القذف

(٦٤) التوبة:٢٤.
(٦٥) ص:٣٢.
(٦٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٦٧) الحشر:٩.
(٦٨) الانسان:٨.
(٦٩) الفجر:٢٠.
(٧٠) التوبة:١٠٨.

والسب وغير ذلك. وما جاء في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٧١) إذ أن حب شيوع الفاحشة بحد ذاته لا يحتمل الحد في الدنيا ما لم يسع الى نشرها. وما دام حب الشيوع قيد القوة. وإنما يكون الحد عند إظهار هذه القوة الى الفعل متمثلا بالقذف وغيره.

ولذلك قال الطباطبائي(٧٢) مفسرا هذه الآية قائلا: "وعلى هذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد، على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد ولا موجب لتقييده بقصد الشيوع.

والحال ذاته في مسألة ظن السوء بالآخرين وإن كان مذموما بحد ذاته - وهولوثة يصاب بها قلب - المؤمن وعليه ان يتجنبها- فلا يحاسب عليها مالم تُخرج من نطاق قلبه الى الواقع وتصبح فعلا يؤثم عليه،" ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٧٣). «وأما نفس الظن بما هونوع من الإدراك النفساني فهوأمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهي اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريا»(٧٤).

٣- حب الضلالة: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾(٧٥).

٤- حبُّ الإيمان: على العكس تماما من حب الضلالة التي هي بالضد مع الفطرة، فالإيمان قد غرسه الله سبحانه في النفس البشرية حين برأها فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾(٧٦).

(٧١) النور:١٩.
(٧٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٧٣) الحجرات:١٢.
(٧٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٧٥) فصلت:١٧.
(٧٦) الحجرات: ٧.

٥- حبُّ النصر والنجاح: قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٧٧).

٦- حبُّ المدح: قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾(٧٨).

الانتقال من الحب (القوة) الى فعل المودة:

أنتقل الآن الى كيفية إظهار قوة الحب الشعورية هذه من خلجات الإنسان الى فعله وعمله، إذ أنَّها تتنوع بتنوع الوسائل والأساليب لكنها كلها إفرازات ونتاجات لقوة الحب، ولعل في قصة يوسف عليه السلام خير مثال لذلك فسنرى أن انتقال قوة الحب الى فعل قد ظهرت متنوعة من قوة واحدة هي الحب الى اساليب متعددة انتهجتها امرأة العزيز من تغليق الأبواب الى المراودة. وإن قوة الحب التي عبر عنها سبحانه وتعالى كان تعبيرا عميقا واصفا إياها بالشغف ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾(٧٩)، والشغف من أعلى مراتب الحب شدة. وهذه المراتب هي: الحب، الصبابة، الهوى، العلاقة، الجوى، الخلة، الكلف، العشق، الشغف، الشعف، التيم، البتل، الوله، ثم الهيام وهووصول الحب الى درجة الجنون. فالشغف هنا هوشدة الحب الذي يتمكن من سواد القلب. قال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٨٠) فأي شدة حب تلك التي ملأت قلب امرأة العزيز فملأ الحب كل وجودها ليصل الى أقوى مراتبه شدة حتى لامس شغاف قلبها الواله.

وأما هو عليه السلام فقد استغرق في حب ربه وأخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشيء في قلبه محلا غير حبيبه فهوفي خلوة مع

(٧٧) الصف:١٣.
(٧٨) آل عمران:١٨٨.
(٧٩) يوسف:٣٠.
(٨٠) يوسف:٣٠.

ربه وحضرة منه يشاهد فيه جماله وجلاله وقد طارت الأسباب الكونية على ما لها من ظاهر التأثير من نظره فهوعلى خلافها لا يتبجح بالأسباب ولا يركن إلى الأعضاد، ترى أنَّها تتوسل عليه بالأسباب بتغليق الأبواب والمراودة والأمر بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾(٨١)، وأما هوفقد قابلها بقوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾(٨٢)، فقد كان تنازعا بين حب وهيام إلهي وعشق وغرام دنيوي يتشاجران في يوسف كل منهما يجذبه إلى نفسه، وكانت كلمة الله هي العليا فأخذته الجذبة السماوية الإلهية ودافعت عنه المحبة الإلهية والله غالب على أمره"(٨٣)، وكان حب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام - كقوة وجدانية ونفسانية- قد أظهرته وفعلته تدريجيا على فترة من الزمن الى أن تسببت بالأسباب فقامت بالاختلاء به ثم همت به ثم عملت على تغليق الأبواب ثم مراودته وبعدها دعت نساء المدينة، ولأنَّهن لم يحببن يوسف عليه السلام على نفس تلك الفترة من الزمن ولم يرينه سابقا كما كان لامرأة العزيز التي عاشت معه، فإنَّهن قد تفاجأن بحبه فكان (فعل) حبهن ليوسف مفاجئا أيضا، أي أن ما أظهرنَّهن من تعبير لحبهن كان مفاجئ أيضا: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(٨٤).

إن إظهار مكنون حبهن وذلك الشعور النفسي كان بإكبارهن وإعظامهن، وهووصف وتعبير عن اندهاشهن وغيبتهن عن شعورهن وإرادتهن بمفاجأة مشاهدة ذاك الحسن الرائع مما أدى الى تقطيع أيديهن بدل الفاكهة. فكان الحب الذي هومن خلجات النفس لا يدرك من الآخرين إلا بالتعبير عنه بالفعل الحسي من قبيل

(٨١) يوسف:٢٣.
(٨٢) يوسف:٢٣.
(٨٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٨٤) يوسف:٣١.

ما مر بامرأة العزيز أونساء المدينة. وإن من عظيم تنزيه يوسف عليه السلام أنه سبحانه وتعالى لم يتعرض في الآيات الشريفات الى الإشارة اللفظية لأي (تودد)؛ لأنه تعبير حسي عن قوة الحب الكامنة في النفس البشرية لإظهار حب امرأة العزيز بالتحبب اللفظي أوالإشارة اليه، بل استقر الكلام على انه عليه السلام ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾(٨٥)، وهذا كما تلاحظ فهو على المستوى الشعوري والنفسي لامرأة العزيز، فكان سعير حبها يلهب قلبها سرا، بل إن ما قامت بإظهاره من خلال مراودته وما تبعها كان تجسيدا عمليا واقعيا لذلك الحب الدفين في النفس.

ويبدو انَّها لم تظهر ذلك الشغف إلا بالعناوين التي حددها القرآن الكريم تنزيها ليوسف عليه السلام، الذي لم يكترث به لتعففه وامتلاء قلبه وولهه بحبه عز وجل.

وفي نظير كلام النسوة اللاتي اجتمعن وما أبدين ومعهن امرأة العزيز من مكنونات ضمائرهن وخلجات نفوسهن تجاه يوسف عليه السلام وهويعيش في جوالملكوت العلوي ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(٨٦) فلم يرد عليهن بل ذهب مخاطبا المحبوب الذي ملأ قلبه ووجدانه على أن عذاب السجن والمكوث فيه أحب الى قلبه من دعوتهن اليه.

ولهذا كله ولأن الحب هوباطني شعوري لا يقدر شدته وضعفه إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي سيكشفه لهم ويريهم إياه على حقيقته وجوهره، فقال عز وجل: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(٨٧) فالله

(٨٥) يوسف:٣٠.
(٨٦) يوسف:٣٣.
(٨٧) آل عمران١٥٢.

وحده المطلع على شدة الحب ولمن يكون. لكن البعد العملي لتلك الخلجات النفسية من حب فإنه سيتمثل على أرض الواقع من خلال التودد والتحبب والمودة على المستوى العاطفي وكلها فعمل لقوة الحب.

فإظهار (حب) المحب لمحبوبه المدرك هو(المودة)، بينما أن ما مر مع امرأة العزيز فقد كان إظهارا لسلوك الحب.

إذن فإن (المودة) هي إظهار (قوة) الحب تجاه محبوبه من جهة العاطفة للمدرك، انظر في قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٨٨) فلم يقل عز وجل بينكم وبينهم حب؛ لأن الحب مضمور ومستور في النفس وغير بائن للآخرين وعندها لا تتحقق من خلال الحب تلك العلاقة البينية فالحب قوة بينما المودة فهي فعل لتلك القوة، أقصد الحب، فالمودة هي مَظهَر لذلك الحب، وليس بالضرورة ان الفعل يكافئ القوة بالمقدار، فالمودة هي فعل لذلك الحب، وهوالقوة الغريزية والفطرية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في البشر.

(٨٨) النساء:٧٣.

أمثلة على البينية بالمودة:

١- في التودد المتمثل بتقرب النصارى من المؤمنين من غير تكبر، فمودتهم للمؤمنين كانت أكثر مما لليهود والمشركين؛ لأن للنصارى العلم النافع والعمل الصالح والخضوع للحق وكان فيهم قسيسون ورهبان وهم لا يستكبرون: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٨٩] إن ذلك يتطلب جهدا وعملا دؤوبين على تحقيق التواد والتحاب بواحدة منها هوعدم استكبارهم، وهوواحد من مظاهر ذلك الحب.

فلو- افتراضا - كانت الآية أقربهم (حبا) وليس (مودة) للذين آمنوا لكان ذلك التقرب بالإحساس والشعور وليس بالفعل. وكيف يمكن للمؤمنين أن يعرفوا ذلك الحب وهوإحساس نفساني في صدور النصارى.

نعم إنَّ المودة هي من مصاديق الحب وهي مظهر من مظاهره.

٢- المودة ما بين الزوجين: فلا بد أن يظهر أحدهما للآخر ما يكنه في قلبه وسريرته من مكنون حبه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدة وَرَحمَة﴾[٩٠]، فهذه البينية لا تتم أصلا إذا كانت مجرد حب لا يراه الآخر ولا يستشعره، وإنما جعل سبحانه بينهما المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما.

فالمودة هي المحبة والرحمة هي الشفقة. «فالمودة كأنَّها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هونوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء»[٩١] وهذا القول يعضد ويعزز ما ذهبت اليه في دلالة لفظ الحب وهوالقوة بينما المودة هوفعل وإظهار آثار الحب.

٣- المودة في القربى: قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٩٢]. إنّهم قربَ الرسول صلى الله عليه وآله وهم أهل

(٨٩) المائدة:٨٢.
(٩٠) الروم:٢٥.
(٩١) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٩٢) الشورى:٢٣.

بيته، وما معنى أن تكون المودة في القربَ وليس للقربَ؟ فالمودة «إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها»(٩٣).

وكيف تكون المودة في القربّى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربَى أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم لي.

وقد أشار سبحانه وتعالى الى طبيعة المودة للقربَى فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٩٤)، إن المراد بالحسنة مودة قربَ النبي صلى الله عليه وآله(٩٥).

٤- مرة أخرى، إن إظهار الحب يحتاج الى فعل ومن بين الأفعال التي ذكرها القرآن الكريم فبالإضافة الى ما مر بنا يقدم لنا فعل الإلقاء. فالمودة ليست كامنة في القلب كالحب، فيقول عز وجل ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَةِ﴾(٩٦)، «أي تلقون إليهم المودة وتبذلون لهم النصيحة»(٩٧) إن بذل الود والتواد لا يزال إظهارا للحب حتى لوكان في السر وبعيدا عن عيون الآخرين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَةِ﴾(٩٨)، ولأن القرآن عدّ هذه المودة سرا فهي خافية عن عيون الآخرين لكنها لا تزال قائمة ومتبادلة بين اثنين ولم تكن في صدر أحدهما فقط، ولوكانت كذلك ولم يبديها أحدهما لكانت حبا وليست مودة. وتتكرر البينية بين طرفين بالمودة ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٩٩)، أي

(٩٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(٩٤) الشورى :٢٣.
(٩٥) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية ٢٠٠٩.
(٩٦) الممتحنة:١.
(٩٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي،)ت ٥٤٨هـ).
(٩٨) الممتحنة:١.
(٩٩) الممتنحنة:٧.

يستبدل عداوتكم مودة بتوفيقهم للإسلام. لقد ذُكرت مفردة المودة في القرآن الكريم ثماني مرات في سبع آيات كلها تأتي في حالة الرابطة البينية بين طرفين يتبادلان فعلا المودة والمحبة وبأساليب ودرجات متعددة.

وقد يقول قائل: إنَّ ما جاء في الآية التالية: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١٠٠] إشارة الى بينية في (تُحِبُّونَهُمْ) و(يُحِبُّونَكُمْ) فما الفارق اذن؟

الفارق بين الحب والمودة:

الفارق بيّن واضح في أن الحب يكتم في الصدر أما المودة فتبث الى الطرف الآخر. فمن خلال الآية السابقة نرى أن أحد الطرفين يحب الآخر والثاني ليس لديه نفس الحالة الوجدانية ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾، هذا من جهة ومن جهة أخرى ولأنه لم يتبادلا المكنون في صدريهما من حب تجاه الآخر ليكون حقيقة على أرض الواقع ويفعلاه، حينئذ يتحقق مضمون الآية الشريفة فتراهما متضادين بالشعور فواحد يكمن الحب والثاني يكمن الكراهية، ولا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، ولأنَّهما لم يتبادلا الحب بالتحبب والمودة ولم يفصح أحدهما عن مكنون شعوره للآخر فبالتالي أكيد أنَّهما سيفترقان على ذات الحالة من الفرقة والاختلاف: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[١٠١].

(١٠٠) آل عمران: ١١٩.

(١٠١) آل عمران: ١١٩.

لا أحب، هل تعني أكره؟

ورد لفظ (لا أحب) في القرآن الكريم ٢٣ مرة، ومن بينها مرة واحدة على لسان النبي ابراهيم عليه السلام في الآية: ﴿قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[١٠٢] و٢٢ مرة تُخص الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١٠٣] ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[١٠٤] ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُل كَفارٍ أَثِيمٍ﴾، ﴿فَإِن اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١٠٥]، ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظالِّمِينَ﴾[١٠٦]؛ ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالا فَخُورا﴾[١٠٧]، ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوانا أَثِيما﴾[١٠٨]، ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[١٠٩]، ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِين﴾[١١٠]، ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١١١]، ﴿إِنهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[١١٢][١١٣]، ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾[١١٤]، ﴿إِنهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[١١٥]، ﴿إِن اللهَ لا يُحِبُّ كُل خَوانٍ كَفُورٍ﴾[١١٦]، ﴿إِن اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[١١٧]، ﴿إِن اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١١٨]، ﴿إِنهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١١٩]، ﴿إِن اللهَ لا يُحِبُّ كُل مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١٢٠]، ﴿إِنهُ لا يُحِبُّ الظالِمِينَ﴾[١٢١]، ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ كُل مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١٢٢] إن الدقة باستعمال (لا يحب) عوضا عن (يكره) فيها من العناية الفائقة بالمعنى فإن كل واحد من الذين ذكروا في الآيات الشريفة قد خرج من دائرة الحب تماما إذ تعني أن الله لا يمكن ان يسع حبه للكافرين اوالمعتدين أو الفاسدين وهكذا.

أما لوكان يكره الكافرين فتعني أنّ هناك مجالاً لحبهم فلم يخرجوا تماما من دائرة الحب، وقد التفت (ابوهلال العسكري)[١٢٣]

(١٠٢) الانعام:٧٦.
(١٠٣)البقرة:١٩٠
(١٠٤)البقرة:٢٠٥.
(١٠٥)آل عمران:٢٧٦.
(١٠٦)آل عمران:٣٢.
(١٠٧)آل عمران:٥٧.
(١٠٨)النساء:١٠٧.
(١٠٩) النساء:١٤٨.
(١١٠) المائدة:٦٤.
(١١١) المائدة:٨٧.
(١١٢) الاعراف: ٣١، الانعام:١٤١.
(١١٣) الاعراف:٥٥.
(١١٤) الانفال:٥٨.
(١١٥) النحل:٢٣، ٣٨.
(١١٦) الحج: ٣٨.
(١١٧) القصص:٧٦.
(١١٨) القصص:٧٧.
(١١٩) الروم:٥٥.
(١٢٠) لقمان:١٨.
(١٢١) الشورى:٤٠.
(١٢٢) الحديد:٢٣.
(١٢٣) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

الى الفارق بين المفردتين لا يحب ويكره على ما سنأتي عليه بالتفصيل في المثال الثالث.

فيكون الله سبحانه وتعالى مثلا لا يريد الفساد ولا يحبه فهذا يعني قطعا لا وجود مع الفساد وجه آخر يرتضيه سبحانه وتعالى، فاقتصرت الآية على لفظ (لاَ يُحِبُّ) الفساد. وإلا لكان (يَكْرَه) الفساد. وعلى أي حال فإن «الحب والبغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابه إليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه»[١٢٤].

الودود:

الودود صيغة مبالغة مشتقة من الود. والودود من أسماء الله تعالى، وهوفعول من الود بمعنى المحبة إلا أن المستفاد من موارد استعماله (أنه نوع خاص من المحبة وهوالحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة كالألفة والمراودة والإحسان، والله سبحانه يحب عباده ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾[١٢٥] فهوتعالى ودود لهم)[١٢٦]، «ودود بهم أي محب لهم، ومعناه مريد لمنافعهم»[١٢٧] والذي يهمنا هنا هوأنه سبحانه وتعالى واهب لهم بالمحبة ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم، ويختلف المقال لوقال يحبهم كما في: ﴿**لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[١٢٨]، «معناه لا يريد ثوابهم، ولا مدحهم، كما يحب ثواب المؤمنين

وقد بينا فيما مضى أن المحبة هي الإرادة.

(١٢٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٢٥) إبراهيم ٣٤.
(١٢٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٢٧) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).
(١٢٨) البقرة:١٩٠.

وإنما قلنا - والكلام للطوسي- إنَّها من جنس الإرادة، لان الكراهة تنافيها، ولا يصح اجتماعهما، ولأنَّها تتعلق بما يصح حدوثه لا كالإرادة، فلا يصح أن يكون محب اللإيمان كارها له، كما بينا في أن يكون مريدا له وكارها. وتعلق المحبة بأن يؤمن، كتعلق الإرادة بأن يؤمن.

وإنما اعتيد في المحبة الحذف، ولم يعتد ذلك في الإرادة، فيقال: الله يحب المؤمن، ولا يقال: الله يريد المؤمن.

وقول: ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١٢٩]، ظاهره يقتضي أنه يسخط عليهم؛ لأنه على وجه الذم لهم إذ لا يجوز أن يطلق على من لا ذنب له من الأطفال، والمجانين. والاعتداء مجاوزة الحق. وأصله المجاوزة، يقال: عدا إذا جاوز حده في الاسراع»[١٣٠].

والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩) البقرة: ١٩٠.
(١٣٠) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).
(١٣١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٥٨٠ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

الفصل الثالث
الكراهية والبغضاء

الكراهية هي قوة وجدانية، والبغض هوفعلها، وهوتعبيرها الواقعي ومظهرها. وقبل الولوج بدراسة الفرق بين اللفظين لا بد لي من العروج على مادتي الكره والبغض لغويا ودلالتهما القرآنية.

الكراهية:

فالكراهية عبارة عن (إرادة عدم الفعل)[١٣١]، وجاء في المعجم الوسيط: (كَرِهَ الشيءَ كُرْها (بفتح الكاف أوضمها).

وكَرَاهة، وكَرَاهية: خلاف أحَبه، فهوكَريه، ومكروه. كَرُه الأمرُ والمنظرُ كَرَاهة (بالضم أو الفتح)، وكَراهية: قبُح. فهوكريه. أكْرَهَه على الأمر: قهره عليه. كَرهَ إليه الأمر: صيره كريها إليه. تَكَارَه الشيء: كَرِهه. ويقال: فعل كذا متكارها: فعله وهولا يريده ولا يرضاه)[١٣٢]، بينما يذهب النراقي الى أن الكراهة: (وهي نفرة الطبع عما لا يخلوعن ايلام واتعاب، فإذا قويت سميت مقتا، وضدها الحب، وهوميل الطبع إلى الشيء الملذ، فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا)[١٣٣].

فالكُره إذا هوفي الطبع، وهوإرادة وهوخلاف الحب الذي هوميل الطبع. والحب كما أسلفنا: هو(تعلق وجودي وانجذاب خاص بين العلة المكملة أوما يشبهها وبين المعلول المستكمل أوما يشبهه)[١٣٤]، فأستطيع القول إذاً: الكُره يكون تعلقا وجوديا وهونفور بين العلة وما ينقص تكاملها من المعلول.

أما الألفاظ التي بينها ولفظ الكره تقارب دلالي هي: بغضاء، شنآن، قِلَى، مقت، إذ تشترك في أنَّها جميعا تناقض الحب، وفيها عدم رِضا. والكُرْه أعمُّ هذه الألفاظ. ولسائرها ملامح دلالية تميز بعضها عن بعض.

وفي البحث هنا سنفصل في الفرق بين الكراهية التي هي قوة وبين باقي الألفاظ التي هي فعلها، (فالبغضاء: شدة الكراهية، والشنآن: بُغض شديد وتجنُّب وتقذُّر، والقِلَى: بغُض شديد مع ترك ونفور والتجافي عن الشيء وتركه، والمقتُ: بغض شديد مع قبح الممقوت ومنافاته للمروءة)[١٣٥].

(١٣٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الخامسة عام ٢٠١١م.
(١٣٣) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠م.
(١٣٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٣٥) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥ هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الفارق بين كره بضم الكاف وفتحها:

ولأن لفظ (كره) ورد في القرآن الكريم مرة بضم الكاف (كُره)، وأخرى بفتحها (كَره) فيلزمنا أن نتعرف على الفارق بين مدلوليهما. وقد جمع ذلك ابن سيده في قوله: (الكَره الإباء والمشقة تكلفها فتحتملها والكُره، بالضم، المشقة، تحتملها من غير أن تكلفها، يقال: فعل ذلك كَرها وعلى كَره)[١٣٦]، ولم يخالف معجم البلدان[١٣٧] هذا المذهب: إذ (الكره، يتضمن: الإباء والمشقة، بالضم: ما كُره تنفسك عليه، وبالفتح، ما أكَرهك غيرك عليه)[١٣٨]، ولم يجعل له ابن فارس في مقاييس اللغة، غير معنى واحد، في قوله: (الكاف والراء والهاء أصل صحيح واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة، يقال كرهت الشيء أكرهه كرها)[١٣٩]، ويتناول السيد الطباطبائي ثلاثة وجوه لسبب الكُره للخروج للقتال المكتوب في الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[١٤٠]. ويرجح واحد منها فيقول: (الكُره بضم الكاف: المشقة التي يدركها الإنسان من نفسه طبعا أوغير ذلك، والكَره بفتح الكاف: المشقة التي تُحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه، قال تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسَاء كَرْها﴾[١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوعا أَوكَرها قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١٤٢]، وكون القتال المكتوب كُرها للمؤمنين؛ لأن القتال لكونه متضمنا لفناء النفوس وتعب الأبدان والمضار المالية وارتفاع الأمن والرخص والرفاهية، وغير ذلك مما يستكرهه الإنسان في حياته الاجتماعية

(١٣٦) المخصص، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، المعروف بابن سيده (ت٤٥٨هـ)، دار صادر بيروت.

(١٣٧) معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدا لله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر بيروت.

(١٣٨) د. خليفة بوجادي، ورقة بحث، ثنائية)الحب والكره(في الخطاب القرآني، مع تقريب تداولي، المؤتمر الدولي الثالث عشر، جامعة فيلادلفيا، عمان الأردن،٢٠٠٨م.

(١٣٩) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥ هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(١٤٠) البقرة :٢١٦.

(١٤١) النساء :١٦.

(١٤٢) فصلت:١١.

لا محالة كان كُرها وشاقا للمؤمنين بالطبع)[١٤٣]، وبطبيعة الحال فإن (الإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ويسلط عليه نورا جديدا، إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتُسيغ مرارته)[١٤٤].

وتلخيصا لما سبق فإن الكُره أوالكَره- بالضم والفتح - إرادة عدم الفعل وعدم الرضا، ونفرة الطبع ونقيض الرغبة والإقبال على أمر حبا فيه، وهي التكلف في جهد ومشتقة طبعا أوقسرا وكلاهما في نفس الإنسان ولم يبدر منه عملا يترتب عليه سوى امتعاض النفس وتكدرها، وفي أصل الموضوع وأساس الكراهية نرى أن ابن فارس في مقاييس اللغة لم يجعل له غير معنى واحد، في قوله: (الكاف والراء والهاء أصل صحيح واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة، يقال كرهت الشيء أكرههَ كُرها)[١٤٥] أما السياقات الواردة في القرآن الكريم في الكره، فهي أكثر ما ترتبط بأشياء محددة في حياة الإنسان؛ نحو: كراهية الإنفاق، كراهية الخروج في سبيل الله، كراهية الاغتياب، وهكذا.

والكَره (بالفتح) الواردة في قوله تعالى فهي: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[١٤٦] ففي هذه الآية تحمل (كُرْهًا) صيغة امتعاض النفس والتكلف في حمله وهي كارهة كذلك، وبتكرارها في

(١٤٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ).
(١٤٤) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، (ت١٩٦٦م)، دار الشروق
(١٤٥) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥ هـ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٤٦) الاحقاف:١٥.

موضعين (حمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْها)، (وَوَضَعَتْهُ كُرْها)، تتكرر هذه القيمة، بمختلف سياقات الامتعاض وحمل الشيء إكراها لا رغبة وحبا، وتلك حال الأم في حملها الجنين وحال وضعه.

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: (والكَره بفتح الكاف وبضمها مصدر أكره، إذا امتعض من شيء، أي كان حمله مكروها له، أي حالة حمله وولادته، و(كُرْها) أي كارهة أوذات كره. والمعنى أنّها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل ووضعه بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه)[١٤٧].

ونجد لفظ كَره (بالكاف المفتوحة في الآيات الآتية: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوكَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١٤٨]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُووَالْآصَالِ﴾[١٤٩]، ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوكَرْهًا﴾[١٥٠] وهؤلاء لا ينفقون إلا كرها لقوله تعالى ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[١٥١].

ولقد سبق بيان أن الكَره إتيان الأمر على امتعاض وتكلف وضغط من الخارج، أو هو أشد الإلزام، قوله تعالى:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١٥٢].

ومما ورد من استعمالات (الكَره) في القرآن الكريم أيضا، قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١٥٣]، وقوله ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[١٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[١٥٥]، ﴿وَلَوأَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً

(١٤٧) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (ت١٣٩٣هـ).
(١٤٨) آل عمران:٨٣.
(١٤٩) الرعد:١٥.
(١٥٠) التوبة:٥٣.
(١٥١) التوبة:٥٤.
(١٥٢) البقرة:٢٥٦.
(١٥٣) يونس:٩٩.
(١٥٤) النحل:١٠٦.
(١٥٥) النور:٣٣.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[١٥٦]، أي (لم يرد خروجهم)[١٥٧]، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١٥٨] وكما تلاحظ من التعبير القرآني فإنَّا صورة تبعث على التقزز ونبذ حصولها، وهي صورة الأخ الذي يأكل لحم أخيه ميتا؛ وهذا أمر تتأذ ى له النفوس والأرواح، وأن (الكراهة هنا للاشمئزاز والتقذر)[١٥٩].

وتتكرر الصورة في الآية الشريفة: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[١٦٠].

ومن الآيات الأخرى التي استعملت هذا الفعل، (كره) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١٦١]، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١٦٢]، والمضارع منه في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[١٦٣]، ومن اشتقاقاته الأخرى، وردت صيغة اسم الفاعل في أكثر من موضع نحو﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[١٦٤].

ويمكننا من خلال هذه الآيات الكريمة أن نجيب عن التساؤل التالي: هل أن الكراهية أوالكره قوة أم فعل؟ يعني قوة خافية مضمرة في النفس البشرية لا يشعر بها إلا صاحبها، أم فعل يظهر عنه سلوك عدائي وعدواني وحقد وبغض وضرب وما يلازم هذه الكراهية للآخرين.

وللإجابة عليه نقول: هل الكره قوة أم فعل؟ انطلاقا مما ذكرته سابقا من أن الكراهية هي من خلجات النفس المدركة، وهي لا زالت بإطار القوة لا الفعل، فهي في الفطرة وحبيستها، استناداً

(١٥٦) التوبة:٤٦.
(١٥٧) تفسير الجلالين.
(١٥٨) الحجرات:١٢.
(١٥٩) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (ت ١٣٩٣هـ).
(١٦٠) التوبة:٨١
(١٦١) التوبة:٣٢، غافر:١٤، الصف:٨
(١٦٢) التوبة: ٣٣، الصف:٩.
(١٦٣) النحل:٦٢.
(١٦٤) الانفال:٥.

لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[١٦٥]، (فإن تكره الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تتنفر عنها نفوسهم، أونحب الإيمان والانجذاب إليه وكراهة الكفر والفسوق والعصيان هوسبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويتنفر عن الغي الذي يقابله)[١٦٦].

ومن هذه الآيات وغيرها أعيد ما قلته سابقا: أن الكُره يكون تعلقا وجوديا وهونفور بين العلة وما ينقص تكاملها من المعلول، والكره في الطبع، وهوإرادة، وهوخلاف الحب الذي هوميل الطبع. ومن متابعة الآيات الشريفة نرى أن الكره مرتبط بنفوسهم لا بأفعالهم فهم ينفقون ولكن على كراهية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[١٦٧]، أو(اعتذارهم عن عدم إيمانَّهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به؛ لأنه جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[١٦٨]، وإنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقة أن يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون البتة)[١٦٩]، والحقيقة التي يؤكدها القرآن الكريم في أن هذه الكراهية المتجذرة في نفوسهم، والتي ما انفكوا من خلالها يحاربون الدعوة الحقة. وواحد من تلك الأساليب للتعبير عن كراهيتهم هي المحاربة الفكرية المناوئة التي عبر عنها القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ

(١٦٥) الحجرات:٧.
(١٦٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٦٧) التوبة:٥٤.
(١٦٨) الزخرف:٧٨.
(١٦٩) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١٧٠]، (فقوة)كراهيتهم أظهروها بفعل العمل على تشويه الصورة بما يصفوه بأفواههم، ولم يتم ذلك إلا لكراهيتهم لله دعوة الحقة. أوفي قوله جل وعلا: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[١٧١]، فالله بذلك يحق الحق، ويبطل الباطل ولوكان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه)[١٧٢]، ويأتي الكره بعنوان الإرادة فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى وتشتمل أفعالهم لا أنفسهم: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[١٧٣]، (أي لا يريده الله تعالى)[١٧٤]، ولاحظ معي في الآية الشريفة التالية: ﴿وَلَوأَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[١٧٥]، أي (لم يرد خروجهم)[١٧٦]. وهي متعلقة أيضا بفعل خروجهم فكانت لفعل خروجهم لا لأنفسهم. وأكرر ما قاله الطباطبائي في: (أن بغضه تعالى لأحد هوانقباض رحمته منه وابتعادها عنه)[١٧٧].

وهناك اشارة جميلة يتناولها القرآن الكريم الى أن الكره يبقى حبيس القلوب والصدور، وذلك من خلال تتبع الآيات التي تعرض مفهوم الكره لدى المشركين للذين آمنوا، ومنها ما ورد في سورة التوبة: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١٧٨].

ويمكن للقارئ أن يتلمس مقدار الكره الذي تنطوي عليه نفوسهم للمؤمنين، وتأبَ قلوبهم، فلا يرضون إلا العداوة والغدر

(١٧٠) الصف: ٨-٩.
(١٧١) الانفال:٨.
(١٧٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١ هـ).
(١٧٣) الاسراء:٣٨.
(١٧٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١ هـ).
(١٧٥) التوبة:٤٦.
(١٧٦) تفسير الجلالين.
(١٧٧) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٧٨) التوبة:٨.

ونقض العهد، بينما يظهروا لهم من جميل القول من أفواههم. بمعنى آخر: أنَّ لم يترجموا الكراهية الى فعل عدائي أويظهرون على صفحات وجوههم. بل كتموا كل ذلك الكره وأظهروا عكسه من القول الجميل.

وليس بالضرورة أن يكون الإباء الوارد في الآية الشريفة (وتأب قلوبهم) يعبر عن الكراهية وقد فرق أبو هلال العسكري[١٧٩] بين الإباء والكراهية فقال: «إن الإبَاء هو أن يمتنع، وقد يَكْرَه الشيء مَن لا يقدر على إبائه. ويستشهد بالآية التالية ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إلا أن يتم نورَه**﴾[١٨٠]، أي: «يمتنع مِن ذلك، ولوكان الله يأبَى المعاصي كما يكرهها، لم تكن معصية ولا عاصٍ». وكذلك فإن «الكَرَاهَة ضدُّ الإرادة، ونفُور الطبع ضدُّ الشهوة، وقد يريد الإنسان شرب الدواء المرِ مع نفُور طبعه منه، ولوكان نفُور الطبع كراهة، لَمَا اجتمع مع الإرادة، وقد تُسْتَعمل الكَراهَة في موضع نفُور الطبع مجازا، وتُسمى الأمراض والأسقام: مكاره؛ وذلك لكثرة ما يَكْرَه الإنسان ما يَنْفِر طبعه منه»[١٨١].

لا زلنا في موضوع أن الكراهة هي ما يضمره الإنسان لا ما يظهره، أما مظهر وفعل الكراهة وهوالبغض فسنأتي على شرحه حينما نستكمل جوانب موضوع الكراهية.

لا يحب لا يعني يكره:

في جانب آخر نرى أن القرآن الكريم يستخدم لفظ لا يحب في الآيات الكريمة وليس لفظ يكره. فما الفرق بينهما؟ يقول أبوهلال العسكري: (فالفرق بين قولك لا يحبه وقولك يبغضه: أن

(١٧٩) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(١٨٠) التوبة:٣٨.
(١٨١) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

قولك لا يحبه أبلغ من حيث يتوهم إذا قال يبغضه إنه يبغضه من وجه ويحبه من وجه كما إذا قلت يجهله جاز أن يجهله من وجه ويعلمه من وجه وإذا قلت لا يعلمه لم يحتمل الوجهين)[١٨٢] ومع أني استشهدت بما قاله (أبوهلال العسكري)، وذلك من باب التمييز بين لا يحب ويبغض، إذ أني لا أتفق معه في استخدام لفظ البغض والأصح أن يكون الكراهية بدل البغض وإن كانت دلالتهما اللغوية متقاربتين؛ لأن الكراهية قوة، والبغض فعل.

نعود لموضوعنا فإن (لا يحب) مثلا في الآي: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١٨٣] فالتعدي هو خروج عن الحد)[١٨٤]، وخروجهم عن الحد هوخروج على ما أراده الله سبحانه وحدده بالشريعة السمحة فلا مجال لمتجاوز الحد أن يكون فيه شيء ما فيه طاعة لله لذلك فأن المعتدين وهم المتجاوزون للحد هم في دائرة الذين لا يحبهم الله، فليس لهم عمل مرضي عند الله سبحانه وتعالى لذلك لا مجال أن يكون كراهية.

فلوكان لديهم عمل آخر مرضي عنده سبحانه وتعالى بالإضافة الى فعلهم الأول المكروه من قبله عز وجل ولا يريده حينئذ يكون لفظ (يكره) هوالمستعمل إذ أن (الحب والبغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بِها، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابِها إليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه)[١٨٥].

(١٨٢) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(١٨٣) البقرة:١٩٠.
(١٨٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٨٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).

نعم إنه سبحانه وتعالى يكره أعمالهم المترتبة على كفرهم ويبغضها، وهذا ما سنأتي على شرحه إن شاء الله.

الفرق بين البغض والكراهة:

أما البغض فإنه (نفار النفس عن الشيء الذي تغب عنه، فيقال: بغض الشيء بغضا وبغضته بغضاء)[١٨٦]. على أن البغض ليست الكراهة، فالبغض هوفعل لقوة الكراهية التي تحملها خلجات النفس، وان البغض هوالأسلوب والعمل الظاهر والبادي من عداوة وبغضاء وحقد وشنآن لما يكتمه في صدره من كراهية، وهوأوسع وأشمل من الكراهية بالعمل.

(وأنه قد اتسع بالبغض ما لم يتسع بالكراهة فقيل أبغض زيدا أي أبغض إكرامه ونفعه، ولا يقال أكرهه بِذا المعنى كما اتسع بلفظ المحبة فقيل أحب زيدا بمعنى أحب إكرامه ونفعه ولا يقال أريده فيه ذا المعنى، ومع هذا فإن الكراهة تستعمل فيما لا يستعمل فيه البغض فيقال أكرهه ذا الطعام ولا يقال أبغضه كما تقول احبه والمراد إني أكره أكله أن المراد بقولك اريد هذا الطعام أنك تريد أكله أوشراءه، إذا قال أكره له الخير لم يبين أنه لا يريد له الخير البتة وإذا قال أبغضه أبان أنه لا يريد له خيرا البتة)[١٨٧].

والذي أريد تأكيده أن الكره هونقيض الحب وليس المحبة التي هي المودة وإنما نقيضها هوالبغض.

(فالمحبة) (المودة) ضدها البغض، والبغضة هي إرادة الاستحقار والاهانة، ونقيضها المحبة وهوإرادة الاعظام والاجلال)[١٨٨].

(١٨٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(١٨٧) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(١٨٨) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

فلسفة البغض والكراهية:

(الحب هوضد الكراهة، وهوعبارة عن ميل الطبع إلى الملائم الملِذ، فالكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فلا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولم يدركه، فالحب من خاصية الحي المدرك، بعد حصول الادراك بالفعل. مثلما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرِك ويلذه، وإلى ما يخالفه ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإلذاذ وايلام، فالقسم الأول يكون مرغوبا عند المدرك، ويسمى رغبة، وميله إليه حبا، والقسم الثاني يكون منفورا عنده، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضا، والثالث لا يوصف بميل وكراهة، فلا يوصف بكونه محبوبا، ولا مكروها.

ثم اللذة لما كانت عبارة عن إدراك الملائم الملذ ونيله، فالحب الذي هوالميل والرغبة إليه لا يخلوعن لذة محققة أوخيالية، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنَّها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعا وعقلا، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل، وإن كان مما يذم حبه، كان بالعكس من ذلك)[١٨٩].

(١٨٩) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت ١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠م.

انتقال الكراهة من القوة الى الفعل المتحقق بالبغض

من خلال رصد لفظ البغضاء في الآيات الكريمة الآتية نرى أن البغضاء لم تعد مضمرة مدفونة كالكراهية في صدره ولا يشعر

بها إلا صاحبها بل هي بادية ظاهرة ويعمل بها صاحبها وتؤثر في الآخرين فبين المبغض وغيره بينية البغض، وأساليب إظهارها متعددة بينما لم نر ذلك عند استخدام لفظ كره.

عند مراجعة الآية الآتية نرى أن حجم الكراهية في الصدور أكبر بكثير مما يظهرها المبغض فعلا، وتسمى بغضاء وليس كراهية، وأن البغضاء بادية ظاهرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١٩٠]، فبدت البغضاء من أفواههم أريد به ظهور البغضاء والعداوة من لحن قولهم وفلتات لسانهم ففيه استعارة لطيفة وكناية، ولم يبين ما في صدورهم بل أبهم قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[١٩١]، للإيماء إلى أنه لا يوصف لتنوعه وعظمته وبه يتأكد قوله: أَكْبَر)[١٩٢].

وتتكرر ظاهرة البينية التي شرحناها في الموضوع السابق (الحب والمودة)، فلم يعد الكره حبيس الصدور وإنما انتشر بين الأفراد، وأصبح فعلا متحققا ظاهرا باديا تؤكده الآية الشريفة: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[١٩٣].

وكذلك في الآية الآتية: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٩٤]، (والعداوة كأن المراد بها البغض الذي يستصحب التعدي في العمل، والبغضاء

(١٩٠) آل عمران: ١١٨.
(١٩١) آل عمران: ١١٨.
(١٩٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٩٣) المائدة:١٤.
(١٩٤) المائدة:٦٤.

هو مطلق ما في القلب من حالة النفار وإن لم يستعقب التعدي في العمل فيفيد اجتماعهما معنى البغض الذي يوجب الظلم على الغير والبغض الذي يقصر عنه)[١٩٥]، ومرة أخرى تتأكد البينية في البغضاء المرافقة كإفراز لها العداوة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[١٩٦]. وللتأكيد لم نجد هذه البينية في حالة الكراهية أوعدم الحب في لفظ (لاَ يُحِبُّ) وإنما تقتصر على المنسوبة اليه.

مفردات مماثلة للبغض:

وهناك مفردات مماثلة للبغض كلها (فعل) للكراهية يظهرها الإنسان بسلوكيات متعددة. ومنها: الشنآن، القِلى، المقت. ومع اختلاف الألفاظ فلا تُسعفنا اللغة بفروق دلالية دقيقة بين هذه الألفاظ، كما يتضح من تساوى معانيها، لكن الذي أريد أن أؤكده أنها كلها مظاهر فعلية للكراهية التي تكون على مستوى القوة الكامنة في النفس.

١- الشنآن:

وهو في اللغة: البغض مع التجنُّب والتقزز والقبح[١٩٧].

والشنآن العداوة والبغض، وهوأن تبغض الشيء بُغضا شديدا مع تَقَذُّرٍ له[١٩٨]. ومنها ما أظهرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[١٩٩]، (ومحصل معنى الآية: ولا يحملنكم عداوة قوم وهو أن منعوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بعد ما أظهركم الله عليهم)[٢٠٠].

(١٩٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(١٩٦) المائدة:٩١.
(١٩٧) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(١٩٨) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(١٩٩) المائدة:٢.
(٢٠٠) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).

ومما جاء في الآية الشريفة الآتية برهان واضح لحقيقة البغض، فيقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢٠١]. ومما جاء في تفسر هذه الآية أنه: (في مقام الردع عن الانحراف عن العدل في الشهادة لشنآن وبغضٍ من الشاهد للمشهود عليه، فيقيم الشهادة عليه يريد بها نوع انتقام منه ودحض لحقه)[٢٠٢]، فقد تجلى من بغضه أنه يشهد شهادة منحرفة انتقاما للمشهود عليه. فلم يعد الكاره كاتما لكراهيته في صدره بل أظهر بغضه وشنئته، فهوهومبغض شانيء: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[٢٠٣].

٢- القِلَى:

في اللغة التجافي عن الشيء وتركه[٢٠٤]، لشدة الكُره له[٢٠٥]، ومعنى القِلَى: البغض الشديد كأنه بغُض يَقْلِي الفؤاد والكبد؛ وذلك لِعِظَم معصيتهم[٢٠٦].

وأما القِلَى فقد ورد في القرآن الكريم مرتين، في الآيتين التاليتين: الأولى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾[٢٠٧]. فقد جاءت على لسان النبي لوط عليه السلام مخاطبا قومه الذين كانوا يأتون الرجال من دون النساء فكان مبغضا تاركا لعملهم المشين، (راغبا في النجاة من وباله النازل بقومه لا محالة، ولذا أتبعه بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٢٠٨].

فجاء خطابه لهم مباشرة لإظهار بغضه لعملهم ومتجاف عنهم وكل ذلك اجتمع في لفظ (قالٍ)، ولم يقل أنا كاره لعملكم أولا

(٢٠١) المائدة:٨.
(٢٠٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ)
(٢٠٣) الكوثر:٣.
(٢٠٤) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٢٠٥) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ.
(٢٠٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
(٢٠٧) الشعراء:١٦٨.
(٢٠٨) الشعراء:١٦٩.

أحب عملكم لما بيناه فيما سبق. وكما عرفنا أن القلى بكسر القاف هو البغض أو شدته ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[٢٠٩]، أي لم يبغضك.

٣- المقت:

والمقت في اللغة: أَشدُّ البُغض، وهو بغُض عن أمر قبيح رَكِبَه[٢١٠]. وقْتُ: أشدُّ البغض الم، ومنه (قيل لمن ينكح امرأة أبيه (مقتي)، لكونه ممقوتا في كل قلب، وهولمن ارتكب فعلا قبيحا منافيا للمروءة)[٢١١].

فالمقت أشد هذه الكلمات وأخَصُّها؛ لأنه يتضمن الكراهية، مع الشدة، والقبح، ومنافاة المروءة. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[٢١٢]. فمرة ينسب المقت لله سبحانه وتعالى وهومن الصفات الفعلية له عز وجل: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢١٣].

في هذه الآية الكريمة (قيد المقت بقوله: (عِنْدَ رَبِّهِمْ) من دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا والسعادة شقاء وهو أمر عند أنفسهم وأما المقت وشدة البغض فمن عند الله سبحانه. وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه)[٢١٤]، ويتكرر المقت المنسوب لله عز وجل في الآية التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾[٢١٥].

(٢٠٩) الضحى:٣.
(٢١٠) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ.
(٢١١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩.
(٢١٢) النساء: ٢٢.
(٢١٣) فاطر: ٣٩.
(٢١٤) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ)
(٢١٥) غافر:١٠.

فمقت الله أشد من مقتهم أنفسهم. ومرة ثالثة في الآية الآتية: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢١٦]، والمعنى(مقته الله تعالى ولعنه وأعد له العذاب ومقته المؤمنون وأبغضوه)[٢١٧]، ومرة رابعة في الآية: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢١٨]. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع
الفرح والسرور ومظاهرهما

إن الفرح والسرور كليهما حالتان نفسيتان وجدانيتان ملذة وهما انفتاح القلب بما يلتذ به، ويمنعا النفس عن الجزع مع الابتهاج والانبساط، (فالسرور فوق الرضا في الشرافة)[٢١٩]، وضدهما الحزن والغم وفيهما الألم، وكلاهما أيضا من القوة لا من الفعل، ولكن يظهران على صور أخرى بالفعل وعلى الواقع كالابتهاج والبطر والحبور وغيرهما مما سنأتي عليه.

الفرق بين الفرح والسرور:

ويمكننا أن نحدد الفروق بينهما فيما يلي:

١- إنّ السرور لا يكون إلا بما هونفع أولذة على الحقيقة، أما الفرح فقد يكون بما ليس بنفع ولا لذة كفرح الصبي بالرقص والعدووالسباحة وغير ذلك مما يتعبه ويؤذيه ولا يسمى ذلك سرورا ألا ترى أنك تقول الصبيان يفرحون بالسباحة والرقص ولا تقول يسرون بذلك[٢٢٠]. أوكفرح الحالم ففرحه لا على حقيقة.

٢- الفرح غالبا ما يكون للذات العاجلة: قال الراغب: (الفرح

(٢١٦) غافر:٣٥.
(٢١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل ابي الحسين الطبرسي .
(٢١٨) الصف:٣.
(٢١٩) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت ١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠.
(٢٢٠) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

انشراح الصدر بلذة عاجلة)[٢٢١]، وهنا استشهد بقول قال الإمام علي عليه السلام: (ما لعلي وزينة الدنيا؟ وكيف أفرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟)، ويعلق الشيخ النراقي على هذا الحديث قائلا: (بل ينبغي أن يرضي نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضيا بما يرد عليه من خير وشر، وقد ورد في الآثار إن الله تعالى بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، ومن رضي بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، فإن كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالشطارة، ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء)[٢٢٢].

والفرح فيه ممدوح ومذموم، أما السرور فكله ممدوح، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢٢٣].

وقد فسر الطباطبائي (فسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلومن تعلق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر والأشر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢٢٤]، وقال تعالى ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٢٢٥]، فالفرح مطلق السرور، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم)[٢٢٦]. كما أن (الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية، وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه)[٢٢٧].

(٢٢١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٢٢٢) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠.
(٢٢٣) القصص:٧٦.
(٢٢٤) الحديد:٢٣.
(٢٢٥) غافر:٧٥.
(٢٢٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت ١٤٠١هـ)
(٢٢٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.

٣- الفرح أكثر ما يكون في اللذات البدنية وتكون عاجلة، أما السرور فيكون غالبا في اللذات المعنوية.

٤- صيغة الفرح والسرور في العربية هي أن الفرح فعل مصدر فعل فعلا وفعل المطاوعة والانفعال، فكأنه شيء يحدث في النفس من غير سبب يوجبه، والسرور اسم وضع موضع المصدر في قولك سر سرورا وأصله سرا وهوفعل يتعدى ويقتضي فاعلا فهومخالف للفرح من كل وجه، ويقال فرح إذا جعلته كالنسبة وفارح إذا بنيته على الفعل، وقال الفراء: الفرح الذي يفرح في وقته والفارح الذي يفرح فينا يستقبل مثل طمع وطامع[٢٢٨]، (ويضاد الفرح الغم، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشنت بصدره: إذا حزنته، يقال حزن يحزن، وحزنته وأحزنته)[٢٢٩]، قال عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾[٢٣٠].

والسرور ما ينكتم من الفرح، قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٢٣١]، وقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[٢٣٢]، وقوله في أهل الجنة: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[٢٣٣]، وقوله في أهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[٢٣٤].

٥- السرور: ينسب للسرور أداة مثل السرير ولا ينسب للفرح شيء، والسرير الذي يُجلس عليه من السرور، إذ كان ذلك لأولي النعمة، وجمعه أسرة، وسرر، قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾[٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾[٢٣٦]، وقوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾[٢٣٧]، وأن سرير

(٢٢٨) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٢٢٩) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٢٣٠) آل عمران: ١٥٣.
(٢٣١) الانسان: ١١.
(٢٣٢) البقرة: ٦٩.
(٢٣٣) الانشقاق: ٩.
(٢٣٤) الانشقاق: ١٣.
(٢٣٥) الطور: ٢٠.
(٢٣٦) الغاشية: ١٣.
(٢٣٧) الزخرف: ٣٤.

الميت تشبيها به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى، وخلاصه من سجنه المشار إليه بقوله ﷺ: (لدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[٢٣٨].

٦- سرور الدنيا ليس كسرور الآخرة، قال تعالى في أهل الجنة: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[٢٣٩]، وقوله في أهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[٢٤٠]، على أن سرور الآخرة يضاد سرور الدنيا.

٧- الفرح في الدنيا والسرور في الآخرة: أن معظم الآيات التي ورد فيها لفظ فرح هي في الأرض، مثلا في قوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٢٤١]، إلا في آية واحدة تتكلم عن الذين يقتلون في سبيل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٤٢].

بينما معظم الآيات التي ورد فيه لفظ سرور هي في الآخرة، مثلا في قوله تعالى ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٢٤٣].

٨- لا يوجد نفي للسرور في الآيات الكريمة؛ لأن كل السرور ممدوح، بينما الفرح قد يتضمن على المذموم منه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢٤٤].

(٢٣٨) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٢٣٩) الانشقاق:٩.
(٢٤٠) الانشقاق:١٣.
(٢٤١) غافر:٧٥.
(٢٤٢) آل عمران: ١٦٩-١٧١.
(٢٤٣) الانسان:١١.
(٢٤٤) القصص:٧٦.

درجات السرور والفرح:

أولا: مراتب السُّرُور:

١- الجَذَلُ: وهو أولُ مَرَاتِبِ السرور، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: (آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه، فقلت: يا رسول الله آخيتَ بين أصحابك وتركتني فردا لا أخ لي، فقال: إنما أخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى. فقمت وأنا أبكي من الجذل والسرور)[٢٤٥].

٢- ابْتِهَاجُ: أي سر به سرورا بان أثره على وجهه، ومنها بهجة وبهيج: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[٢٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢٤٧].

٣- الاسْتِبْشَار: وهو الاهتِزَازُ. ثُم الارْتِيَاحُ والابْرِنْشَاقُ[٢٤٨].

ثانيا: مراتب الفرح المذموم وهي:

١- الفرح: وإن كان في أغلب أحواله مذموما لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢٤٩]، فقد يحمد تارة إذا كان على قدر ما يجب، وفي الموضع الذي يجب، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٢٥٠].

٢- المرَحُ: وهوشِدةُ الفَرَحِ، ومِنْهُ قَوْلَهُ عَزَ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[٢٥١].

وفي الآية الآتية تفريق بين اللفظين بالشدة فيقول تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٢٥٢]، (فالفرح مطلق السرور، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم)[٢٥٣].

(٢٤٥) كنز الفوائد، ابي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي، دار الاضواء بيروت، ١٩٨٥م، ج ٢، حديث الإخاء.
(٢٤٦) النمل:٦٠.
(٢٤٧) ق:٧.
(٢٤٨) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٢٤٩) القصص:٧٦.
(٢٥٠) يونس:٥٨.
(٢٥١) الاسراء:٣٧.
(٢٥٢) غافر:٧٥.
(٢٥٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).

٩- **البطر**: والبطر أبلغ من الفرح، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢٥٤].

١٠- **الأشر**: أبلغ من البطر: لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ* سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[٢٥٥] (أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق)[٢٥٦].

ثالثا: مظاهر الفرح والسرور:

تطرقت فيما سبق الى مراتب الفرح وشدته، وهنا أبين أن الفعل الذي تفرزه النفس البشرية تعبيرا عن خلجاتها لقوي الفرح والسرور، ومن بينها:

١- **الاستبشار**: البشارة والبشرى ما يسرك من الخبر والاستبشار طلب السرور بالبشرى، (سر إذا ثقل فمن البشرى، وإذا خففت فمن السرور يقال: بشرته فبشر)[٢٥٧]، (وتباشير الوجه وبشره: ما يبدومن سروره)[٢٥٨] قوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالجَنةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢٥٩]، وفي قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٦٠]، فالفرح ضد الحزن، والمعنى: (أنَّهم فرحون بما وجدوه من الفضل الإلهي الحاضر المشهود عندهم، ويطلبون السرور بما يأتيهم من البشرى بحسن حال من لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين وهوأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وليس ذلك إلا بمشاهدتهم هذا الثواب

(٢٥٤) القصص:٧٦.
(٢٥٥) القمر:٢٦.
(٢٥٦) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٢٥٧) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ.
(٢٥٨) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩.
(٢٥٩) فصلت:٣٠.
(٢٦٠) آل عمران: ١٦٩-١٧١.

في دارهم التي هم فيها مقيمون فإنما شأنَّهم المشاهدة دون الاستدلال)[٢٦١].

٢- **الأشر**: شدة البطر، قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[٢٦٢]، فالأشر أبلغ من البطر.

والأشر لا يكون إلا فرحا بحسب قضية الهوى[٢٦٣]، البطر أبلغ من الفرح، فإن الفرح- وإن كان في أغلب أحواله مذموما لقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢٦٤].

وقد يحمد تارة إذا كان على قدر ما يجب، وفي الموضع الذي يجب، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٢٦٥] وذلك أن الفرح قد يكون من سرور بحسب قضية العقل)[٢٦٦]، (وقد فُسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلومن تعلق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر والأشر)[٢٦٧]، ولذا قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢٦٨]، ولا بد من الإشارة الى الفارق بين البشارة والخبر في أن البشارة: (هي الإخبار بما يسر به المخبر به إذا كان سابقا لكل خبر سواه، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢٦٩]، و﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٢٧٠] فهو من باب التهكم والاستهزاء.

وقيل: اشتقاقه من البشرة وهو ظاهر الجلد لتأثيره في تغيير بشرة الوجه، فيكون فيما يسر ويغم؛ لان السرور كما يوجب تغيير

(٢٦١) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٢٦٢) القمر:٢٦.
(٢٦٣) لسان العرب، ابن منظور ، و مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٢٦٤) القصص:٧٦.
(٢٦٥) يونس:٥٨.
(٢٦٦) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية،٢٠٠٩م.
(٢٦٧) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٢٦٨) الحديد:٢٣.
(٢٦٩) آل عمران:٢١.
(٢٧٠) النحل:٥٨.

البشرة، فكذلك الحزن يوجب)[٢٧١]. ولعله من الملائم أن ندرس الفرق بين الاستبشار والسرور: (فالاستبشار هوالسرور بالبشارة والاستفعال للطلب والمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة فوجده، وأصل البشرة من ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه)[٢٧٢] كما أن الفرق بين البشر والبشاشة: (أن البشر أول ما يظهر من السرور بلقي من يلقاك، ومنه البشارة وهي أول ما يصل إليك من الخبر السار فاذا وصل إليك ثانيا لم يسم بشارة)[٢٧٣].

٣- **البهجة:** هي حسن اللهو وظهور السرور، وسر به سرورا بان أثره على وجهه، وأبهجه كذا[٢٧٤]. وفيه قال عز وجل: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**﴾[٢٧٥]، قال تعالى: ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[٢٧٦] والفرق بين البهجة والحسن هو (أن البهجة حسن يفرح به القلب، وأصل البهجة السرور ورجل بِهج وبِهيج مسرور وابتهج إذا سر ثم سمي الحسن الذي يهج القلب بهجة)[٢٧٧].

٤- **زف:** يعني أسرع، ومنها قوله تعالى: ﴿**فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**﴾[٢٧٨]. أي مسرعون، ومنه استعير: زف العروس، واستعارة ما يقتضي السرعة لا لأجل مشيتها، ولكن للذهاب بها على خفة من السرور.

٥- **الحبور:** إن (هي النعمة الحسنة من قولك حبرت الثوب إذا حسنته، وفسر قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ**﴾[٢٧٩]، أي تنعمون وإنما يسمى السرور حبورا لأنه يكون مع النعمة

(٢٧١) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٢٧٢) المصدر السابق.
(٢٧٣) المصدر السابق.
(٢٧٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، - ٢٠٠٩
(٢٧٥) النمل:٦٠.
(٢٧٦) ق:٧.
(٢٧٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٢٧٨) الصافات:٩٤.
(٢٧٩) الروم:١٥.

الحسنة)[٢٨٠]. وأن (الفرق بين الحبور والسرور: قيل: السرور انبساط القلب لنيل محبوب أوتوقعه.

والحبور: السرور الذي يظهر في الوجه أثره، فهو أشد السرور)[٢٨١]، ولذا خاطب سبحانه أهل الجنة بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[٢٨٢].

٦- **الضحك**: هو انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس، واستعير الضحك للسخرية، وقال تعالى: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[٢٨٣]، ﴿إِذَا هُم مِّنهَا يَضْحَكُونَ﴾[٢٨٤]، وقوله ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ﴾[٢٨٥]، ويستعمل في السرور المجرد نحو: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ *ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[٢٨٦]، وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٢٨٧]، وقوله: ﴿فتبسم ضاحكا﴾[٢٨٨].

٧- **قرة العين**: ويعبر عن السرور بقر العين إذ أن تقر: سرت، فقال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[٢٨٩]، وقيل لمن يسر به: قرة عين، قال: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[٢٩٠]، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[٢٩١]، قيل: أصله من القر، أي: البرد، فقرت عينه، قيل: معناه بردت فصحت، وقيل: بل لأن للسرور دمعة باردة قارة، وللحزن دمعة حارة، ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه.

٨- **العجب**: إنّ العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله

(٢٨٠) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٢٨١) المصدر السابق
(٢٨٢) الزخرف:٧٠.
(٢٨٣) المؤمنون:١١٠.
(٢٨٤) الزخرف:٤٧.
(٢٨٥) النجم:٦٠.
(٢٨٦) عبس:٣٨-٣٩
(٢٨٧) التوبة:٨٢.
(٢٨٨) النمل:١٩.
(٢٨٩) طه:٤٠.
(٢٩٠) القصص:٩.
(٢٩١) الفرقان:٧٤.

شيء عند صاحبه. يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[٢٩٢]، يقول الطباطبائي: (أعجبه الشيء - أي راقه وسره، وقوله: في الحياة الدنيا، متعلق بقوله: يعجبك، أي إن الإعجاب في الدنيا من جهة أن هذه الحياة نوع حياة لا تحكم إلا على الظاهر.

وأما الباطن والسريرة فتحت الستر ووراء الحجاب، لا يشاهده الإنسان وهومتعلق الحياة بالدنيا إلا أن يستكشف شيئا من أمر الباطن من طريق الآثار ويناسبه ما يتلوه: من قوله تعالى: ويشهد الله على ما في قلبه)[٢٩٣]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٢٩٤]، (فالإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال أوكمال أونحوهما)[٢٩٥]، وهومعجب بنفسه إذا كان مسرورا بخصالها.

ولهذا يقال أعجبه كما يقال سر به فليس العجب من الكبر في شيء)[٢٩٦].

السراءُ: النعمة، والضراء: الشدة. والسراءُ: الرخاء، وهو نقيض الضراء.

والسُّرُّ والسراء والسُّرُورُ سَرةُ، كُلُّه: الفَرَحُ. يقال: سُرِرْتُ برؤية فلان وسَرني لقاؤه وقد سَرَرْتُه أَسُرُّه أَي فَرحْتُه. والسُّرور خلاف الحُزن؛ تقول: سَرني فلان مَسَرة وسُر هوعلى ما لم يسم فاعله.

ويقال: فلان سرير إذا كان يَسُرُّ إخوانَه ويَبَرهُّم[٢٩٧]. قال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[٢٩٨]. وقوله تعالى:

(٢٩٢) البقرة:٢٠٤.
(٢٩٣) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٢٩٤) التوبة: ٥٥.
(٢٩٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٢٩٦) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٢٩٧) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، دار صادر بيروت، - ١٤١٤ هـ
(٢٩٨) البقرة:٦٩.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[٢٩٩]، السراء والضراء (ما يسر الإنسان وما يسوؤه أواليسر والعسر)[٣٠٠]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣٠١].

٩- مرح: (المرح شدة الفرح بالباطل، ولعل التقييد بالباطل للدلالة على خروجه عن حد الاعتدال، فإن الفرح الحق هوما يكون ابتهاجا بنعمة من نعم الله شكرا له وهولا يتعدى حد الاعتدال، وأما إذا فرح واشتد منه ذلك حتى خف عقله وظهر آثاره في أفعاله وأقواله وقيامه وقعوده وخاصة في مشيه فهومن الباطل)[٣٠٢]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[٣٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[٣٠٤]، الفرح مطلق السرور، والمرح الإفراط فيه وهومذموم)[٣٠٥].

١٠- النضرة: هي البهجة وحسن اللون والسرور مقابل المساءة والحزن ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٣٠٦]. وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[٣٠٧].

رابعا: أوصاف الحزن:

ولاستكمال الفكرة من المهم أن نتعرف على الضد من الفرح وهوالحزن وفي تَفْصيل أوْصَاف الحُزْن ما يلي:

١- البَثُّ: أشَدُّ الحُزْن: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣٠٨].

(٢٩٩) آل عمران: ١٣٤.
(٣٠٠) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٣٠١) الاعراف:٩٥.
(٣٠٢) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٣٠٣) الاسراء:٣٧.
(٣٠٤) غافر:٧٥.
(٣٠٥) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، (ت١٤٠١هـ).
(٣٠٦) الانسان:١١.
(٣٠٧) المطففين:٢٤.
(٣٠٨) يوسف:٨٦.

٢- الكَرْبُ: الغَمُّ الذي يَأْخُذُ بالنفْس: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[٣٠٩].

٣- الأسَى: واللهَفُ حزْن على شيءٍ يَفُوتُ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣١٠].

٤- الأسَفُ: حُزْن مَعَ غَضَب، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾[٣١١].

٥- التَرَح: ضِدُّ الفَرَح[٣١٢].

٦- المساءة: نسب ذلك إلى الوجه من حيث أنه يبدو في الوجه أثر السرور والغم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا. ﴾[٣١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[٣١٤]، أيحل بِهم ما يسوءهم.

الفصل الخامس
الظلم والجور

معنى ظلم في لسان العرب: (الظُّلْمُ هووَضْع الشيء في غير موضِعه)[٣١٥]، (وأن الظلم قد يراد به ما هوضد العدالة، وهو التعدي عن الوسط في أي شيء كان)[٣١٦].

وأصل الظُّلم الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحد[٣١٧]؛ ولأنه تجاوز وتعدي ومن أنقص نفسه من الثواب فقد ظَلَمَ نفْسه.

والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء نعم هو وضع الشيء

(٣٠٩) الانبياء:٧٦.
(٣١٠) الحديد:٢٣.
(٣١١) الاعراف:١٥٠.
(٣١٢) فقه اللغة وسرُّ العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، إحياء التراث العربي،٢٠٠٢م.
(٣١٣) الملك:٢٧.
(٣١٤) هود:٧٧.
(٣١٥) لسان العرب، ابن منظور
(٣١٦) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، (ت١٢٠٩هـ)، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٠م.
(٣١٧) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

في غير موضعه المختص به؛ إلا أنه (يكون إما بنقصان أوبزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أومكانه.

والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم)[٣١٨]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣١٩].

الظلم ثلاثة:

والظلم ثلاثة، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى: وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق ولذلك قال: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣٢٠].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس: وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٣٢١].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه: وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَالْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٣٢٢]، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبدا مبتدئ في الظلم، ولهذا قال تعالى في غير موضع: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣٢٣]، فقد قيل:

(٣١٨) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٣١٩) البقرة:٣٥.
(٣٢٠) لقمان:١٣.
(٣٢١) الشورى:٤٠.
(٣٢٢) فاطر:٣٢.
(٣٢٣) النحل:٣٣.

(هو الشرك، بدلالة أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ)[٣٢٤]، وقال لهم: ألم تروا إلى قوله: ﴿إن الشرْكَ لَظُلْم عَظِيم﴾[٣٢٥].

الفرق بين الجور والظلم:

إنّ الجور: (خلاف الاستقامة في الحكم.

فتقول: جار الحاكم في حكمه، والسلطان في سيرته، إذا فارق الاستقامة في ذلك)[٣٢٦].

والجور: (وهو الميل عن الطريق، يقال: جار جورا. ومن الباب طعنه فجوره أي صرعه)[٣٢٧].

والظلم: (ضرر لا يستحق ولا يعقب عوضا، سواء كان من سلطان أوحاكم أوغيرهما. فالخيانة تسمى ظلما، ولا تسمى جورا. فإن أخذ ذلك على وجه القهر أوالميل سمي جورا، وهذا واضح. وأصل الظلم: نقصان الحق.

والجور: العدول عن الحق، من قولنا جار عن الطريق إذا عدل عنه)[٣٢٨].

ونلاحظ مما سبق أنَّا لا تعدوالخلجات النفسية فالظلم في مكامن القوة النفسية وفعل الظلم هوالجور الذي يفعل بالقهر والغلبة ومن مظاهره وهي كثيرة نأخذ منها:

١- **العدوان:** من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾[٣٢٩]، والعدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزا ممدوحا أومحظورا مذموما قال تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى

(٣٢٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٣٢٥) لقمان:١٣.
(٣٢٦) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٣٢٧) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت٣٩٥ هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
(٣٢٨) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٣٢٩) النساء:٣٠.
(٣٣٠) البقرة:١٩٣.

﴿الْبِرِ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٣٣١]، فهو(أعم موردا من الظلم، ومعناه في الآية تعدي الحدود التي حدها الله تعالى)[٣٣٢].

وفي كلتا الآيتين الكريمتين جاء العدوان بمعية الظلم مرة ومرة أخرى مع الإثم وهما الجانب المعنوي أوالنفسي وما اصطلحنا عليه بقوة الظلم أما الظلم العملي اوالفعلي فهوالعدوان كما في الآيتين الشريفتين.

٢- الإساءة: قد يعبر عن فعل الظلم بالإساءة: (فأن الإساءة اسم للظلم يقال أساء إليه إذا ظلمه والسوء اسم الضرر والغم يقال ساءه يسوؤه إذا ضره وغمه وإن لم يكن ذلك ظلما)[٣٣٣].

والإساءة إنما هي من باب القبح كما فلسفها أبن فارس في مقاييسه فيقول: (لذلك سميت السيئة سيئة. وسميت النار سوأى، لقبح منظرها)[٣٣٤].

قال الله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾[٣٣٥].

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٣٣٦]، فالإساءة إنما تكون بفعلها لا بتخيلها ولذلك كان العقاب أي إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلوكان صالحا نافعا انتفعت به نفسه وإن كان سيئا ضارا تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه وهو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيئ إلى صاحبه وهو العقاب ظلم ووضع للشيء في غير موضعه، ولوكان ذلك ظلما كان تعالى في إثابته وتعذيبه من لا يحصى من العباد في ما

(٣٣١) المائدة:٢.
(٣٣٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي.
(٣٣٣) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري..
(٣٣٤) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.
(٣٣٥) الروم:١٠.
(٣٣٦) فصلت:٤٦.

لا يحصى من الأعمال ظلاما للعبيد لكنه ليس بظلم ولا أنه تعالى ظلام لعبيده وبذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٣٣٧]، ولم يقل: وما ربك بظالم[٣٣٨].

٣- **البغي**: (ولعل البغي في الأصل معناه الطلب وكثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي عليه فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلما وعتوا، وربما كان بمعنى الزنا والمراد به في الآية هوالتعدي على الغير ظلما)[٣٣٩]، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٣٤٠].

(والبغي هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم والتعدي على الناس والاستيلاء غير المشروع عليهم، ووصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم)[٣٤١]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٣٤٢]. وإنما الاستيلاء والاستكبار والاستعلاء كلها تجاوز وتعدي فهي أفعال للظلم.

٤- **الهضم**: أما الهضم فإنه نقصان بعض الحق ولا يقال لمن أخذ جميع حقه قد هضم. والظلم يكون في البعض والكل وفي القرآن ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَمُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٣٤٣]، أي لا يمنع حقه ولا بعض حقه (وأصل الهضم في العربية النقصان ومنه قيل للمنخفض من الارض هضم والجمع أهضام)[٣٤٤].

٥- **الجور**: الجَوْرُ نقيضُ العَدْلِ، أَي ظَلَمَ والجَوْرْ ضِدُّ القصدِ والجَوْرُ تركُ القصدِ في السير، وكل ما مال فقد جارَ وجارَ عن الطريق عَدَلَ، (هوالميْلُ عن القصدِ وجار عليه في الحكم وجَورَهُ

(٣٣٧) فصلت:٤٦.
(٣٣٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
(٣٣٩) المصدر السابق
(٣٤٠) النحل:٩١.
(٣٤١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
(٣٤٢) الاعراف:٣٣.
(٣٤٣) طه:١١٢.
(٣٤٤) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

تَجْويرا والجَوْرُ هونسَبه إلى الجَوْر)[٣٤٥]، وهوالعدول عن كل حق، فبني منه الجور، قال تعالى: ﴿مِنْهَا جَائِرٌ﴾[٣٤٦]، أي: عادل عن المحجة، وقال بعضهم: الجائر من الناس: (هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع)[٣٤٧]، وهو (الميل عن الطريق)[٣٤٨].

٦- وهناك مفردات كثيرة تدل على المعنى ذاته منها:

البخس، والنقصان، والأَذى، والتَعَدي، والحيف، والشطط، والجنف، والميل، والغشم والاستبداد، والاستطالة، والإِضْرار، والاضطهاد. لا يسع المقام لذكرها.

وبمقارنة بسيطة بين الظلم وواحد من تلكم الألفاظ نرى أن الظلم هوتعبير نفسي، ما أن يطبق على أرض الواقع من إظهار القوة النفسية الكامنة الى الفعل المتمثل بواحدة من الألفاظ السابقة حتى يخصص بذلك الفعل من جور أوميل أواستبداد او شطط او غيرها.

(٣٤٥) لسان العرب، ابن منظور
(٣٤٦) النحل:٩.
(٣٤٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية، ٢٠٠٩م.
(٣٤٨) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي(ت١٤٠١هـ).

٢- لسان العرب، إبن منظور (المتوفي: ٧١١هـ)دار صادر من بيروت.

٣- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل التستري(ت ٣٩٥هـ) دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

٤- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي مؤسسة البعثة ١٩٩٢م.

٦- نهج البلاغة دار الكتاب العربي (١٣٩٠هـ)كتاب الإمام علي لإبنه الحسن.

٧- جامع السعادات محمد مهدي النراقي(ت١٢٠٩هـ)مؤسسة الأعلمي ١٩٨٠.

٨- مصابيح الأنوار ١٩٠ص٢٠٤ ح:٣٠.

٩- مجمع البيان في تفسير القرآن الفضل بن الحسين الطبرسي(ت٥٤٨هـ).

١٠- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم الدار الشامية ٢٠٠٩.

١١- الكافي، الكليني ج٨ ط١.

١٢- التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي(ت ٤٦٠هـ).

١٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٥٨٠هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٦هـ.

١٤- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط٥ عام ٢٠١١م.

١٥- المخصص، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بإبن سيده (ت٤٥٨هـ) بيروت.

١٦- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الروحي البغدادي دار صادر بيروت.

١٧- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي(ت١٩٦٦ م) دار الشروق.

١٨- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ).

١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري دار المعرفة ٢٠٠٩.

٢٠- كنز الفوائد أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي، دار الأضواء بيروت ١٩٨٥ ج٢ حديث الأنصار.

٢١- فقه اللغة وسر العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي(ت٤٢٩) أخبار التراث العربي، ٢٠٠٢م.

٤

هل كانت لغةُ القرآنِ مُعرَبَة

الأستاذ المساعد الدكتور عادل عباس النصراوي
كلية التربية الأساسية - جامعة الكوفة

هل كانت لغةُ القرآنِ مُعْرَبَة

لم يخفَ على أحدٍ من القدماء أو شكَّ في كون القرآن الكريم نزل معرباً ولا أعرف منهم من قال بغيرذلك، بل المعروف أنّ لغة القرآن قد اقترنت بالإعراب، وأنّه كان سمة من سمات العربية قبل نزول القرآن الكريم، وقد أخذته من أصلها الجزري كما يذهب الى ذلك كثيرٌ من المستشرقين إذ (احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرّف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية - باستثناء البابلية القديمة - قبل عصر نموَها وازدهارها الأدبي)[1]، وكانت قريش حاضرة الفصاحة إذ لم يُدنِس لسانها عجمة أو عادة لغوية مذمومة ممّا علق بباقي لغاتِ أو لهجات القبائل العربية الأخرى التي ابتعدت عن قريش أو خالطت الأعاجم ممّن كان يسكن جوار الفرس أو الروم أو الأحباش.

ولم نسمع منهم من أخطأ في نطق أو إعراب كما سمعنا ذلك من غيرهم من القبائل العربية، وقد روي أنّ سبب وضع الإمام عليّ عليه السلام النحو، أنّه سمع أعرابياً يقرأ: ﴿**لا يأكله إلاّ الخاطئين**﴾، فوضع النحو، ويُروى أيضاً أن قدِم أعرابي على عمر بن الخطاب في أثناء خلافته، وطلب مَن يُقرِأهُ القرآنَ فأقرأه قارئ من سورة براءة، فقال: ﴿**إنّ اللهَ بريء من المشركين ورسولِه**﴾ بالخفض، فقال الأعرابي: (أَوَ قد برأ اللهُ تعالى من رسوله ؟! إن يكن اللهُ تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه).... الى آخر القصة[2] وغيرها من القصص التي تروى في ذلك (والتي إذا حامت الشكوك حول

(١) العربية / يوهان فك: ٣
(٢) ظ: نزهة الألباء/ ابن الأنباري: ١٩ - ٢٠

صحتها فأنّ دلالتها على وجود الإعراب لا يتطرق إليه الشك)[٣].

إنّ ما ظهر من هذه الأخطاء في قراءة القرآن ربّما هو الذي أخذ بأيدي بعض المستشرقين الى القول إنَّ القرآن كان بلغة عوام قريش ثم نقّحه العلماءُ بعد ذلك إذ إنّ الخطأ هنا وارد فليس كل من يقرأ القرآن أو يحفظ بعض سُوَره يكون في مأمن من السهو والغفلة أو الخطأ في نطق لفظة أو عبارة أو نسيان حركة ثم يأتي مَن تحامل على القرآن فيُوسِمه بعدم الفصاحة المفضية الى عدم الإبانة والوضوح لفظاً ونطقاً وهذا يؤدّي الى طمس المعاني والدلالات في حين جاء في القرآن أكثر من آية تصفه بالبيان والفصاحة، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُبِينٍ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[٥] وغيرها.

والقرآن في عُرف المستشرقين هو أوثق وثيقة وأصدقها وصلت اليهم لا الشعر الجاهلي، والأخيرّ كان موضع خلاف بينهم ولعلّ أكثرهم يذهب الى أنّه دُوَن فيما بعد الرسالة المحمدية أو أنّهم يذهبون الى إنكار أكثر الشعر قبل الاسلام، منهم المستشرق الانكليزي مرجليوث الذي استند في مقولته تلك الى مجموعة من الآيات القرآنية التي تنسب الغموض الى الشعر كقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[٦]، حين يقول: (ولئن كانت الآية التالية يلوح أنّها تستثني بعض الشعراء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾[٧]،

(٣) مدرسة الكوفة / د. مهدي المخزومي: ٢٤٦
(٤) سورة الشعراء / الآيات من ١٩٣ - ١٩٥
(٥) سورة النحل / الآية ١٠٣
(٦) سورة الشعراء / الآيات من ٢٢٤ - ٢٢٦
(٧) سورة الشعراء / الآية ٢٢٧.

فإنّ أسلوب القرآن يجعل من غير المؤكد ما إذا كان هذا الاستثناء ينطبق على الشعراء في الواقع)[٨].

وكذلك استند الى الآثار والنقوش التي تخلو من الشعر آنذاك فيقول: (والكمية الهائلة من النقوش التي ترجع الى ما قبل الاسلام والتي نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ليس فيها شيء من الشعر)[٩].

بيد أنّه نسي أن العرب كانت أمة تحفظ أكثر ممّا تكتب حتى جاء الاسلام، فقد كانوا يُعيبون على مَن يكتب ويقيدّ، لما لهم من حافظة قوية تبلغهم ما يُريدون وكان الشاعر ذو الرمة يقرأ ويكتُم ذلك، فقد قال عيسى بن عمر: (قال لي ذو الرمة: ارفع هذا الحرف فقلت له: أتكتب ؟ فقال بيده على فيه، أي: أكتُم عليَّ فأنّه عيبٌ)[١٠].

وقد يتوهّم أيضاً بعض المستشرقين في نسبة عدم إعراب القرآن الى إسكان الحركات في حال الوقف، إذ تُسكّن فيه آخر الكلمات عند القراءة وهو من سُنن كلام العرب إذ لا يقف العربي على متحرك ولا يبتدأ بساكن، فلمّا لم يجد المستشرقون حركات أواخر الكلمات عند الوقف أو الفاصلة ظنّوا أنّ القرآن غير مُعرَب فنسبوا عدم الإعراب إليه، غير أنّ نولدكه قد تنبّه الى هذه القضية وعزاها الى هجرة الأعداد الكبيرة من العرب الخارجين من الجزيرة العربية الذين أصبحوا لا ينطقون حركات الإعراب في آخر الكلمة ممّا ضيّع ميزة كبرى للغة العربية، وأنّ سقوط مثل هذه الحركات لا يكون إلاّ في أواخر الكلمات عند الوقف فقط[١١]، ولم يعزُ مثل هذه المسألة الى عدم الإعراب في القرآن أصلاً.

(٨) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي / د. عبد الرحمن بدوي: ٨٨ (مقالة: نشأة الشعر الجاهلي - تأليف: ديفيد صموئيل مرجليوث).
(٩) م. ن.: ٩٠
(١٠) الشعر والشعراء / ابن قتيبة: ٥٢٥/١، الاغاني / أبو الفرج الاصفهاني: ١٧ / ٣٣١
(١١) ظ: اللغات السامية / نولدكه: ٨٠

ثم إنّا علمنا أنّ النبي محمدﷺ كان يشجّع على تعلّم القراءة والكتابة، وقد جعل فداء أسرى قريش في معركة بدر أنّ يعلّم كل أسير منهم مجموعة من المسلمين القراءة والكتابة، لأجل طلب العلم وتقييده، وقد أكّد هذا الحال من الدعوة الى التعلم المستشرق أوجست اشبرنجرA.sprenger في مقالٍ له[١٢]، ولذلك يمكن إنَّ الكتابة لم تُعد غير موجودة في جزيرة العرب، بل كانت موضع تداول لكن ليست بكثرة، ربّما كان بسبب قلة مواد الكتابة والنقش لذلك ذهب المستشرق ف. كرنكوف الى القول (في وسعنا أن نتحقق من أنّ الكتابة لم تكُن شيئاً نادراً في بلاد العرب كما يفترض عامة، ذلك أنّنا حين نقرأ أشعار الشعراء التي وصلت الينا فأننا نجد فيها مراراً إشاراتٍ الى الكتابة)[١٣]، ثم يُورد أمثلة على ذلك ممّا قاله بعض الشعراء العرب من نحو الرجاز ابي النجم، والشاعر ابي دؤاد الكلبي، وقيس بن الحطيم، وامريء القيس، وغيرهم[١٤].

لعلّ السبب الآخر في توهم عدم الإعراب في القرآن الكريم يعود الى الكتابة ذاتها التي وردت من عصر النبوة حين كان كُتاب النبي محمدﷺ يكتبون ما يُتلى عليهﷺ من القرآن، وكانت العادة في الكتابة عدم شَكْل الحركات والنقط، وهذا الأمر سبّب في كثير من الأحيان ظهور القراءات القرآنية وتعدّدها إذ اجتهد بعض القراء في ذلك فقرأوا بما اجتهدوا به حتى ظهر الفرق كبيراً بينها وبين القرآن الكريم، لذا عدّ الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) أنّ القرآن الكريم والقراءات القرآنية حقيقتان متغايرتان[١٥].

(١٢) ظ: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي / د. عبد الرحمن بدوي: ٢٥٦ – ٢٦٠ (مقالة: الرواية والرواة عند العرب – أوجست اشبرنجر)

(١٣) م. ن: ٢٩٦ (مقالة: استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربي القديم – ف. كرنكوف)

(١٤) ظ: م. ن: ٢٩٦ – ٢٩٧

(١٥) ظ: الإتقان / السيوطي: ١/ ١٦٠

ثم لمّا أُشْكِلت الحروف العربية بالنقط والحركات بمبادرة من الخليل بن احمد الفراهيدي حُفِظت العربية من وقوع اللبس والوهم، ثم ظهر القرآن الكريم بعدها مشكّلاً، تبادر الى أذهان بعض المستشرقين أنّ القرآن كان غير مُعرَب، لكنْ هناك فرق بين الشَكْل والإعراب.

ولعلّ ما ذهب إليه المستشرق فولرز K. VoLLers من أنّ القرآن الكريم نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من حركات الإعراب كان يندرج تحت هذه الإشكالات المذكورة ولمّا ظهر الشَّكْل لحركات الحروف ونقاطها توهّم أنّه كان غير مُعرَب ثم نقّحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى بهذا المستوى الرفيع من البيان العذب واللغة الصافية وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال[١٦].

يُضيف المستشرق يوهان فك حالة أخرى توهّم من خلالها المستشرقون بعدم إعراب القرآن، ما ظهر في لهجة مكة من تسهيل الهمز المخالفة لرسم المصحف الشريف الذي جاء بتحقيقها[١٧]، وهو مخالف لما عليه أهل مكة ومن حواليها الذين نزل القرآن بلغتهم فضلاً عن مخالفة بعض القواعد النحوية المروية عن لهجات العرب بلغة قريش.

غير أنّ نولدكة قد خالف فولرز، وكفانا مؤونة الرد على هذا الرأي الذي ابتعد عن الحقيقة أيّما ابتعاد، إذ لم يستند فيه الى منهج صحيح يوضح السبب الذي أخذ بيده إليه[١٨].

وتوهم أيضاً المستشرق (كاله)، في مقالته عن القرآن والعربية

(١٦) ظ: دراسات في فقه اللغة / د. صبحي صالح: ١٢٢ وانظر مصادره

(١٧) ظ: العربية / يوهان فك: ٤

(١٨) ظ: اللغات السامية / نولدكه: ٨١، دراسات في فقه اللغة / د. صبحي صالح: ١٢٢

في الكتاب التذكاري لتكريم المستشرق (كول زيهير) إذ أورد عدداً من النصوص والروايات التي تحثّ المسلمين على ضرورة مراعاة الإعراب عند قراءة القرآن وترتيله، فظنّ أنّ مثل هذه الدعوة توحي الى عدم إعرابه، وقد رُدَّ عليه بما يناسب المقال، إذ يقول محقّق كتاب «العربية» ليوهان فك: (نعم لا تدلّ هذه الروايات على أنّ القرآن في حياة محمد قُرِيء في أوساط المسلمين دون إعراب - وقد عرف النقاد المسلمون أنّها موضوعة مزيّفة وأبقوها بعيدة عن المصاحف المعتمدة - ولكنّها تدلّ على أنّ ترك الإعراب قد حصل في وقت متأخر)[١٩]، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم وتسرّب العجمة الى لسان بعضهم ممّا أوقعهم في خطأ التلفظ أو خطأ الإعراب، كان ذلك مدعاة للعلماء المسلمين - خاصة أهل اللغة منهم - الى ضرورة الحفاظ على العربية وتنقيتها ممّا علق فيها حفظاً للقرآن الكريم.

إذاً، هذه الدعوة الى مكافحة العجمة لا تحمل في طياتها شبهة عدم إعراب القرآن بقدر ما كانت دعوة الى صيانته وحفظه ممّا دنَّس لسان العرب أو علق به من غير لغتهم، وقد تنبّه الى ذلك المستشرق يوهان فك، فكان يرى أنّ العجمة قد شابت كثيراً من قواعد اللغة العربية في القرن الأول الهجري بسبب دخول الأعاجم والموالي الى البيوت العربية بشكل جواري وزوجات وغلمان وخدم، فظهرت الألفاظ الأعجمية في أشعار بعض الشعراء من نحو ذي الرمة والطرماح والكميت وغيرهم، حتى طالت الطبقة العليا من العرب المحافظة على العربية، ونتيجة

(١٩) العربية / يوهان فك: ٤ (الهامش رقم واحد)

لذلك ظهرت حركة التنقية اللغوية (التي كانت تلحّ باطراد في تطهير اللغة وتخليصها، وطموح المسلمين الجُدد البعيدي الهمة الى امتلاك ناصية العربية بجميع دقائقها وأسرارها، كل ذلك أوجد دافع - في نهاية القرن الأول - الى دراسة القواعد التي كانت تجعل نصب عينها - في أغلب الظن - كما هي الغاية العملية في تحديد الاستعمال اللغوي بصورة أساسية)[٢٠]، فكُشِف عن كثير من المخالفات النحوية للهجات القبائل العربية المغايرة للقاعدة القرآنية التي توحي الى أنّ القرآن كان في الأصل مُعرَباً، وأنّ هذه المخالفات له تدل على مخالفة قواعد لغة قريش عن قواعد اللهجات الأخرى، وهذا يدلّل على وجود الإعراب قبل البعثة النبوية المباركة وبعدها.

(٢٠) م. ن: ٤٦ -٤٧.

ومن نافلة القول إنَّ هناك ملاحظة مهمة يمكن التطرّق إليها وهي مسألة اعتماد لهجات بعض القبائل العربية من دون بعضها الآخر في استنباط القواعد النحوية للعربية بحجة فصاحتها وعدم فصاحة من هي دونها، وكان الأوْلى التوجّه الى القرآن في كل ذلك ؛ لأنّه نزل بأفصح لغة وأجمل بيان.

ولعلّ السبب في ذلك يعود الى عامل سياسي - فكري، إذ بدأت بوادر عملية جمع اللغة ووضع قواعدها أبان حكم الأمويين بعد ارهاصات بدت في عصر الخلافة الراشدة، وهؤلاء وجدوا في دراسة القرآن وتدبّر آياته يجلب عليهم ما لا يرضونه، إذ إنّ تثوير النص القرآني يفتح الآفاق أمام إعمال الفكر في كشف الحقائق وبيان الزيف الأموي المبني على الاستئثار بالسلطة والقضاء

على من يخالفهم، ولذلك عمدوا الى تهميش القرآن الكريم وتوجيه الأنظار نحو الشعر العربي، وعدّه المصدر الرئيس في دراسة اللغة فشجعوا العلماء والشعراء على إحياء النزعة القومية العروبية، وبالمقابل أُهمِل دور القرآن الذي يعارض كل تلك النزعات القومية المستبدّة بما يخدم مصالحهم السياسية، لذا نجدهم قد أوحوا الى العلماء السائرين بركابهم الى نشر مذهب الجبرية الذي يدعو الى عدم مقاومة السلطة الحاكمة سواء أكانت ظالمة أم عادلة بوصف الحاكم يد الله في الأرض، وبالمقابل قاوموا كل من يدعو الى تثوير النص القرآني والكشف عن مضامينه المعرفية والفكرية والعقدية، فقتلوا الجعد بن درهم، الذي كان يقول بخلق القرآن آنذاك، ولعلّه أول من دعى إليه وربما يكون رائد الاعتزال في حينه.

إذاً، كان الاعتماد على قسم من القبائل العربية في استنباط قواعد النحو العربي من دون القرآن يحمل في طياته مغزى سياسي إذ اعتمدوا على بعض القبائل العربية في البصرة وما جاورها من أرض الحجاز ونجد وأهملوا ما كان من قبائل الكوفة العربية، ولعلّ السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنّ البصرة كانت عثمانية الهوى تميل الى السلطة الأموية، في حين كانت الكوفة علوية الهوى والاتجاه ولا ترغب بالسلطان الأموي، وهذا ممّا دفع السلطة الى تجريد الكوفة من هذه الفضيلة، ونحن نعلم أنّ المذهب الكوفي في النحو العربي أكثر التصاقاً بالواقع اللغوي من البصريين، إذ إنّه لم يهمل أي ظاهرة لغوية أو نحوية واستشهد

في بناء قواعده حتى على البيت الواحد أو الشطر الواحد، فربّما كان هذا الشاهد الشعري يمثل ظاهرة لغوية وإن كانت بسيطة أو قليلة الاستعمال غير أنّها كانت جزءاً من اللغة فلم يهملوها، لذا كان الاتجاه الكوفي أكثر واقعية ممّا كان عليه النحو البصري، بيد أنّ الأمويين أغفلوا هذا الاتساع في بناء القواعد بسبب من الولاء العلوي واستبدلوه بالمذهب البصري ذي الاتجاه العثماني المناصر للسلطة الأموية التي عملت جاهدةً تعتيماً فكرياً على كل المستويات لأجل صناعة مجتمع يستسلم للسلطة ولا يقاومها، وتهميشاً للقرآن الكريم بوصفه مصدراً للأحكام ودستوراً للحياة.

إذاً، كانت أكثر قواعد النحو العربي غير ملبّية لمتطلبات اللغة وخاصة ما جاء منها في القرآن الكريم، بل عُدَّ ما جاء منه مخالفاً للقاعدة النحوية المبنية على لغات بعض القبائل شذوذاً، وكان هذا مدعاة للمستشرقين الى القول بعدم إعراب القرآن الكريم لمخالفته بعض القواعد النحوية، ولم يلتفتوا الى أنّ مثل هذه القواعد كانت في الأصل قاصرة عن استيعاب كل لغة القرآن الكريم بوصفه منزلاً بأفصح اللغات وأنقاها وأسلمها ممّا علق بغيرها من المذموم من لغات العرب كالعنعنة، والفحفحة، والكشكشة وغيرها من الصفات غير المحبّبة في اللسان العربي الفصيح، لهذا كان الأوْلى النظر في القواعد النحوية من خلال القرآن الكريم ومن ثم التوجّه الى لغات العرب الأنقى فالأنقى.

عوداً على بدءٍ، نرى أنّ العربية قد احتفظت بالحركات الإعرابية عن اللغة السامية الأولى، وقد جاء من التحقيق العلمي

أنّ اللغة التي انتشرت في المملكة البابلية وهي أم اللغات السامية كانت ذات حركات إعرابية[٢١].

وعلّل (اسرائيل ولفنسون) ظاهرة الإعراب في السامية الأم، واللغة العربية خاصة بقوله: (ليس في اللغات السامية أثر لإدغام كلمة في أخرى حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هي الحال في غير اللغات السامية، وهذا هو سبب ظهور الإعراب في اللغة العربية)[٢٢]، بمعنى رفع اللبس والابهام والغموض الناتج عن امتزاج الألفاظ ببعضها، فكان فكّ الإدغام والتعويض عنه بالحركات الإعرابية وسيلة مهمة في إيجاد الانسجام والتجانس بين الألفاظ المتجاورة في نصّ واحد، وهذا ممّا يدعو الى الخفّة في نطق الأصوات وسهولتها وانسجام الكلام بها، لذا كان يرى بعض النحاة أنّ العمل بالرفع والنصب والجر والجزم إنّما هو من فعل المتكلم نفسه[٢٣]، ويداور بينها مسايرة للعُرف الاجتماعي الذي نشأ نتيجة لمؤثرات شتى أهمها الحالة النفسية والانسجام الموسيقي في الحركات والحروف والألفاظ والجمل)[٢٤].

فضلاً عن ذلك، أنّ بعض النحاة القدماء مَنْ ألمح الى ذلك عندما أشار الى انسجام الألفاظ مع بعضها لطلب السهولة في الكلام والانتقال من لفظ لآخر، منهم الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) عندما قال: (إنّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد يلحقن الحرف ليُوصل الى التكلم به)[٢٥]، وتابعه قطرب (ت ٢٠٦هـ) من القدامى، وابراهيم أنيس من المحدثين، إذ ذكر الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) عن

(٢١) ظ: مولد اللغة / أحمد رضا العامل: ٧٩
(٢٢) تأريخ اللغات الساميـة / اسـرائيل ولفنسون: ١٥
(٢٣) ظ: الخصائص / ابن جني: ١١١/١
(٢٤) فلسفة المنصوبات د. عائد الحريزي: ٣٣
(٢٥) الكتـاب / سيبويه: ٢/ ٣١٥

قطرب قوله: (وإنما أعربت العربُ كلامها لأنّ الاسم في حال الوقف يلزمه السكون، فلو جعل وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل ولكان يبطيء عند الإدراج، فلما وصل العربُ كلامهم وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام، ولم يلزموا حركة واحدة لئلا يُضيقوا على أنفسهم)[٢٦]، في حين جعل الدكتور ابراهيم أنيس للعامل الصوتي أثراً في وجود الحركات أي أنّ المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات والتخلص من التقاء الساكنين إلاّ لضرورة صوتية يتطلبها الوصل[٢٧]، لأنّ انتشار الأمية بين العرب جعل للسمع أهمية في اتصال الكلام عند طريق ربط الألفاظ ببعضها وهذا ممّا يؤدي الى ظهور الحركات في وصل الكلمات[٢٨]، وذهب هذا المذهب أستاذي الدكتور عائد كريم الحريزي إذ رأى أنّ ظهور الحركات الإعرابية في الكلام العربي ما كان إلاّ لتسهيل النطق كما قال الخليل وقطرب وابراهيم أنيس، وذلك أنّ الحركات الإعرابية من مستلزمات الكلام (لأنّ اللسان أما صاعد أو هابط أو مستوٍ، ولأنّ الشفتين أما مضمومتان أو متباعدتان أو متقاربتان، وهذه هي مخارج الحروف والحركات أي أنّ الحروف والحركات شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن اخر)[٢٩]، ثم ينتهي الى نتيجة مفادها صحة قول المستشرقين في أنّ الحركات الإعرابية معروفة عند اللغات السامية وذلك (تؤيده طبائع الأشياء فإنّ الحركات موجودة منذ عرف الإنسان النطق، وأنّها كانت اعتباطية ينطقها بالشكل الذي يسهُل عليه نطقه ويتساوق

(٢٦) الإيضاح في علل النحو / الزجاج: ٧٠ – ٧٢
(٢٧) ظ: من أسرار اللغة / ابراهيم أنيس: ٢١٤– ٢١٥
(٢٨) ظ: دلالة الألفاظ / د. ابراهيم أنيس: ٢٠٦
(٢٩) فلسفة المنصوبات د. عائد الحريزي : ٥٩

مع الحروف الأخرى في الكلمة والجملة، وأنّ الضمة زادت على غيرها من الحركات عند قوم، والفتحة عند قوم، والكسرة عند آخرين تبعاً لظروفهم الاجتماعية والنفسية والبيئية ونوع الحروف... وبمرور الزمن أصبحت - إضافة لوظيفتها الأساسية تسهيل النطق- قرينة من القرائن التي تساعد على إظهار المعنى)[٣٠].

ولّما كان حال العرب في نطق كلماتها واتصالها مع بعضها خاضعاً لسبب فسيولوجي وذوقي متمثل بسهولة نطق الأصوات وخفتها وانسجامها مع بعضها فكان لابُد من صناعة ذوق لغوي عربي موحّد بأفق موسيقي تستسيغه الأذن وتمجّ كلّ خطأ يخالف ذلك ولمّا كانت قريش أرقّ قبائل العرب ألسنة وأعلاها فصاحة وأعذبها لفظاً وقد نزل القرآن الكريم بها، فلابُدّ أن تتمثل به صوتاً ونطقاً ودلالةً أي مُعْرَباً، وإنّ القول بعدم إعرابه يُعارض الحقيقة التي نحن بصددها.

(٣٠) م. ن: ٦٠.

إذاً، نخلص الى نتيجة أنّ القرآن الكريم نزل بلغة عربية فصيحة مُعْرَباً، وأنّ مقولة عدم إعرابه أو أنّه دُوّن بلغة عوام الناس من قريش ثم أعربه النحاة فيما بعد، لا يستند الى دليل واقعي، وأنّ النحاة أنفسهم يذهبون الى صفاء لغة العرب آنذاك طلباً للانسجام الصوتي الذي تطوّر فيما بعد الى إعراب مقترن بالمعنى، فضلاً عن أقوال المنصفين من المستشرقين الذين أكّدوا ظاهرة الانسجام الصوتي للغة العربية المتمثّل بالحركات الإعرابية التي تصنع الذائقة الصوتية في الكلام العربي.

المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن/ تأليف الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (المتوفي سنة ٩١١هـ) - ضبطه وصحّحه وخرّج آياته محمد هاشم سالم - بيروت - لبنان - دار الكتب العلمية - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢-الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - بيروت - لبنان - ١٩٥٩ م.

٣-الإيضاح في علل النحو - أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي - تحقيق مازن المبارك - دار النفائس - القاهرة - بيروت.

٤-دراسات في فقه اللغة/ د. صبحي الصالح - بيروت - دار العلم للملايين - الطبعة الثانية - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٥-دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي - ترجمها عن الألمانية والانجليزية والفرنسية الدكتور عبد الرحمن بدوي - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثانية - كانون الثاني - ١٩٨٦م.

٦-دلالة الألفاظ - د.ابراهيم أنيس - الطبعة الثانية - ١٩٦٣ م.

٧-الشعر والشعراء/ لابن قتيبة - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - القاهرة - دار المعارف.

٨-فلسفة المنصوبات في النحو العربي - أ. د. عائد كريم علوان الحريزي - العراق - ٢٠٠٨ م

٩-اللغات السامية - تيودور نولدكه - ترجمه عن الالمانية الدكتور رمضان - مكتبة دار النهضة ا لعربية - المطبعة الكمالية.

١٠- اللغة/ ج - فندريس- ترجمة - الدواخلي والقصّاص - القاهرة - مطبعة دار البيان.

١١- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو - تأليف الدكتور مهدي المخزومي - دار الرائد العربي - بيروت - لبنان - الطبعةالثانية - (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

١٢- من اسرار اللغة - د. ابراهيم انيس - مكتبة الانجلو المصرية - مطبعة محمد عبد الكريم حسان - القاهرة - الطبعة الثامنة.

١٣- مولد اللغة - الشيخ أحمد رضا العاملي - بيروت.

١٤- نزهة الألباء في طبقات الأدباء - لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانباري (ت سنة ٥٧٧هـ) - تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي - مكتبة الاندلس - بغداد - ط٢ - تشرين الثاني - ١٩٧٠م.

٥

دروس عمليّة من قصة البقرة

د. نعمة النجار
استاذ في جامعة المصطفى العالمية/ قم المقدسة

مقدمة

حينما نكتب عن القرآن ونتأمل فيه، ونحاول توضيح بعض مفاهيمه لابد لنا أن نملك الأدوات التي نستطيع بواسطتها الوصول لذلك التوضيح والتفسير المطلوب. ومن البديهي ليس كلّ أحد يملك تلك الأدوات التي يطلق عليها بعضهم بالأدوات التفسيرية: من النحو، والصرف، والبلاغة، والحديث، والأصول، والكلام، والعقائد... الخ.

وهناك من يملك هذه الأدوات وتصبح لديه ملكة خاصة في التفسير والتأويل والتوضيح؛ اما نحن نحسب أنفسنا من القسم الأول الذين لا يملكون الأدوات التفسيرية، ولكننا من الذين يقتاتون على موائدهم ونأخذ منهم، وفعلاً بعد ما وقع الأختيار على هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى، وهي سبع آيات تختص بقصة مشهورة ومعروفة عبر الأيام والدهور، وهي قصة البقرة، تلك القصة التي سميت باسمها سورة كاملة، وهذا كما يقولون من باب تسمية الكلّ باسم الجزء، وقد تطرّقت فى هذه المقالة إلى تعريف القصة لغة واصطلاحاً، واستعمالاً في القرآن؛ وما الخصائص الأساس للقصة، وما أغراضها، ومن ثمَّ تم القيام بتوضيح بعض المفردات الواردة في الآيات السبع؛ آملين الوصول إلى درّة من درر الكنوز القرآنية التي خفت علينا لتقصيرنا أوقصورنا، ومن ثم نذكر القصة بشكل مجمل، والمعنى العام لها، ونتبع مفردات هذه القصة في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام، وبعد ذلك نتطرّق إلى جانبين مهمّين، وهما:

١- الأقوال المختلفة في بعض مصاديقها.

٢- الدروس المستفادة من هذه القصة.

القصة لغة واصطلاحاً

والقِصّة: هي الخبر، وقصَّ عليّ خبَره يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً: أَوْرَدَه، والقِصّة الأَمرُ والحديثُ، واقْتَصَصْت الحديث رَوَيْته على وجهه وقَصَّ عليه الخبَرَ قصصاً، وفي حديث الرؤيا: لا تقُصَّها إلا على وادٍ. يقال: قَصَصْت الرؤيا على فلان إذا أَخبرته بها، أَقُصُّها قَصّاً. والقَصُّ: البيان: والقَصَصُ بالفتح: الاسم، والقاصُّ: الذي يأْتي بالقِصّة على وجهها كأَنه يَتَتَبّع معانيَها وأَلفاظَها[١].

وقَصَّ أَثَرَه قَصّاً وقَصيصاً: تَتَبَّعَه، والخَبَرَ: أَعْلَمَهُ. ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[٢] أي: رَجَعا من الطَّريق الذي سَلَكاهُ يَقُصَّان الأَثَرَ. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[٣]: نُبَيِّنُ لك أَحْسَنَ البَيانِ. والقاصُّ: مَنْ يَأْتِي بالقِصَّةِ[٤]. ومنه ما قصتك أي: ما شأنك[٥].

القصة اصطلاحاً:

عُرّفت القصة اصطلاحاً على: أنها مجموعة من أحداث ومواقف، أو هيئات، أو أشخاص، أو هي جميعاً[٦].

ويعرّف الدكتور الخطيب القصة في مفهوم القرآن: أنها عرض للأحداث التاريخية مضى بها الزمن، فهي: وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق فيما جاء من أشخاص وأحداث، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة[٧].

وهذا ما نلاحظه بشكل جلي وواضح، فإننا نجد الكثير من الكتب تحمل في طيّاتها العديد من الوثائق، ولكنها لم تكن تعتمد على نقل حوادثه من الواقع، فالقصة الأدبية قديماً وحديثاً

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج٧، ص٧٤.
(٢) سورة الكهف: ٦٤.
(٣) سورة هود: ٣.
(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ج٢، ص٣١٣.
(٥) مجمع البحرين، الطريحي: ج٣، ص٥١٢.
(٦) محاضرات في علوم القرآن، البستاني: ص٢٥٢.
(٧) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، الخطيب: ص٣٩.

لم تقف عند الحقيقة التاريخية وحدها، بل كانت تعتمد على كثير أو قليل من عنصر الخيال، بيد أن القصة القرآنية بُنيت بناءً محكماً من خلال الحقيقة المطلقة، التي لا يطوّق بحجمها طائق من خيال ولا يطرقها طارق منه، وقد سمّى القرآن الكريم كلّ ما جاء على هذا النحو قصصاً، فقال سبحانه مخاطباً نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٨]، وفي آية أخرى يذكر المولى تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[٩].

وهكذا أُطلق لفظ القصص على ما حُدِث وجرى من أخبار القرون الأولى في مجال الرسالات السماوية وما كان يقع في طريقها من صراع بين قوى الحق والضلال[١٠].

فالقصة في القرآن تتبع أحداث ماضية وقعت، وتعرض منها ما ترى عرضه، ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصاً ما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ[١١].

بماذا يختلف القصص القرآني عن غيره:

يختلف القصص القرآني عن غيره اختلافاً كبيراً من ناحية الهدف والغرض، الذي جاء من أجله، ويشير الشهيد الصدر قدس سره إلى ذلك بقوله: (إن القرآن الكريم لم يتناول القصة؛ لأنها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير به، كما أنه لم يأتِ بالقصة من أجل التحدّث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونها - كما يفعل المؤرخون- وإنَّما كان عرض القصة في القرآن الكريم مساهمة في الأساليب العديدة التي سلكها لتحقيق

(٨) سورة يوسف: ٣.
(٩) سورة آل عمران: ٦٢.
(١٠) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، الخطيب: ص ٤٠.
(١١) مع الأنبياء في القرآن الكريم، عبد الفتاح عفيف: ص ٣٧٣.

أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء الكتاب الكريم من أجلها، بل يمكن أن تقول: إنَّ القصة هي من أهم هذه الأساليب)[١٢].

الخصائص الأساس للقصة القرآنية

تختلف القصة القرآنية عن غيرها من خلال أمور عدَّة يمكن إجمالها بما يأتي:

١- **الواقعية:** بمعنى ذكر الأحداث والقضايا والصور في القصص القرآني التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها المعاشة في سيرة التاريخ الإنساني لا أن تكون القصة تشتمل على الإثارة أوالتعبير عن الصور أو الخيالات أو الأماني التي يطمح إليها الإنسان في حياته؛ ذلك لأن القرآن الكريم يريد من ذكر القصة وأحداثها إعادة قراءة التاريخ الإنساني والقضايا الواقعية السالفة التي عاشتها الأمم السابقة ومتابعة انعكاسات هذه القراءة في الحاضر المعاش من قبل الإنسان للاستفادة منها والاعتبار بها[١٣].

٢- **الصدق:** الصدق في ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي تعرّض لها الأنبياء وأقوامهم في حياتهم وذلك في مقابل الأكاذيب الباطلة والانحرافات في الفهم أو الخرافات التي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين.

٣- **التربية:** تربية الإنسان على الأخلاق الإنسانية العالية في مقابل التركيز على الأحاسيس والانفعالات في شخصية الإنسان، والتربية على الاهتمام في الغرائز والسلوك الراقي للإنسان وهو السلوك الأخلاقي، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في المأثور أنه قال: «إنَّما

(١٢) علوم القرآن، الحكيم: ص٣٧٣.
(١٣) القصص القرآني، الحكيم: ص٢٤-٢٥.

بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[١٤].

عناصر القصة في القرآن.

للقرآن الكريم أسلوب خاص، وفن فارد لتأطير وتشكل القصة، والتي يمكن إيجازها بما يأتي:

١- **القالب والمضمون:** فالقرآن حينما يتناول آية مفردة من مفردات القصص، نجد بأن مشخصاتها وسماتها باقية كما هي لم تتغيّر عبر الزمن، ولقد ذكر لنا العديد من النماذج كقصة عيسى عليه السلام من خلال قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[١٥]. وأيضاً حينما نقف على هذه الكلمات من قصة إبراهيم عليه السلام وهي تنسج لنا الأحداث التاريخية بشكل مترابط ومنسجم وبصورة تامة تُشعر بغضاضتها وطرواتها، فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٦].

٢- **أسلوب العرض القصصي في القرآن:** فليس هناك أُسلوب خاص يلتزمه كُتّاب القصة في عرضهم للأحداث وتحريك الأشخاص، فهناك أكثر من أُسلوب وقد يتحدّث الكاتب بلسان أشخاص قصته ويروي أخبارهم ويأخذ موقفاً يمسك به الأحداث، وقد لا يجعل الكاتب أشخاصه في مقام الحضور فيدعهم يتحدّثون بألسنتهم، وهنا تختفي شخصية الكاتب فلا يُرى له ظل، فهاتان الطريقتان هما أظهر طريقتين للأسلوب القصصي.

(١٤) بحار الأنوار، المجلسي: ج١٦، ص٢١٠.
(١٥) سورة آل عمران: ٤٩.
(١٦) سورة البقرة: ٢٦٠.

والذي نلحظه في القصص القرآني إنه التزم طريقة الرواية التي توذنك دائماً بأنك إنما تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها في التاريخ وانتهى دورهم في الحياة[١٧].

٣- **الزمان ومكانه في القصص القرآني**: فالملحوظ دائماً في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وانضباطها أنها تنظر إلى الزمن على انه السيد للأحداث، وبغيره تهوى الأحداث وتتساقط فيه بلا حراك، ومنها: قصة يوسف عليه السلام فإننا نجد العنصر الزمني ممسكاً بها من كلّ جوانبها، كقوله تعالى في الآية المباركة: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[١٨].

٤- **المكان وأثره في القصص القرآني**: فكما أنَّ للزمان حساباً وتقديراً في بناء القصة وفي ضبط الأحداث، كذلك المكان إذ تكون الأحداث أشبه بالوعاء الحامل حين يكون الزمن هو اليد الحاملة لهذا الوعاء، فالزمن يؤثر في الأحداث تأثيراً مباشراً، وأما المكان فليس له الأثر البعيد في صنع الحدث وفي تطوّره فقد يعيش الحدث ويتطوّر وينمو في مكان لا يتحوّل عنه وقد لا يكون في استصحاب المكان في رواية الأحداث أيّ أثر إلا إذا كان لهذا المكان طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث ولا يقع له هذا التأثير في مكان آخر.

٥- **الأسماء والمسميات**: وهو إن كلّ مورد من الموارد المذكورة في القصص القرآني من مسميات ـ أناس وأشياء ـ كلّها من الواقع المعاصر للقصة الذي لا يشوبه خداع[١٩].

٦- **أسلوب السرد والحوار**: فأسلوب السرد هو نمط لغوي

(١٧) الخطيب، المصدر السابق: ص ٨٠.
(١٨) سورة يوسف: ١٦.
(١٩) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، الخطيب: ص ٨٠.

يتصل بعملية الإخبار عن الشيء بواسطة منشئ القصة، كقوله تعالى بالنسبة إلى قصة أهلّ الكهف: ﴿نحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[٢٠]، فهذه الفقرة من الآية تُعدُّ سرداً، والأسلوب الثاني هو الحوار: وهو عبارة عن المحادثة بين طرفين أو كما لو تحدّث مع شخص آخر أو كما لو تحدّث الشخص مع نفسه.

ومن أمثلة الحوار في نمطه الأول أي المحادثة بين شخصين محاورة بين أبني آدم فيما بينهما عندما تقبل قربان أحدهما ولم يتقبل من الآخر إذ قال الآخر الذي لم يتقبل قربانه ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فأجابه أخوه: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢١].

بيان بعض مفردات قصة البقرة في القرآن:

يعد الرجوع إلى معاني المفردات من أفضل الطرق المساعدة للوصول إلى معنى مراد القرآن، ونحن إذ نذكر معاني جملة من المفردات في الآيات المباركة والتي تعد ضمن موضوع البحث وحرصنا على أن نختار مشهور المفردات التي اختيرت من قبل العلماء الأعلام وأصحاب الفن.

ويجدر بنا أن نذكر بعض الآيات التي ذكرت فيها بعض المفردات، وهي كالآتي: قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[٢٢]، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا

(٢٠) سورة يوسف: ٢٣٥.
(٢١) سورة المائدة: ٢٧.
(٢٢) سورة البقرة: ٦٨-٦٩.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢٣].

١- **الفارض المراد بها:** الكبيرة والمسّنة[٢٤].

٢- **البكر:** الفتية الصغيرة التي لم تلد قط[٢٥].

٣- **الفاقع:** وهو الصافي ولا يوصف السواد بذلك- على ما بيّناه- فأما ما ابيّض فيؤكدونه بأنه ناصع، واخضّر ناضر واصفّر فاقع[٢٦].

٤- **الذلول:** صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول، يعنى لم تذلّل للكراب وإثارة الأرض، ولا هي من النواضح التي يتسنى عليها لسقى الحروث[٢٧].

٥- **المسلّمة:** مُسَلَّمَةٌ سلّمها الله من العيوب أو معفاة من العمل[٢٨].

٦- **لاشية:** لا لون لها سوى لون جميع جلدها، وقال عطاء: لا عيب فيها، وقال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد[٢٩].

٧- **العوان:** والعوان دون المُسنّة وفوق الصغيرة وهي النصف، التي ولدت بطناً أو بطنين، قال الفرّاء: يقال: من العوان عونت المرأة تعويناً إذا بلغت ثلاثين سنة[٣٠].

٨- **ادّارأتم:** وهو التدافع، أن يكون حقيقة، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدي، لشدة الاختصام[٣١]، فقد ورد في الآية المباركة: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾[٣٢].

أبطال القصة:

إنَّ الذي يشكّل دور البطل في هذه القصة كما في المصطلح

(٢٣) سورة البقرة: ١٧-٧٢.
(٢٤) مجمع البيان فـي تفسير القرآن، الطبرسي: ج١، ص٢٦٨.
(٢٥) التبيان فى تفسير القرآن، الطوسي: ج١، ١٢٩.
(٢٦) مجمع البيان فى تفسير القرآن، الطبرسي: ج١، ص٢٦٨.
(٢٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري: ج١، ص٢٩٧.
(٢٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري: ج١، ص١٤٩.
(٢٩) تـفسير البغـوى (معالم التنزيل)، البغوى: ج١، ص١٢٩.
(٣٠) مجمع البيان فـي تفسير القرآن، الطبرسي: ج١، ص٢٦٩.
(٣١) البحر المحيط فى التفسير، أبوحيان: ج١، ص٤١٩.
(٣٢) سورة النور: ٨.

الحديث هو: بنو إسرائيل من طرفٍ وموسى عليه السلام والشاب من طرفٍ آخر، ويمتد ـ كما نقل لنا الكلبي ـ إلى عمران بن يعمر بن قاهان بن لاوي بن يعقوب عليه السلام ويقول: قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين ولد يعقوب لاوي نكح نابتة بنت ماري بن يشجب فولدت له فرسون ومرزي زمروي وقاهان(٣٣).

التعريف ببني إسرائيل:

قال بعض المفسّرين: (إن الابن فرعٌ للأب وهو موضوع عليه، وإسرائيل هو إسحاق بن إبراهيم عليه السلام)(٣٤).

وقال الرازي في تفسيره: (اتفق المفسّرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ويقولون: إن معنى إسرائيل عبد الله؛ لأن «إسرا» في لغتهم هو العبد، و«إيل» هو الله)(٣٥).

المعنى العام للآيات المباركة:

لقد تناولت الآيات الكريمة من سورة البقرة من الآية (٦٧ حتى ٧٤) مواضيع تنطوي على دورس بليغة وعبرة مهمّة، تم اختيارها من قبل المولى تعالى كي تكون درساً للأجيال على مرّ العصور والدّهور.

علّة ذبح البقرة:

يرى أغلب المفسّرين أنَّ السبب في أمر الله تعالى بذبح البقرة ما رواه العياشي مرفوعاً إلى الإمام الرضا عليه السلام: أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثمَّ أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثمَّ جاء يطلب بدمه، فقالوا لموسى سبط آل فلان قتل، فأخبرنا من قتله قال: ائتوني ببقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى

(٣٣) قصص الأنبياء، الثعلبي، النيسابوري: ص٢٢١.
(٣٤) تفسير القرطبي، القرطبي: ج١، ص٢٧٢.
(٣٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي: ج٢، ص٥٤.

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[٣٦]، قالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾[٣٧]، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣٨]، ولو أنهم عمدوا إلى بقرةٍ أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ﴾[٣٩]، أي: لا صغيرة ولا كبيرة إلى قول: ﴿قالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾[٤٠]، فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها إلا بملء مسكها (جلدها) ذهباً، فجاءوا إلى موسى، فقالوا له بالقصة، فطلب منهم شرائها.

وفي الخبر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بعض أصحابه: إن هذه البقرة ما شأنها، فقال: إن فتى من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه وأنه اشترى سلعة فجاء إلى أبيه فوجده نائماً والإقليد (المفتاح) تحت رأسه فكره أن يوقظه فترك ذلك (واستيقظ أبوه فأخبره، فقال له: أحسنت خذ هذه البقرة فهي لك عوض لما فاتك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انظروا إلى البرّ ما بلغ بأهله...)[٤١]..

وقال ابن عباس: كان القتيل شيخاً ثريّاً قتله بنو أخيه، وألقوه على باب بعض الأسباط، ثم ادّعوا عليهم القتل فاحتكموا إلى موسى عليه السلام فسأل من عنده في ذلك علم، فقالوا: أنت نبي الله وأنت أعلم منّا، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، فأمرهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة ويضرب القتيل ببعضها فيحيي الله القتيل فيبين لهم من قتله، وقيل: قتله ابن عمه ليرثه، وقيل: إنما قتله ليتزوج ابنته وقد خطبها فلم ينعم له، وخطبها غيره من خيار بني إسرائيل فأنعم له، فحسده ابن عمه، فقعد له فقتله،

(٣٦) سورة البقرة: ٦٧.
(٣٧) سورة البقرة: ٦٧.
(٣٨) سورة البقرة: ٦٧.
(٣٩) سورة البقرة: ٦٨.
(٤٠) سورة البقرة: ٦٩.
(٤١) بحار الأنوار، المجلسي: ج١٣، ص ٢٦٣.

ثم حمله إلى موسى عليه السلام فقال: يا نبي الله هذا ابن عمي قد قتل، فقال موسى عليه السلام: من قتله ؟ قال: لا أدري، وكان القتل في بني إسرائيل عظيماً، فعظم ذلك على نبى الله موسى عليه السلام، وهذا هو المرويّ عن الصادق عليه السلام (٤٢).

الدروس المستفادة من القصة

يُعدُّ القرآن الكريم الذي أُنزل على صدر الخاتم محمد صلى الله عليه وآله دستوراً متكاملاً، من جميع جوانبه، فضلا عن ما اشتمل عليه من دروس أخلاقية وعقدية ذكر العديد من القصص والعبر والأمثال كي يتدبّر فيها الإنسان وينتفع منها، وتعد قصة البقرة من أهم القصص التي احتوت على العديد من المواقف والعبر، والتي يمكن أن تكون عنصراً فعّالاً لإحياء المجتمع الإسلامي بكافة أطيافه ومكوّناته، ويمكن إيجاز هذه الدروس والعبر بما يأتي:

١- التردّد والضعف الواضح في تصرفاتهم ممّا يجعلهم يؤخّرون تنفيذ الواجبات تحت غطاء التشبّث بقشور التعاليم، فهم كانوا يتسائلون عن البقرة وطبيعتها وما عمرها وسائرخصائصها بينما تركوا الجوهر وهو ذبح البقرة، كذلك الأمة الإسلامية في بعض مراحلها المتأخرة من تاريخها كانت تتوغل في التفاصيل وتترك روح التعاليم والأهداف المتوخاة من ورائها.

٢- لم يعرف بنو إسرائيل فلسفة الحكم، لذلك زعموا بأنَّها هزواً، وهذا درس من الدروس التي يمكن أن نعتبر بها ولا نطالب بفلسفة كلّ حكم وإنَّما علينا الطاعة لله ولرسوله ولأهل بيته عليهم السلام (٤٣).

(٤٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي: ج١، ص٢٧٣.
(٤٣) انظر: من هدى القرآن، المدرسي: ج ١، ص١٧٣.

٣- قولهم اتتخذونا هزواً: كان موسى عليه السلام جدّياً مع قومه وصارماً، ولكن بني إسرائيل قد أصيبوا بضعف الإيمان، الذي يتطلب من صاحبه التنفيذ دون سؤال ودون البحث عن العلل والأهداف، لذلك قال موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾(٤٤).

٤- بدأت سلسلة التساؤلات التي استهدفت معرفة خلفيّات الحكم وأهدافه البعيدة المختلفة فشدّد الله عليهم، وهنا رواية تُنقل عن أبي الحسن عليه السلام عن علي بن يقطين يقول: إنَّ ألله أمر بني إسرائيل أن تذبحوا بقرة وإنما كانوا يحتاجون إلى ذنبها (فشدّدوا، فشدّد الله عليهم)(٤٥)، فهم لا يريدون تنفيذ الأمر، وكان هذا هو الواقع بالرغم من ادّعائهم، فقالوا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

٥- إنَّ أسئلتهم قد تعني عند موسى عليه السلام أنهم لا يريدون تنفيذ الأمر، وكان هذا هو الواقع بالرغم من ادّعائهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ ٱللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، فعلينا أن نحذر ونتوجّس الحيطة من وعود اليهود ومن يسلك نهجهم، فليس لديهم مصداقية حتى مع المولى تعالى، والواقع في هذه الأيام أصدق دليل على ذلك.

٦- لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾(٤٦)، لأنهم تحوّلوا من مجتمع الإيمان الذي ينطلق من واقع الثقة بالقيادة وتنفيذ أوامرها فوراً إلى مجتمع الجدل ومحاولة فهم علل الأحكام وأسبابها وطريقة تنفيذها رغم أن بين ظهر انيهم نبي معصوم. فعندما نقرأ ﴿وإذ

(٤٤) سورة البقرة: ٦٧.
(٤٥) تفسير العياشي، العياشي: ج١، ص٤٦.
(٤٦) سورة البقرة: ٧٢.

قتلتم﴾ وقوله: ﴿والله مُخْرِجٌ﴾ يدُّل على أن مجتمعهم أصبح فاسداً وقد برعوا في تنفيذ الجرائم حتى أنهم لا يخلّفون أثراً يدلُّ على فاعلها، وقد ابتعدوا عن المسؤولية فاخذوا يكتمون عن السلطات الشرعية أخبار البلد، بيد أن الله يقول لهم بكل صراحة: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٨- إنها تبيّن لنا - أي قصة البقرة - جوانب الضعف الإيماني الذي تمثل به بنو إسرائيل في التواني عن تطبيق الأوامر، والذي قد ينتهي بصاحبه إلى مرحلة أخطر وهي الابتعاد كليّاً عن الإيمان[٤٧]..

٩- من الأمور التي يمكن الاستفادة منها، أن فقد البيّنة هي أساس كلّ المشكلة، لذلك يقول الشيخ مغنية رحمه الله: (وحيث لا بينة تكشف عن الواقع سألوا موسى عليه السلام أن يدعوا الله ليبيّن لهم ما خفي من أمر القاتل)[٤٨].

١٠- إثبات قدرة المولى تعالى على إحياء الموتى للمعاندين، (كذلك يحيي) ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤٩] أي: كما أنه أحيا المقتول، كذلك له القدرة على إحياء كلّ ميت.

(٤٧) من هدى القرآن، المدرسي: ج١، ص١٢٦.
(٤٨) التفسير الكاشف، مغنية: ج١، ص١٢٦.
(٤٩) سورة البقرة: ٧٣.

خلاصة ما تقدّم

يمكن القول إن قصة البقرة وتسليط الضوء عليها يوحي بكثير من الدروس والعبر التربوية، ومن أهمها: إنَّ الإنسان عليه أن ينفّذ أوامر الله وأوامر نبيه ويكون في غاية الطاعة والتسليم وعدم المجادلة، فكلّما شدّدوا شدّد الله عليهم، فالإنسان عليه أن يتلقى الأوامر الإلهية برحابة صدر من دون خرج أو مناقشة، فتكرار أسئلتهم التي يشم منها تباطئهم بعدم تنفيذ الأوامر الإلهية، وكذلك التركيز على طاعة الوالدين التي تفتح للإنسان أبواباً للتوفيق في مجالات الحياة المتعددة من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب وما لها من آثار دينية ودنيوية.

فالقرآن أكّد العديد من الدروس التربوية والأخلاقية، آملين أن تكون هذه المبادرة بذرة في طريق الخير لجميع القرآء والباحثين للسعي بصورة جدّية من أجل الوقوف على الدروس والعبر التربوية التي أشار إليها المولى تعالى في كتابه المقدّس، فالقرآن مادة غنيّة بالقواعد والأسس التربوية، والمتأمل في الآيات المباركة يجد أن هذا الكتاب هو المقوّم للإنسان في هذه البسيطة وهو من يرسم له خطوات حياته ومراحلها لذلك أكّدت الكثير من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم ذلك.

يقول الإمام علي عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ والْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ والْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ ومَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى»[٥٠].

(٥٠) بحار الأنوار، المجلسي: ج٨٩، ص ٢٤.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت: ١٤١٤ هـ

٢. أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط فى التفسير، دار الفكر، ط١، بيروت: ١٤٢٠ هـ ق.

٣. البستاني، محمود، محاضرات في علوم القرآن، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٦م.

٤. البغوي، حسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، دار إحياء التراث العربي – ط ١، بيروت: ١٤٢٠ هـ ق.

٥. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، عرائس المجالس (قصص الأنبياء)، مطبعة الحيدري، الهند: ١٢٩٥هـ.

٦. الحكيم، محمد باقر، القصص القرآني، المركز العامي للعلوم الإسلامية، ط١، إيران: ١٤١٦هـ.

٧. الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن، دار التعارف، ط٣، بيروت: ١٩٩٥م.

٨. الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت.

٩. السبزواري، عبد الأعلى، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مؤسسة المنار، ط٣، قم: ١٤١٤ هـ.

١٠. الرازي، محمد فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٦هـ.

١١. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، ط٣ بيروت: ١٤٠٧ هـ ق.

١٢.السبزواري، عبد الأعلى، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مؤسسة المنار، قم: ١٤١٤ هـ.

١٣.الطبرسي، أبي الحسن االفضل الحسن، مجمع البيان في القرآن، الاعلمي، ط١، بيروت: ٢٠٠٠م.

١٤.الطريحي، فخر الدين بن محمد، مجمع البحرين، المرتضوي، ط٣، طهران: ١٤١٧ هـ.

١٥.الطوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت.

١٦.العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، المكتبة العلمية، طهران.

١٧.فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

١٨.القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٩.المدرسي، محمد تقي، من هدى القرآن، دار الهدي، إيران: ١٤٠٦هـ.

٢٠.مغنية، جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين: ١٩٨١م.

٦

الأساليب الإنشائية في سورة البقرة

دراسة بلاغية فنيّة

عدنان جاسم كريم الطائي

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمّد وآله الطيبين الطاهرين، الذين أذهب اللهُ عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وبعد.

إنّ القرآن الكريم كما لا يخفى على ذي لُبٍّ هوالـمُعْجِز الذي كان سيفاً قاطعاً لحبائل الكفر والإلحاد بيد النبي صلى الله عليه وآله، والذي تحدّى به العربَ والعجمَ على أن يأتوا بمثل ما جاء به من كَلِم، إذ كان يُتخيَّل لهم أنّهم على مجاراته لقادرون فانبهروا لحُسن ألفاظه ودقّتها، وجمال رونقها وعذوبتها، فصاروا لها مُنْبَهِرين؛ إذ رأوا منه ما فاق بليغَ كلامهم وفصيح خطابهم، فكان لا سبيل لهم إلّا الاعتراف والإذعان بأنّه كتابٌ حوى كلاماً لا يدانيه أحدٌ بجزيل بيان، ودقّة خطاب؛ إذ شُرِعت فيه الأحكامُ والسنن، وذُكرت فيه القَصصُ والأمثالُ والحِكَم، فكان المنهاج والصراط الذي يُتّبع للوصول إلى الغاية التي أرادها الله تعالىٰ للإنسان، بأن يرقى في كماله الذاتي. وكلّ ذلك جاء بأُسلوب فنّيً مُتْقَن، له من التأثير في نفوس الناس ممّا لا يمكن أن يُنكر. ولذا أخذتْ الدراسات الحديثة للنصّ القرآني ـ اليوم ـ تحتل مكانا هاما في العالم الإسلامي، وصارت موضوعاته المختلفة تستهوي عدداً كبيراً من الباحثين الذين تأثّروا بها، وهذا ليس جديداً في دراسة النصّ القرآني؛ إذ سبق من علماء المسلمين الاهتمامُ به، فألّف كثيرُ منهم في علومه المختلفة، ولكن مع هذا كلّه راح الباحثون والدارسون يجدّون في المحاولات التي تُبذل في

اكتشاف الحقائق القرآنية من جهة، وحقيقة المنهج القرآني وأساليب الخطاب وفنون بلاغته من جهة أُخرى.

ومن هنا فهذا البحث يعنى بدراسة فنّية بلاغية في الأساليب الإنشائية في أطول سُوَر القرآن الكريم وهي (سورة البقرة)، والتي حاولنا فيها التركيز على الجوانب الفنّية والبلاغية التي تضمنتْها الأساليبُ الإنشائية، فمنها ما يتعلق بعلم المعاني، ومنها ما يتعلق بعلم البيان، ومنها ما يتعلق بعلم البديع، وغيرها.

واقتضت الدراسة في هذا البحث أن يكون بمقدمة وتوطئة وثلاثة مباحث وخاتمة بأهم النتائج المستخلصة منه، فضلا عن ثبتِ المصادر والمراجع التي اعتُمِدت في البحث.

أمّا أهم المصادر والمراجع التي اعتُمِدت في هذا البحث فيتقدّمها تفسير الكشّاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، والعين للخليل، والإيضاح للخطيب القزويني، وغير ذلك من كتب التفسير واللغة والبلاغة.

وأخيراً فلا أدّعي أنّ هذا البحث وصل الغايةَ المنشودة بقدر ما أنّني بذلت غايةَ جهدي، فالحمد لله على نعمه وإحسانه لنا، فإن أصبنا فمن الله الفضل والنِعَم، وإن أخطأنا فمن أنفسنا وتقصيرنا، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق لكلّ خير، والحمد لله ربّ العالمين.

توطئة

في الدراسة الفنية والبلاغية في سورة البقرة

إنّ النص القرآني كما أنّه امتاز بحُسن ألفاظه ودقّتها، وجمال رونقها وعذوبتها، امتاز بسبك تراكيبه وتناسقها إذ يفهمها كلُّ مَن عرف العربية وتكلّم بها، إلّا أنّه فاق كلامَ العرب وخطابَهم بلاغةً وفصاحةً، ممّا جعل الباحثين والمهتمّين بالدراسات القرآنية يبحثون ويفتشون عن جوانب متنوعة يستبطنها النصّ القرآني بالإضافة إلى دلالته على معناه الظاهر، فمنها ما يتعلّق باللفظ أوبالتركيب، ومنها ما يتعلق بالأُسلوب الذي يكون عليه ذلك التركيب. فكلّ سورة من سور القرآن الكريم نجدها تزخر بمختلف الفنون والأساليب، وأجمل الألفاظ والتراكيب، فكان حقّيق بنا دراسة بعض هذه الفنون البلاغية؛ ولذا في هذا البحث سنتناول الجوانب الفنّية والبلاغية في الآيات القرآنية المتضمّنة للأساليب الإنشائية في سورة البقرة، في التمهيد والمباحث الأربعة الآتية:

تمهيد

معنى الأسلوب والإنشاء والفنّ:

لمّا كان البحث في الأساليب الإنشائية في سورة البقرة تعيَّن علينا ضرورةً الإشارة إلى معنى الأُسلوب ومعنى الإنشاء، وبيان حدود استعمالهما في اللغة والاصطلاح فضلاً عن بيان مفردة الفنّ؛ وذلك لأنّ الدراسة في البحث أُقتُرِح أن تكونَ دراسةً فنّية؛ ليكون عنوان البحث واضحاً قبل الولوج فيه.

معنى الأسلوب:

الأُسلوب لغةً: «بالضمّ: الفنّ، يُقال: أخَذَ فلانٌ في أساليبَ من القول، أي في فنون منه»[١]. وقيل: «الأُسْلُوب: السَّطْرُ من النَّخيل. والطَّريقُ يَأْخُذُ فيه. وكُلُّ طَريقٍ مُمْتَدّ فَهُوأُسْلُوبٌ. والأُسْلُوبُ: الوَجْهُ والمَذْهَبُ. يُقال: هُمْ في أُسْلُوبِ سُوْءٍ. ويُجْمَعُ عَلَى أَسَالِيب. وقد سَلَكَ أُسْلُوبَه: طَرِيقَتَه. وكلامُه عَلَى أَسَالِيبَ حَسَنة»[٢]. فالأُسلوب يُطلق في اللغة ويُراد منه: إمّا الفنّ في القول، أوالسطر من شيءٍ منتظم، أوالطريق الذي يُسلك، أوالوجه والمذهب في الفكر والاعتقاد أوفي الكلام.

وأمّا في الاصطلاح: «الأُسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه»[٣]. أوكما عرّفه المُحدَثونَ بأنّه: «طريقة خلق الفكرة وتوليدها، وإبرازها في الصورة اللفظية المناسبة»[٤].

معنى الإنشاء:

الإنشاء لغةً: الابتداء والخلق[٥]، «أَنْشَأَ اللهُ الخَلْقَ، أَي ابْتَدَأَ وخَلْقَهم»[٦].

واصطلاحاً: هوالكلام الذي لا يكون لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه[٧]. أو«هوإلقاء الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه»[٨]. أو هو «كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته»[٩]. فالجامع للتعريفات الاصطلاحية المذكورة: أنّ الكلام متى لا يمكن وصفه بالصدق أوبالكذب فهوإنشاء، لعدم تحققه ووقوعه في الخارج، وحينئذٍ لا مجال لتصور المطابقة وعدم المطابقة بين النسبة الكلامية والنسبة الخارجية. لكن ثمّة فارقٌ بينها؛ إذ التعريف الثاني جعل الإنشاء إلقاء الكلام من قِبَل المتكلم

(١) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: ١٤٩/١.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية: ٨٢/٢.

(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق ومراجعة: د. التنجي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م: ٣٣٨/١.

(٤) الصورة الأدبية تاريخ ونقد، علي علي صبح، الناشر: دار إحياء الكتب العربية: ١٦٢/١.

(٥) يُنظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق ومراجعة: د.مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال: ٢٨٧/٦؛ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ٧٧/١.

(٦) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ): الناشر: نشر أدب الحوزة، محرم ١٤٠٥، قم ـ إيران: ١٧٠/١.

(٧) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني (ت٧٣٩ هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م: ٥٦/١.

(٨) علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١ هـ): ٦١.

(٩) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، ط١، ١٣٧٩ق.ش، الناشر: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، إيران: ٦١.

والتعريفان الأوّل والثالث جعلا الإنشاء هونفس الكلام. ولترجيح الصواب في الإنشاء هل هوالكلام أوإلقاؤه؟ «أنّ الإنشاء قد يُطلق على نفس الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه، وقد يُقال على ما هوفعل المتكلِّم، أعني إلقاءَ مثل هذا الكلام... والأظهر أنّ المراد ههنا هو الثاني بقرينة تقسيمه إلى الطلب وغير الطلب»[١٠].

معنى الفنّ:

الفن لغةً: هو«الحال، والفنون: الضروب، يُقال: رَعَيْنا فنون النبات، وأصبنا فنون الأموال. ويُجمع على أفنان أيضاً... والرجل يفنّنُ الكلامَ، أي: يشتق في فنّ بعد فنّ»[١١].

واصطلاحاً: هوالشيء المبهم الغامض. أو هو الشيء الوحيد الذي لا يتكرر؛ ولذا قيل: إنّ الفنّ يعبر عن القيم، بل إنّ الفنّ هو نفسه تلك القيم[١٢].

وبذلك فإنّ الدراسة هنا هي دراسة فنية بلاغية، بأن ينصب الاهتمام فيها على الجوانب الفنّية والبلاغية في الخطاب القرآني، لكن في خطاب خاص وهو الأساليب الإنشائية، وفي نصّ قرآني معين وهو سورة البقرة، كما ذكرنا.

تقسيم الجملة إلى خبر وإنشاء:

وبما أن الجملة في اللغة العربية تنقسم باعتبار الأُسلوب، وهذا التقسيم موضع اهتمام البلاغيين في علمي المعاني والبيان، بل من مُدخَلات البحث الأساس؛ لأنّه دراسة فنّية في الأساليب الإنشائية، فأنّ الجملة تقسم بهذا الاعتبار ـ الأُسلوب ـ الى قسمين[١٣]:

(١٠) مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، ط١، ١٤١١هـ المطبعة: قدس، الناشر: دار الفكر، قم ـ إيران: ١٢٩.

(١١) العين: ٣٧١/١، (فنن).

(١٢) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي إدغار هايمن (ت١٣٩٠هـ)، ترجمة: إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٦٠م: ٤٧/٢.

(١٣) يُنظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٤٤.

الأوّل: الجملة الخبرية: وهي ما تحتمل الصدق والكذب.

الثاني: الجملة الإنشائية: هي ما لا تحتمل الصدق والكذب، وهي تنقسم على قسمين وهما[١٤]:

أولاً: الإنشاء الطلبي: وهوما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب. وأقسامه هي: الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمنّي والترجي، بالإضافة إلى العرض والتحضيض عند مَن يجعلهما من الإنشاء الطلبي[١٥].

ثانياً: الإنشاء غير الطلبي: وهوما لا يستدعي مطلوباً وقت الطلب. وأقسامه هي: التعجّب والمدح والذم والقَسَم[١٦].

المبحث الأوّل:
الأساليب الإنشائية وخروجها عن معناها الأصلي

لمّا كان البحث في الأساليب الإنشائية عقدنا هذا المبحث لبيان أنواع الإنشاء بنوعيه الطلبي وغير الطلبي وبيان المعنى الأصلي لكلّ نوعٍ منها في اللغة والاصطلاح، مع ذكر مجموعة من المعاني المجازية التي يخرج إليها عن معناه الحقيقي مع ذِكر أمثلةٍ قرآنية لها.

المطلب الاول:
أقسام الإنشاء الطلبي والمعاني اللغوية والاصطلاحية لها:

أولاً: الأمر:

الأمر لغة: «الأَمْرُ: الحادثة، والجمع أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غير ذلك، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلا إِلى اللهِ تَصِيْرُ الأُمُوْرُ﴾»[١٧].

(١٤) يُنظر: المصدر نفسه: ٦٣.
(١٥) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٥١؛ مختصر المعاني: ١٢٩؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٦٤. إلّا أنّه اختُلف في الترجّي؛ إذ عدّه الكثير من الإنشاء غير الطلبي.
(١٦) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٦٣.
(١٧) لسان العرب: ٢٧/٤، (أمر).

واصطلاحاً: «وهوصيغة تستدعي الفعل، أوقول ينبىء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»[١٨]، أو كما عرّفه المتأخرون بأنّه: «طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام»[١٩].

فيتّضح من التعريفين أنّ الأمر الحقيقي لا بدّ أن يتحقق فيه ثلاثة أركان، وهي: كونه طلباً من جهة عُليا، وقد صدر على نحو الإلزام، وكان بصيغة معيّنة.

صِيَغ الأمر:

الأمر في اللغة العربية يأتي بصِيَغ متعدّدة وهي[٢٠]:

١- الأمر بفعل الأمر على وزن (افْعَلْ).

٢- الأمر باسم فعل الأمر، سماعياً كان أو قياسياً.

٣- الأمر بالفعل المضارع المقترن بلام الأمر، ليكون بصيغة (ليَفعلْ).

٤- الأمر بالمصدر النائب عن فعل الأمر.

٥- الأمر بصيغة الخبر، أي تُطلق الجملة الخبرية ويُراد منها الإنشاء الطلبي (الأمر)[٢١]. ثمّ إنّ صيغ الأمر المتقدّمة قد تخرج عن معناها الأصلي - وهوالإيجاب والإلزام - إلى معانٍ أُخرى تُستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كمعاني: الدعاء، والالتماس والتهديد، والتعجيز، والإباحة، والتكوين، والاعتبار وغيرها من المعاني التي يخرج إليها الأمر عن معناه الحقيقي[٢٢].

ثانياً: الاستفهام:

الاستفهام لغة: طلب الفَهْم، تقول: «قد اسْتَفْهَمَنيّ الشيءَ فأَفْهَمْته وفَهَّمْته تفهيماً»[٢٣]. وتقول: «اسْتَفْهَمَه: سأَله أن يُفَهِمَه»[٢٤].

(١٨) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلويّ الطالبي الملقّب بالمؤيد بالله (ت٧٤٥ هـ)، ط١، ١٤٢٣هـ المكتبة العنصرية، بيروت - لبنان: ١٥٦/٣.

(١٩) البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. كامل حسن البصير: ١٢٣.

(٢٠) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٢/٣؛ البلاغة والتطبيق: ١٢٣- ١٢٤؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٦٤ - ٦٥.

(٢١) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٩٢/٣ - ٩٣، مع هامش ٩٣.

(٢٢) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٢/٣ - ٨٦؛ حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ٤٩٤/٢؛ البلاغة والتطبيق: ١٢٤ - ١٢٨.

(٢٣) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ٢٠٠٥/٥، (فهم).

(٢٤) لسان العرب: ٤٥٩/١٢، (فهم).

واصطلاحاً: «هو طلبُ حصولِ صورةِ الشيءِ في الذهنِ، فإنْ كانت وقوعَ نسبةٍ بينَ أمرين أولا وقوعها، فحصولها هو التصديقُ، وإلّا فهوالتصور»[٢٥]. أوكما عُرّف ـ الاستفهام ـ بأنّه: «طلبُ العلم بشيءٍ بواسطةِ أداةٍ مِن أدواته»[٢٦]. أو هو: «طلبُ العلمِ بشيءٍ لم يكنْ معلوماً من قَبْل»[٢٧].

فالمستخلص من مجموع التعريفات المذكورة أنّ الاستفهام الحقيقي يصدر لطلب العلم بشيءٍ مجهولٍ غيرِ معلومٍ لدى المُستَفْهِم ـ قد يكون ذلك المجهول نسبة بين أمرين، إثباتاً أونفياً، وقد يكون مفرداً ـ بإحدى أدوات الاستفهام.

أدوات الاستفهام:

الاستفهام في اللغة العربية إنّما يتمّ بأدوات مختصّةٍ به يختلف معناها بحسب نوع المستفهَم عنه أكان نسبةً بين طرفين أم مفرد، عاقلاً كان أم غيرَ عاقلٍ، مكان أوزمان، وهي: (الهمزة، وهل، وما، ومَن، ومتى، وأيّان، وكيف، وأين، وأنّى، وكَمْ، وأيّ). ويمكن تقسيم أدوات الاستفهام على ثلاثة أقسام بحسب ما يُطلب بها:

الأوّل: ما يُطلب به التصور تارة، أوالتصديق أُخرى[٢٨]، وهو: (الهمزة)، كما في قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[٢٩]، فالهمزة يُطلب بها التصور.

الثاني: ما يُطلب به التصديق فقط: وهو: (هل)، كما في قوله تعالى على لسان نبيّه موسى عليه السلام مخاطباً الخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[٣٠].

(٢٥) مختصر المعاني: ١٣١.
(٢٦) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث: ٩٥.
(٢٧) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٧١.
(٢٨) التصور: هو إدراك المفرد. أي يُستفهم عن تعيين المفرد. والتصديق: هو إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه، أي يُستفهم عن تعين نسبة بين شيئين. يُنظر: المصدر نفسه: ٧٢ ـ ٧٣.
(٢٩) الأنبياء: ٦٢.
(٣٠) الكهف: ٦٦.

الثالث: ما يُطلب به التصور فقط: وهو: بقية أدوات الاستفهام، وهي: (ما، من، متى، أين، أيان، كيف، أنى، كم، أي)[٣١]. ولكن قد يخرج الاستفهام في اللغة العربية عن معناه الأصلي الذي هو طلب الفَهْم إلى معانٍ أُخرى تُستفاد من المقام وقرائن الأحوال، ونذكر من هذه المعاني: (الأمر، النهي، النفي، التمني، التسوية، الإنكار، والتشويق، والاستئناس، والتقرير)، وغيرها[٣٢].

ثالثاً: النهي:

النهي لغة: «النَّهْيُ: خلاف الأَمر، نَهاه يَنْهاه نَهْياً فانْتَهى، وتناهى: كَفَّ»[٣٣].

واصطلاحاً: «وهوعبارة عن قول ينبىء عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء»[٣٤]، أوكما عرّفه التفتازاني (ت٧٩٢هـ) قائلاً: «وهوطلب الكفّ عن الفعل استعلاءً»[٣٥].

لكن ما ذُكر من تعريف له في جواهر البلاغة كان أكثر تفصيلاً؛ إذ قال: «هوطلب الكف عن الشيء على وجه الاستعلاء، مع الإلزام، وله صيغةٌ واحدة وهي المضارع المقرون بـ(لا) الناهية»[٣٦].

ومن خلال التعريفات الثلاثة نجد أنّ النهي الحقيقي يتقوّم بثلاثة أركان: صدوره من جهة على وجه الاستعلاء، مع الإلزام، بصيغةٍ معينة وهي بفعل مضارع تتقدّمه (لا) الناهية، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[٣٧].

وقد يخرج النهي بصيغته المذكورة عن معناه الحقيقي إلى

(٣١) يُنظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٧٢؛ البلاغة والتطبيق: ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣٢) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٦٨/٣ ـ ٨٠؛ مختصر المعاني: ١٣٧ ـ ١٣٩؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٧٧ ـ ٧٩؛ البلاغة والتطبيق: ١٣٢ ـ ١٣٧؛ في إعراب القرآن، الدكتور زهير غازي زاهد، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، إصدارات وحدة الدراسات والبحوث، الكلية الإسلامية الجامعة، النجف الأشرف.

(٣٣) لسان العرب: ٣٤٣/١٥.

(٣٤) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٥٦.

(٣٥) مختصر المعاني: ١٤١.

(٣٦) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٦٩.

(٣٧) الحجرات: ١٢.

معانٍ أُخرى تُستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ومن هذه المعاني: (الدعاء، والالتماس، وبيان العاقبة، والتيئيس، والنصح، والتمني، والإرشاد، وغيرها[٣٨].

رابعاً: النداء:

النداء لغة: «الصوت، وقد يُضم مثل الدُعاء والرُغاء. وناداه مناداة ونداء، أي: صاح به. وتنادوا، أي: نادى بعضهم بعضاً»[٣٩].

واصطلاحاً: «ومعنى النداء هوالتصويت بالمنادى لإقباله عليك»[٤٠]. أو كما عرّفه المراغي (ت١٣٧١هـ) بأنّه: «دعوة المخاطب بحرفٍ نائب مناب فعلٍ كأدعوونحوه»[٤١]. وأكثر تفصيلاً منه ما ذُكر في جواهر البلاغة بأنّ النداء: «هوطلب المتكلِم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب (أنادي) المنقول من الخبر إلى الإنشاء»[٤٢]. وبذلك يكون النداء بين طرفين المتكلّم والمخاطب، يكون المتكلّم هو الداعي أو المنادي، والمخاطَب هو المدعو أو المنادى بواسطة حرف مختص للنداء. تُذكر في اللغة العربية ثمانية حروف للنداء يختلف معناها بحسب قُرْب وبُعْد المنادى، أو عند تنزيله منزلة تخالف واقعه. وهي: (يَا، الهمزة، أيْ، آيْ، أيَا، هيَا، وا). ولم يرد في القرآن من حروف النداء إلّا (يَا) ويكون لنداء البعيد، وقد يُنادى به القريب توكيداً، بل قيل: إنّه حرف مشترك بين القريب والبعيد، وهو أكثر حروف النداء استعمالاً[٤٣]، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[٤٤]. وقد يُحذف حرف النداء ويبقى المنادى، ويُفهم ذلك من السياق[٤٥]، كما في

(٣٨) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٦٩ ـ ٧٠؛ البلاغة والتطبيق: ١٢٨ ـ ١٣٠.
(٣٩) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ٢٥٠٥/٦.
(٤٠) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٦١/٣.
(٤١) علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع): ٨١.
(٤٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٨٨.
(٤٣) يُنظر: البلاغة والتطبيق: ١٤٠.
(٤٤) الأعراف: ١٩.
(٤٥) يُنظر: في إعراب القرآن: ١١٤.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٤٦].

أمّا بقية أحرف النداء فوردت في كلام العرب شعراً كان أو نثراً، ولنداء حقيقي أو مجازي، ولم يرد استعمالها في القرآن[٤٧].

وقد يخرج النداء عن معناه الاصلي إلى إفادة معانٍ أُخرى وأغراض مختلفة تُفهَم من السياق وقرائن الأحوال، وأهم هذه المعاني أوالأغراض: (الدعاء، التنبيه، التمني، الأمر والموعظة، التعجب، التحسر والتوجع[٤٨].

خامساً: التمنّي:

التمنّي لغة: «التَّمَنّي تَشَهّي حُصُولِ الأَمر المَرْغوب فيه»[٤٩].

واصطلاحاً: «هو عبارة عن توقّع أمر محبوب فى المستقبل، والكلمة الموضوعة له حقيقة هي (ليت) وحدها»[٥٠]، وهذا التعريف لا يختلف كثيراً عن معناه اللغوي، ولذا يذكر البلاغيون تعريفاً أكثر شمولاً فيقولون: «التمنّي هو طلب الشيء المحبوب الذي لا يُرجى ولا يُتوقع حصوله، إمّا لكونه مستحيلاً، كقوله: ألا ليت الشباب يعود يوماً... وإمّا لكونه ممكناً غير مطموع في نيله، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾[٥١]»[٥٢]. فتكون (ليت) هي الأداة الأصلية الموضوعة للتمنّي، لكن قد يُتمنّى بغيرها؛ وذلك لأغراض بلاغية يحددها السياق أوالمقام.

وقد يُتمنّى بغير الأداة الأصلية للتمنّي (ليت) في اللغة العربية؛ وذلك لإفادة معانٍ بلاغية أُخرى غير التمنّي، ونذكر منها التمنّي بـ(هل): كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[٥٣].

(٤٦) يوسف: ٢٩.
(٤٧) يُنظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٨٨ ـ ٨٩؛ البلاغة والتطبيق: ١٤٠ ـ ١٤١.
(٤٨) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة ـ مصر: ١٩٦/٣؛ البلاغة والتطبيق: ١٤١ ـ ١٤٢؛ في إعراب القرآن: ١١٣ ـ ١١٦.
(٤٩) لسان العرب: ٢٩٤/١٥.
(٥٠) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ١٦٠/٣.
(٥١) القصص: ٧٩.
(٥٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٨٦.
(٥٣) الأعراف: ٥٣.

والتمنّي بـ(لو): كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوأَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾[٥٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوأَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٥].

سادساً: الترجّي:

الترجّي لغة: نقيض اليأس، ويأتي بمعنى عدم الخوف واللامبالاة وعدم الاكتراث إذا وقع منفياً، فقال الخليل (ت١٧٥هـ): «والرجو: المبالاة. [يقال]: ما أرجو، أي: ما أبالي، منه قول الله عزّ وجل: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً﴾[٥٦]، أي، لا تخافون ولا تبالون، وقال أبو ذؤيب[٥٧]: إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعها...، أي: لم يكترث»[٥٨].

واصطلاحاً: «فهو طلب أمرٍ محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه، ممّا يرى طالبُه أنّه مطموعٌ فيه، وهو يترقّب الظفرَ به، أوالحصولَ عليه»[٥٩]. وعُرّف في النحو الوافي بأنّه: «انتظارُ حصولِ شيءٍ مرغوبٍ فيه، ميسورِ التحقّق، ولا يكون إلّا في الأمرِ الممكن»[٦٠].

فيكون الترجي طلباً وانتظاراً للأمر الممكن، بخلاف التمنّي الذي هو طلبٌ للأمرِ المستحيلِ أو المتعذّر.

والترجّي في اللغة العربية يحصل بأداتين هما (لعلّ) و(عسى)، مع اختلافهما في العمل في مدخولهيما، كقولنا: (لعلّ زيداً عائدٌ من السفر)، و(عسى المريضُ أن يشفى)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوخَيْرٌ لَكُمْ﴾[٦١]. ثمّ إنّهما ـ لعلّ وعسى ـ يفيدان معانٍ أُخرى بالإضافة إلى الترجي، منها: التوقّع، والتعليل[٦٢].

سابعاً: العَرْض:

العرض لغة: هو بمعنى عرض الشيء وإظهاره للنظر فيه،

(٥٤) البقرة: ١٦٧.
(٥٥) الشعراء: ١٠٢.
(٥٦) نوح: ١٣.
(٥٧) هو خويلد بن خالد، جاهلي إسلامي. وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي. وخرج مع عبدالله بن الزبير في مغزى نحو المغرب، فمات، فدلّاه عبد الله بن الزبير في حفرته. الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ): ٦٣٩/٢.
(٥٨) العين: ٢٧١/١، (ر ج و).
(٥٩) البلاغة العربية: ٢٥١.
(٦٠) النحو الوافي، عباس حسن، ط١، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤م. الناشر: دانش للطباعة والنشر: ٣١٠/٤.
(٦١) البقرة: ٢١٦.
(٦٢) يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة/ الأستاذ محمد نديم فائضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٣ه /١٩٩٢م: ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

تقول: «اعْتَرَضَ الجُنْدَ على قائِدِهم، واعْتَرَضَ الناسَ: عَرَضَهم واحداً واحداً. واعْتَرَضَ المتاعَ ونحوه واعْتَرَضَه على عينه... ونظر إليه عُرْضَ عيْنٍ... أي اعْتَرَضَه على عينه. ورأيته عُرْضَ عَيْنٍ: أي ظاهراً عن قريبٍ... وقيل: هو من عَرْضِ الجُنْدِ بين يدي السلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم»[٦٣].

واصطلاحاً: هو طلب الشيء بلينٍ ورفق[٦٤]، بأن تعرض على المخاطب الشيء لينظر فيه[٦٥].

وللعرض في اللغة العربية أدوات مختصّة منها: (ألا): وتختص بالدخول على الجمل الفعليّة[٦٦]، نحو قوله تعالى: ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم**﴾[٦٧]. و(لو): كقول العرب: لوتنزلُ عندنا فتصيبَ خيراً[٦٨].

ثامناً: التحضيض:

التحضيض لغة: «حضّ: [يُقال] الحضيضي والحثيثي، من الحضّ والحثّ»[٦٩]، ولذا قال الجوهري (ت٣٩٣هـ): «حَضَّه على القتال حضّاً، أي: حثَّه»[٧٠]، و«الحَضُّ: ضرْبٌ من الحثّ في السِيْر والسَوْق وكلّ شيء»[٧١].

واصطلاحاً: هو طلب الشيء بحثّ وشدّة[٧٢]، فيكون التحضيض أشدّ توكيداً من العَرْض[٧٣]، قال السيوطي (ت٩١١هـ): «العرض والتحضيض مقاربان والجامع بينهما التنبيه على الفعل، إلا أنّ التحضيض فيه زيادة تأكيدٍ وحثٍ على الفعل، فكلُّ تحضيضٍ عَرْض، لأنّك إذا حضضتَه على فعلٍ فقد عَرَضْتَه عليه»[٧٤]. وللتحضيض أيضاً أدوات تخصّه في اللغة العربية، وهي (لولا، هلّا، لوما، ألّا)[٧٥].

(٦٣) العين: ٢٧١/١، (ع ر ض).
(٦٤) يُنظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٤٧/١.
(٦٥) يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٦٦) يُنظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٤٧/١.
(٦٧) النور: ٢٢.
(٦٨) يُنظر: العوامل والعواطل في كتب الأعاريب، السيد حسين الحسيني الزرباطي، دار التفسير (إسماعيليان)، ط١، ١٤٢١هـ: ١٣٧.
(٦٩) العين: ١٣/٣، (ح ض ض).
(٧٠) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ١٠٧١/٣، (ح ض ض).
(٧١) لسان العرب: ١٣٦/٧، (ح ض ض).
(٧٢) يُنظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٤٧/١؛ التطبيق النحوي: الدكتور عبده الراجحي، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ٢٩٨/١.
(٧٣) يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٧٤) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق ومراجعة: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر: ٣٩٠/٢.
(٧٥) يُنظر: العوامل والعواطل في كتب الأعاريب: ١٦٢.

المطلب الثاني:
أقسام الإنشاء غير الطلبي
والمعاني اللغوية والاصطلاحية لها:

أولاً: التعجّب:

التعجّب لغة: إنّ «العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عليك لقلَّة اعْتِيادِه؛ وجمعُ العَجَبِ: أَعْجابٌ... وقد عَجِبَ منه: يَعْجَبُ عَجَباً، وتَعَجَّبَ، واسْتَعْجَبَ... والاسْتِعْجابُ: شِدَّةُ التَّعَجُّبِ»(٧٦).

واصطلاحاً: كما ذكره الخليل (ت١٧٥هـ) في الجمل قائلاً: «التعجّب: ما يجده الإنسان من نفسه عند خروج الشيء من عادته»(٧٧). وأوضح منه تعريف الرضي الأسترآبادي (ت٦٨٦هـ) بأنّه: «انفعالٌ يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببُه؛ ولهذا قيل: إذا ظهر السببُ بطل العجب»(٧٨).

فعند التدقيق في التعريفين الاصطلاحيين للتعجّب لا نجدهما يختلفان كثيراً عن معناه اللغوي، وبذلك فإنّ التعجّب في الاصطلاح استُعمل بمعناه اللغوي. وللتعجّب في اللغة العربية نوعان(٧٩):

الأول: التعجّب القياسي: وهذا النوع من التعجّب يكون بصيغتين قياسيتين:

الأولى: (ما أفعَلَه): كما في الآية المباركة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾(٨٠).

الثانية: (أفعِلْ به): كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٨١).

(٧٦) لسان العرب: ٥٨٠/١، (عجب).
(٧٧) الجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق ومراجعة: د. فخر الدين قباوة، ط٥، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م: ٧٨/١.
(٧٨) شرح كافية ابن الحاجب (شرح الرضي)، رضي الدين الأستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق: د. أميل يعقوب، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان: ١٨٦/٤.
(٧٩) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: ٤٦/٣ ـ ٥٣.
(٨٠) البقرة: ١٧٥.
(٨١) البقرة: ١٧٥.

الثاني: التعجّب السماعي:

وهذا النوع من التعجّب لم ينحصر بطريقة وصيغة معينة، وإنّما يعتمد على السماع من كلام العرب، كقول العرب: لله درّه فارساً! وسبحان الله!

كما يعتمد على السياق وقرائن الأحوال في بعض الأساليب التي تخرج عن معناها الحقيقي، كما في قوله تعالى على لسان النبي سليمان عليه السلام متعجّباً من عدم حضور الهُدهُد: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾(٨٢).

ثانياً: المدح:

المدح لغة:

مدح: «المدح: نقيض الهجاء و[هو] حسن الثناء. والمدحة اسم المديح، وجمعه: مَدائح ومِدَح، يُقال: مدحته وامتدحته»(٨٣).

واصطلاحاً: هوأسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي يدلّ على المدح صراحة أو بقرينة حالية، أو كلامية(٨٤). أو«هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصداً»(٨٥).

ثالثاً: الذم:

الذم لغة: «الذَّمُّ: نقيض المدح. ذَمَّه يَذُمُّه ذَمّاً ومَذَمَّةً، فهو مَذْمُومٌ وذَمٌّ. وأَذَمَّه: وجده ذَمِيماً مَذْمُوماً. وأَذَمَّ بهم: تركهم مَذْمُومينَ في الناس... وأَذَمَّ الرجلُ: أتى بما يُذَمُّ عليه. وتذامَّ القومُ: ذَمَّ بعضُهم بعضاً»(٨٦).

واصطلاحاً: وهوأُسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي يدلّ على الذم صراحة أوبقرينةٍ حالية، أوكلامية(٨٧).

(٨٢) النمل: ٢٠.
(٨٣) العين: ١٨٨/٣، (م د ح).
(٨٤) يُنظر: النحو الوافي: ٢٨٤/٣.
(٨٥) التعريفات، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م: ٢٠٦، باب الميم.
(٨٦) لسان العرب: ٢٢٠/١٢، (ذمم).
(٨٧) يُنظر: النحو الوافي: ٢٨٤/٣.

وهناك كلمات مختصة بالمدح والذم في اللغة العربية، نذكر أكثرها استعمالاً في العربية وفي القرآن الكريم، وهما الفعلان (نِعْمَ) للمدح، و(بِئْسَ) للذم.

رابعاً: القسم:

القَسَم لغة: «القسم: اليمين، ويجمع على أقسام، والفعل: أقسم. وقوله تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ...**﴾[٨٨]، بمعنى أقسم ولا صلة»[٨٩].

واصطلاحاً: هو أسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي، يُراد به تأكيد الكلام عند السامع ليزول عنده الشك أو التردد[٩٠].

وللقسم حروف وصيغ، كما أنّه قد يُفهم من السياق أو من دليل يدلّ عليه، كالألفاظ الـمُشعِرة بالقسم، فحروف القسم هي: (الواو والتاء والباء).

وصِيَغ القسم اُستعمل منها في القرآن صيغة (لعمرك): كما في قوله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[٩١].

وأما الألفاظ الـمُشعِرة بالقسم، والتي كَثُر استعمالُها في القرآن هي اللام الموطئة للقسم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوقُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**﴾[٩٢]، فاللام في الآية موطئة للقسم قد وقعت بعدها أداة الشرط (إنْ)، والجواب بعدها يكون للقسم، لأنّ كلاً من القسم والشرط يحتاج جواباً، ولا يوجد سوى جوابٍ واحد فيكون للمتقدّم منهما وهو القسم[٩٣].

(٨٨) البلد: ١.
(٨٩) العين: ٨٦/٥ (ق س م).
(٩٠) يُنظر: في إعراب القرآن: ٢٨٤/٣.
(٩١) الحجر: ٧٢.
(٩٢) آل عمران: ١٥٨.
(٩٣) في إعراب القرآن: ١٣٠.

المبحث الثاني
عناصر علم المعاني
في الأساليب الإنشائية في سورة البقرة

المطلب الأول:
أُسلوب الإيجاز والحذف:

الإيجاز لغة: الاختصار، يُقال: «أوجزت في الأمر: اختصرت»[٩٤].

ويُقال: «أوجزت الكلام: قصرته. وكلام موجِز وموجَز، ووجْز ووجيز»[٩٥].

واصطلاحاً: «وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح»[٩٦].

١ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٩٧]. نجد في هذه الآية أُسلوباً إنشائياً ـ وهو الأمر ـ قد تضمنّ جوانباً فنيّة دقيقة وهي: فنجد هذا الأسلوب والفنّ البلاغي قد اشتمل عليه الإنشاءُ الطلبي (الأمر) في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ فيكون الإيجاز والحذف فيه بحذف كلمة أوجملة أو أكثر مع قرينة مقاميّة تعيّن المحذوف؛ لأنّ مَن اتّقى النار عصم نفسه عن جميع الموبقات والمعاصي التي يطول تعدادها، فضلاً عن ترك المكابرة والمعاندة، فألفاظ قليلة استبطنت معانٍ كثيرة، وهذا أُسلوب فنّي آخر تكتنفه الآية.

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ

(٩٤) العين: ١٦٦/٦، (وجز).
(٩٥) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.: ٩٠٠/٣، (وجز).
(٩٦) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، الناشر: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، إيران، ط١، ١٣٧٩ش: ١٩٣.
(٩٧) البقرة: ٢٤.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٩٨]، في الآية المباركة مجموعة من الفنون البلاغية قد اشتملت عليها الأساليب الإنشائية، نذكر منها النداء الوارد في الآية المباركة على لسان موسى عليه السلام وهو ﴿يَا قَوْمِ...﴾ حُذفت فيه ياء المتكلم، لأنّ الأصل (يا قومي)، ولكن لمّا كان المقام مقام نصح وإرشادٍ وتحذير لهم من أفعالهم وظلمهم لأنفسهم بعبادتهم العجل، ناسب هذا المقام فنٌّ من فنون الخطاب وهو الإيجاز والحذف المتمثّل هنا بحذف الضمير (ياء) المتكلم[٩٩].

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١٠٠]، يمكن أن نلتمس جوانب فنّية عده في الأساليب الإنشائية الواردة في الآية المباركة، ولكن نقتصر على الايجاز حيث نجد في الآية المباركة ـ أيضاً ـ أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين وغيرهما جاء بالمصدر (إحساناً) من دون ذِكر الفعل (أَحْسِنُوا) الذي عمل فيه النصب، وهذا فنّ من فنون الخطاب فيه إيجاز وحذف يقتضيه السياق أوالمقام، وله تأثير في النفس قد يفوق الذِكْر في ذلك المقام[١٠١].

٤ـ قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[١٠٢]. اشتملت هذه الآية المباركة على أساليب فنّية عده اقتضاها المقام

(٩٨) البقرة: ٥٤.
(٩٩) يُنظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ: ١/١٤٥.
(١٠٠) البقرة: ٨٣.
(١٠١) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١/١٨٦.
(١٠٢) البقرة: ١٩١.

في الخطاب، نشير إلى الايجاز، فإن فعل الأمر في الآية: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الأصل فيه (اتّقوني) إلّا أنّ الياء (ياء المتكلم) حُذفت للتخفيف والإيجاز؛ لأن السياق سياق ترغيبٍ في إكمال فريضة الحج والتزود للآخرة، ولمّا كان السياق كذلك فناسبه الإيجازُ والتخفيف[١٠٣]، إضافة إلى أنّ الخطاب في الآية لأُولي الألباب، وإن لم يكن خاصاً بهم[١٠٤].

٥ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[١٠٥]. الجملة الطلبية في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فيها إيجاز وحذف، إذ أُمروا بالموت فماتوا ثمّ أحياهم، وإنّما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره للتنبيه على أن كلّ شيء لا يتخلّف عن إرادته تعالى، ولاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته، وهذا الفنّ من فنون الخطاب يُسمّى في علم البلاغة الإيجاز بالحذف[١٠٦].

المطلب الثاني: الاطناب:

عرَّفه البلاغيون بأنّه: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدّية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء، لفائدة تقويته وتوكيده»[١٠٧]، وللإطناب أنواع عديده، منها:

أ ـ ذِكْر الخاص بعد العام:

ذِكْر الخاص بعد العام: هو نوع من أنواع الإطناب الذي هو: «زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هوتأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه...»[١٠٨]،

(١٠٣) التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد): محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.: ٣٦٣/٢٣.

(١٠٤) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ: ١٨٥/٥.

(١٠٥) البقرة: ٢٤٣.

(١٠٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: محمود بن عبد الرحيم صافي (ت١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق ـ سوريا. ومؤسسة الإيمان، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م: ٥١٦/٢.

(١٠٧) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ١٩٦ ـ ١٩٧؛ يُنظر: البلاغة والتطبيق: د. أحمد مطلوب/ د. كامل حسن البصير: ٢٠٠.

(١٠٨) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ١٩٦.

فيُذكر الخاص بعد العام: «وفائدته التنبيه على مزية وفضل في الخاص، حتى كأنّه لفضله ورفعته جزءٌ آخر مغايرٌ لما قبله»[١٠٩].

١ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١١٠]. في هذه الآية المباركة يمكن أن نلحظ فنّين بارزين في الأُسلوب الإنشائي (الأمر) بالإضافة إلى الدلالة الأصلية فيه إذ في قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر حقيقي صدر من جهة عُليا (الله) تبارك وتعالى إلى جهة دُنيا وهم (العباد) وهوأمر تعلّق بكل الصلاة بما هي عامة وشاملة لكلّ أجزائها وأركانها، ثمّ قال تعالى بعده: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فهو أمر بجزء من الصلاة وهوالركوع، وهذا الفنّ في الخطاب يُسمّى بـ(ذِكْر الخاص بعد العام)، ويُؤتى به لأغراض ومعانٍ بلاغية، منها تثبيت المعنى، أوالتنبيه والتوكيد على أمر الصلاة والإتيان بأركانها، وكلّ ما يحقق العبودية لله عزّ وجلّ، وخُصّ الركوع هنا لما له دلالة في العبودية والخضوع.

٢ـ قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١١١]. اشتملت هذه الآية المباركة على عدّة أساليب فنّية اقتضاها المقام في الخطاب، نشير إلى بعضها: يمكن ملاحظة فنّاً آخر في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ إذ إنّ النداء والخطاب لأُولي الألباب جاء بأُسلوب الإطناب الذي اقتضاه مقتضى الحال، لإنّ الأمر بالتقوى ليس خاصاً بأُولي الألباب وحدهم، ولا يتوجّه

(١٠٩) المصدر نفسه: ١٩٧.
(١١٠) البقرة: ٤٣.
(١١١) البقرة: ١٩١.

الكلام إليهم دون غيرهم، لأنّ كل إنسان مأمور بالتقوى، لذلك جيء بهذا النوع من الإطناب وهوذِكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضل الخاص على العام وأرجحيته، لأنّ التفاضل بين الناس إنّما يكون بالألباب التي هي العقول.

ب ـ التكرير:

«وهوذِكْر الشيء مرّتين أوأكثر لأغراض»[١١٢] بلاغية يحددها المقام أوتُفهم من السياق.

١ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾[١١٣].

في هذه الآيات المباركة نرى أنّ الإنشاء الطلبي (الأمر) قد تكرر ثلاث مرات، وهذا فنّ من فنون الخطاب ينبغي الإشارة إليه، وهو: كما في الآيات الثلاث المذكورة نجد أُسلوب الإطناب في الخطاب جاء على نحو فنّ التكرير، إذ جاء الطلب في الآية الأُولى بـ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، ثم تكرر في الثانية بـ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، وهكذا في الثالثة بـ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، ولعلّ فائدة التكرير للطلب هنا هي التأكيد على حال بني إسرائيل وعدم استجابتهم للنبيّ موسى عليه السلام وذلك بإلحاحهم بالسؤال والطلب منه عليه السلام بأن يدعوربَّه.

(١١٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ١٩٨.
(١١٣) البقرة: ٦٨ ـ ٧٠.

المطلب الثالث: الوصل والفصل:

عدّ البلاغيون أُسلوب الوصل والفصل فنّاً عظيماً من فنون البلاغة، وعرّفوه بأنّ: «الوصل عطف بعض الـجُمل على بعضٍ، والفصل تركه»[١١٤]. فإذا اقتضى المقامُ العطفَ بين الجملتين أوالجمل بحرف العطف الواو سميّ ذلك وصلاً، وإن اقتضى عدم العطف سمّي فصلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١١٥]. نجد أسلوب الفصل واضحاً فيه بين جملتين، بأن يُحمل ترك العطف في ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ على الاستئناف؛ وذلك لأنّ الذي قبله قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ هو حكاية قول الكافرين، فكان المناسب وروده بدون الواو وهو المطابق للحال لئلّا يُعطف كلام الله تعالى على كلام الكافرين، فبالفصل كان كلامه تعالى كلاماً مستانفاً[١١٦].

المطلب الرابع: الأمر أوالنهي بصورة الإخبار:

قد يأتي الأمر بصيغة الخبر، أي تُطلق الجملة الخبرية ويُراد منها الإنشاء الطلبي (الأمر)[١١٧]، كما في:

١ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١١٨]، فإنّ (كُتِبَ عليكم الصيامُ) جملة خبرية أُريد بها الأمر، الدالّ على وجوب الصوم.

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا

(١١٤) الإيضاح في علوم البلاغة: عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م: ٩٧/٣.

(١١٥) البقرة: ١٣.

(١١٦) يُنظر: مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: ٢٦٣/١.

(١١٧) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٩٢/٣ ـ ٩٣، مع هامش ٩٣.

(١١٨) البقرة: ١٨٣.

﴿لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١١٩]. يمكن أن نلتمس جوانب فنّية عدة في الأساليب الإنشائية الواردة في الآية المباركة، منها أن من فنون الخطاب أن يؤتى بالخبر ويُراد به الأمر أوالنهي لغرضٍ بلاغيٍّ دقيق، ففي الآية المباركة جاء الخطاب لبني إسرائيل بـ ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ﴾، وهوجملة خبرية تصدّرتها (لا) النافية أُريد بها الأمر: (اعبدوا اللهَ)، أوالنهي: (لا تعبدوا غيرَ اللهِ)، وهذا أبلغ من صريح الأمر أوالنهي، إذ كأنّه سُورِع إلى الامتثال أوالانتهاء، فهويخبر عنه وكأنّه قد تحقّق الامتثالُ أوالانتهاء[١٢٠].

المبحث الثالث
العناصر البيانية
في الأساليب الإنشائية في سورة البقرة

المطلب الأول: الكناية:

الكناية لغة: «أن تتكلّم بشيء وتريد به غيره، وقد كنّيت بكذا عن كذا وكنوت»[١٢١].

واصطلاحاً: «هي ترك التصريح بذِكْرِ الشيء على ذِكْر ما يلزمه، لينتقل من المذكور على المتروك، كما نقول: (فلان طويل النجاد) لينتقل منه على ما هو ملزوم، وهو طول القامة»[١٢٢]. وعرّفها الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) بأنّها: «لفظ أُريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه حينئذٍ»[١٢٣].

١ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ

(١١٩) البقرة: ٨٣
(١٢٠) يُنظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ)، تحقيق ومراجعة: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ: ١/ ١٥٩.
(١٢١) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): ٢٧٤٤/٦.
(١٢٢) مفتاح العلوم: ٤٠٢/١.
(١٢٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٥٨/٥.

﴿السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٢٤]. ففي قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ نلحظ أنّ الإنشاء الطلبي بالاستفهام قد اشتمل على فنٍّ بلاغيّ وهو الكناية عن كمال إيمان المؤمنين، النبيﷺ وأصحابه المنتجَبين؛ إذ إنّ الشرع ينظر للظاهر والله تعالى عنده علم السرائر، ولهذا سكت المؤمنون وردّ الله سبحانه عليهم ما كانوا يسرّون، فالكلام كناية عن كمال إيمان المؤمنين، ولكن في نفس تلك الكناية نكاية بالكافرين[١٢٥].

٢ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١٢٦]. نجد في هذه الآية أُسلوباً إنشائياً ـ وهوالأمر ـ قد تضمنّ كناية: في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أنّ اتّقاء النار في أسلوب الأمر كنايةٌ عن الاحتراز من العناد والإنكار؛ إذ بذلك يتحقق تسبّبه عنه وترتّبه عليه، كأنّه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثل القرآن كما هوالمقرر، فاحترزوا من إنكار كونه منزّلاً من عند الله سبحانه وتعالى، فإنّه مستوجب للعقاب بالنار، فنجد الكناية ـ مبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتّصاف به عين الملابسة بها ـ جاءت للمبالغة في تهويل شأن الإنكار وتفظيع أمره، وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم[١٢٧].

٣ـ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ

(١٢٤) البقرة: ١٣.
(١٢٥) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه: ٥٤/١ ـ ٥٥.
(١٢٦) البقرة: ٢٤.
(١٢٧) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٧٨/١ ـ ٧٩.

مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١٢٨]. في هذه الآية المباركة فنونٌ بلاغيّة متعدّدة وأساليبُ خطابٍ كثيرة، نشير إلى الكناية فيها. ففي الأمر من قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ كناية بما يُستحسن لفظُه عمّا يُستقبَح ذِكرُه؛ إذ أُطلق اللفظ الكنائي وهو المباشرة، ولم يُرد المعنى الحقيقي من خلال السياق، وإنّما المراد لازم ذلك وهو مقاربة الرجل زوجته (الجُماع)، ففي الأمر يُحمل على الإباحة والترخيص، وفي النهي يُحمل على المنع[١٢٩].

٤ـ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٣٠]. يمكن أن نلاحظ عدّة أساليب وفنون بلاغية في الآية الكريمة، نشير إلى الكناية فيها: فإنّ فعل الأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ جاء بأُسلوب كنائي؛ إذ كنّى بإتيان الحرث بكيفيةٍ ما عن إتيان المرأة في الكيفية المشروعة، فهو أسلوب وفنٌّ كنائي دقيق؛ إذ جُمع فيه بين دقة التعبير واختيار الألفاظ الحسنة بدلاً من ألفاظٍ يُستقبح ذكرُها، إضافةً إلى دلالة هذا الخطاب بهذا الأسلوب على معانٍ كثيرة بألفاظ جزلة قليلة.

٥ـ قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٣١]،

(١٢٨) البقرة: ١٨٧.
(١٢٩) يُنظر: الكشاف: ٢٥٩/١.
(١٣٠) البقرة: ٢٢٣.
(١٣١) البقرة: ١٩١.

اشتملت هذه الآية المباركة على عدّة أساليب فنّية اقتضاها المقام في الخطاب، نشير إلى بعضها: نجد هذه الكناية في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾؛ إذ أُطلِق (علمُ الله) وأُريد لازمه وهو المجازاة على المعلوم، خيراً كان ذلك الفعل المعلوم أم شرّاً، وهذا تمّ بطريق الكناية لأنّها أبلغ من التصريح، وأوقع في نفوس المخاطبين، لما فيها من معنى الترغيب في فعل الخير، والمعنى (وأكثروا من فعل الخير)[١٣٢].

المطلب الثاني: الاستعارة:

الاستعارة لغة: هي مصدر من الفعل استعار من العارية، «يُقال: هم يتعاورون من جيرانهم الماعون والأمتعة. ويُقال: العارية من المعاورة والمناولة. يتعاورون: يأخذون ويعطون»[١٣٣].

واصطلاحاً: «هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرين صارفة عن إرادة المعنى الأصلي»[١٣٤].

الاستعارة التمثيليّة: هي أحد أنواع المجاز المركّب وتُعرَّف بأنّها: «تركيب استُعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي، بحيث يكون كلٌّ من المشبه والمشبه به هيأة منتزعة من متعدد، وذلك بأن تُشبِه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أُمور بأُخرى، ثمّ تُدخِل المشبه في الصورة المشبهة بها مبالغةً في التشبيه»[١٣٥].

١ـ قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١٣٦]. اشتملت الآية المباركة على فنٍ

(١٣٢) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٢/٢٣٥.
(١٣٣) العين: ٢/٢٣٩.
(١٣٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٢٦٤.
(١٣٥) المصدر نفسه: ٢٨٦؛ يُنظر: البلاغة والتطبيق: ٣٤٩.
(١٣٦) البقرة: ١١٧.

بلاغي جميل من فنون البيان وروعة الخطاب، وهوالاستعارة التمثيلية.

ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، استعارة تمثيلية، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): «وهذا مجاز من الكلام وتمثيل»[١٣٧]، حيث شُبّهت هيأة حصول المراد بعد تعلّق الإرادة بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع عقيب أمر المطاع بلا توقّف[١٣٨]، لأنّ (كان) في الآية (كان) التامة فمعنى ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (أَحْدِثْ فيَحدُث) وهذا مجاز مركّب (استعارة تمثيليّة)، بأن شُبهت صورة ما قضاه من الأُمور وأراد كونَه وحدوثَه ـ وأنّه يتكّون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقّف ـ بصورة أنّ المأمور المطيع الذي يُؤمَر فيمتثل ولا يتوقّف ولا يعتذر للآمر المُطاع[١٣٩].

٢ـ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٤٠].

يمكن أن نلاحظ عدّة أساليب وفنون بلاغية في الآية الكريمة، نشير إلى بعضها وهو إنّ الجملة الإنشائية من قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ فيها استعارة تصريحية؛ إذ شُبهت النساءُ بالحرث لما بين ما يلقى في أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث إنّ كلاً منهما مادة لما يحصل منه[١٤١]، ثم حُذف المشبه (النساء) وصُرَح بالمشبه به (الحرث)، فنجد الخطاب في غاية الدقة والجمال لما للاستعارة التصريحية من بلاغة وواضح بيان.

٣ـ قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ

(١٣٧) الكشاف: ٢٠٨/١.
(١٣٨) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٢٤٦/١.
(١٣٩) يُنظر: الكشاف: ٢٠٨/١.
(١٤٠) البقرة: ٢٢٣.
(١٤١) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٤٦٦/٢.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٤٢].

اشتملت هذه الآية المباركة على عدّة أساليب وفنون وبلاغية اقتضاها المقام في الخطاب، نشير إلى الاستعارة: فإنّ فعل الأمر (تزودوا) في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فيه استعارة؛ وذلك لأنّ التزوّد هوإعداد الزاد وهوالطعام الذي يحمله المسافر، فالتزوّد مستعار للاستكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء شُبّه بإعداد المسافر الزادَ لسفره، بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت[١٤٣]، وبذلك فإنّ الاستكثار مشبّه والتزوّد مشبّه به، فحُذف المشبّه وصُرّح بالمشبّه به للتأكيد على أهمّية أنّ هذا النوع من الاستكثار.

المطلب الثالث: التشبيه البليغ:

التشبيه البليغ: هو من أهم فنون علم البيان لما لحُسنه في الخطاب من قبول وتأثير في النفس، فقال البيانيون في تعريفه: «هوما حُذِفَت فيه الأداة، ووجه الشبه، وهوأرقى أنواع التشبيه بلاغةً»[١٤٤]. كما في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٤٥]. اشتملت هذه الآية المباركة على عدّة فنون بلاغية اقتضاها المقام في الخطاب، نشير إلى التشبيه وهو في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فقد شُبهت التّقوى بالزاد بجامع التقوية بينهما، لغرض تقرير حال المشبه (التقوى) في ذهن المخاطب، وذلك بحذف أداة الشبه ووجه الشبه[١٤٦].

(١٤٢) البقرة: ١٩١.
(١٤٣) يُنظر: الكشاف: ٢٧١/١.
(١٤٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٢٣٥.
(١٤٥) البقرة: ١٩١.
(١٤٦) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٤١٠/٢.

المطلب الرابع: المجاز المرسل:

المجاز المرسل: عرّفه البيانيون بأنّه: «الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الوضعي»[١٤٧].

١ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١٤٨]. في هذه الآية المباركة يمكن أن نلحظ فنّوناً بارزة في الأُسلوب الإنشائي (الأمر) بالإضافة إلى الدلالة الأصلية فيه، نذكر منها المجاز المرسل في قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ نرى الأمر بالركوع قد جاء بأُسلوب فنيّ رائع؛ إذ جاء بأُسوب مجازي في كلمة (اركعوا) وكلمة (الراكعين) فيكون معنى الآية: (صلّوا مع المصلّين)، فعبّر بالجزء وهوالركوع وأراد الكلّ وهوالصلاة، والعلاقة المصحّحة لهذا المجاز المرسل هنا هي علاقة الجزئية ـ أحد علاقات المجاز المرسل ـ لأنّ الركوع جزء من الصلاة[١٤٩].

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١٥٠]. في الآية المباركة مجموعة من الفنون البلاغية قد اشتملت عليها الأساليب الإنشائية، نذكر منها:

في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر إلى مَن لم يعبد العجل من قوم موسى عليه السلام أن يقتل من عبده، والمعنى (استسلموا أنفسكم للقتل)، وسمى الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز

(١٤٧) المصدر السابق: ٢٥٤.
(١٤٨) البقرة: ٤٣.
(١٤٩) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١١٧/١.
(١٥٠) البقرة: ٥٤.

المرسل[١٥١]، فنرى التعبير بـ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أوقع في قلب المخاطب، وأبلغ وأوجز من التعبير بـ(استسلموا أنفسكم للقتل)؛ وذلك للاستعمال المجازي الذي جاء به الأمر، الذي علاقته ما يؤول إليه من علاقات المجاز اللغوي المرسل، لأنّ الاستسلام هنا سيؤول إلى القتل.

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٥٢]. يمكن ملاحظة عدّة فنون بلاغية في الجُمل الطلبية في الآية المباركة، وهي:

نجد هذا الفنّ البياني الجميل قد تحقّق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، أي (ولا تلقوا بأنفسكم) على سبيل المجاز المرسل، فعبَّر بالأيدي وهي الجزء وأراد الأنفس وهي الكلّ، فالعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي هي علاقة الجزئية من علاقات المجاز اللغوي المرسل[١٥٣]. لكن يمكن القول بأنّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ إيجاز بحذف المفعول به وهو(أنفسكم) على تقدير: (ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم)، وذلك لتأكيد اتّصال الفعل بمفعوله[١٥٤]، وعلى كلا التقديرين ـ المجاز أوالإيجاز ـ هو فنٌّ في الخطاب يقتضيه السياق أو المقام فيكون أبلغ من الحقيقة والذِكْر.

المطلب الخامس: خروج الاستفهام عن معناه الأصلي:

يخرج الاستفهام في اللغة العربية عن معناه الأصلي الذي هوطلب الفَهْم إلى معانٍ أُخرى تُستفاد من المقام وقرائن الأحوال[١٥٥]، كما نجده فيما يأتي:

(١٥١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان: ١/ ٢٦٠؛ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١١٧/١.

(١٥٢) البقرة: ١٩١.

(١٥٣) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٤٠٠/٢.

(١٥٤) يُنظر: التحرير والتنوير: ١٣٤/٢٨.

(١٥٥) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٦٨/٣ ـ ٨٠؛ مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، المطبعة: قدس، قم، الناشر: دار الفكر، قم، ط١، ١٤١١ هـ: ١٣٧ ـ ١٣٩؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٧٧ ـ ٧٩؛ البلاغة والتطبيق: ١٣٢ ـ ١٣٧.

١ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١٥٦). نجد في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ جانباً فنّياً بلاغياً يتمثّل بخروج الاستفهام عن معناه الأصلي ـ وهو طلب العِلم والفَهم ـ إلى غرضٍ آخرَ يُفهم من مضمون الكلام؛ وهو معنى الجحد والإنكار، بمعنى (لا نفعل كما يفعلون)(١٥٧).

٢ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١٥٨)، في الآية الكريمة أسلوب طلبي في غير معناه الحقيقي وهو الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ﴾ ليس استفهاماً حقيقياً، وإنّما خروج لمعناه الأصلي عن موضوعه، فهو استكشاف عن الحكمة الخفيّة وعمّا يزيل الشبهة، وليس استفهاماً عن الجعل نفسه والاستخلاف؛ لأنّ الملائكة قد علموا ذلك من قَبلُ، فالمسؤول عنه هوالجعل، ولكن لا باعتبار ذاته، بل باعتبار حكمته ومزيل شبهته. أويمكن أن يُقال: خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى التعجّب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها مَن يُفسد فيها(١٥٩).

٣ـ قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١٦٠). اشتملت هذه الآية المباركة على أُسلوب طلبي وهوالاستفهام، وقد حمل معنى بلاغياً جديداً؛ وذلك بخروجه عن معناه الأصلي؛ إذ في هذه الآية المباركة امتاز

(١٥٦) البقرة: ١٣.
(١٥٧) يُنظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١٠٢/١.
(١٥٨) البقرة: ٣٣.
(١٥٩) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٩٦/١.
(١٦٠) البقرة: ٤٤.

الاستفهام بإفادة معنى بلاغيّ جديد غير معناه الأصلي الذي وُضِع له، فالهمزة لم تعطِ معناها الحقيقي وهوطلب الفهم، وإنّما تعدته لإفادة معنى التوبيخ ـ لأنّ الاستفهام الصريح لا يقع من الله (تعالى شأنه) في القرآن، لأنّ المستفهِم متعلِم ما ليس عنده، والله عالم بالأشياء قبل كونها ـ إذ كان الأحبار من اليهود يأمرون مَن نصحوه في السرّ من أقاربهم وغيرهم باتّباع النبيّ ﷺ ولا يتبعونه، أوأنّهم كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرَقوها خانوا فيها، فجاء الاستفهام في مقام التوبيخ على ما يفعلون[١٦١].

٤ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُوفَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[١٦٢].

نرى الاستفهام بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ قد خرج عن معناه الحقيقي إلى إفادة معنى التقرير لمَن سمع بقصّة الخارجين من ديارهم خائفين من الموت من أهل الكتاب وأخبار الأولين والتعجيب من شأنهم[١٦٣].

(١٦١) يُنظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/١٣٣.
(١٦٢) البقرة: ٢٤٣.
(١٦٣) يُنظر: الكشاف: ١/٣١٨.

المبحث الرابع
العناصر البديعية في الأساليب الإنشائية في سورة البقرة

المطلب الأول: أُسلوب الطباق:

الطباق لغة: من المطابقة والموافقة، قال الخليل (ت١٧٥هـ):

«طابقتُ بين الشيئين: جعلتُهما على حذوواحد وألزقتُهما، فيُسمّى هذا المطابق، والمطبق»[١٦٤].

واصطلاحاً: عرّفه الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) بأنّه: «الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة»[١٦٥].

١ـ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[١٦٦]. أُسلوب النهي الوارد في الآية لم يفد معناه الأصلي، وإنّما خرج لمعنى آخر، وهوالإرشاد، بالإضافة إلى وجود أسلوب فنّي في متعلّق النهي، فنلاحظ هذا الفنّ البديعي الجميل كيف اشتمل عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ إذ جمع بين معنيين متضادين وهما الموت والحياة في لفظتي (أموات) و(أحياء)، فهوطباق رشيق وفنٌّ دقيق لا تكلّف فيه.

٢ـ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَخَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَشَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٦٧]. الآية الكريمة تضمّنت أُسلوباً طلبياً قد جاء بأُسلوب فنيّ رائع، وهو: تحقق هذا الأسلوب الفنّي في الآية المباركة في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ الدال على الإشفاق، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً﴾ الدال على الترجّي؛ إذ إنّ الطباق بين الحبّ والكره وبين الخير والشرّ.

٣ـ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[١٦٨]. في الآية المباركة ورد أحد أنواع الإنشاء غير الطلبي وهو التعجّب، فيمكن أن نشير إلى

(١٦٤) العين: ١٠٩/٥، (طبق).
(١٦٥) الإيضاح في علوم البلاغة: ٦/٦.
(١٦٦) البقرة: ١٥٤.
(١٦٧) البقرة: ٢١٦.
(١٦٨) البقرة: ١٧٥.

جانبين فنّيين قد تعلّقا فيه. فنجد هذا الأُسلوب قد تحقّق في أسباب التعجّب، وذلك في المطابقة بين الضلالة والهدى من جهة، وبين العذاب والمغفرة من جهة أُخرى، والطباق فنّ دقيق المسلك لا يسلكه إلّا خبير بأساليب الكلام وإلّا كان تكلّفاً ممقوتاً[١٦٩].

المطلب الثاني: الالتفات:

الالتفات: من الفنون البلاغية اللطيفة التي تُبحث في علم المعاني، ويُقصد به: «الانتقال من كلٍ من التكلُّم أوالخطاب أو الغَيْبَة إلى صاحبه، لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتأمّل في مواقع الالتفات، تفنُّناً في الحديث، وتلويناً للخطاب، حتى لا يملّ السامع من التزام حالة واحدة، وتنشيطاً وحملاً له على زيادة الإصغاء، (فإنّ لكلّ جديدٍ لذةً)، ولبعض مواقعه لطائف، ملاكُ إدراكها الذوقُ السليم»[١٧٠].

١ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١٧١].

في الآية المباركة مجموعة من الفنون البلاغية قد اشتملت عليها الأساليب الإنشائية، إذ نجدها قد اشتملت على مجموعة من أساليب الإنشاء الطلبي وهي: النداء: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، والأمر: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، وكذا الأمر: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وكلّها في مقام الخطاب، حسب ما يقتضيه السياق، ثمّ حصل انتقال إلى مقام الغَيْبَة، فقال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ

(١٦٩) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٣٤٨/٢.
(١٧٠) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٢٠٧.
(١٧١) البقرة: ٥٤.

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فهو خطابٌ وكلامٌ منه سبحانه وتعالى على نهج وفنّ الالتفات من الخطاب الذي يقتضيه النُظم والسياق إلى الغَيْبَة؛ إذ كان مقتضى المقام من دون التفات أن يقول: (فوفّقتكم فتبتُ عليكم)[١٧٢].

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[١٧٣]. يمكن أن نلتمس عدّة جوانب فنّية في الأساليب الإنشائية الواردة في الآية المباركة، لكن يمكن أن نلحظ فناً بلاغياً لا يكاد يغيب هذا الفنّ من الخطاب في النص القرآني؛ ففي بداية الآية كان الكلام عن ميثاق الأسلاف من بني إسرائيل، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾، ثمّ لمّا ذكر تعالى التولّي توجّه به على سبيل الخطاب إلى الحاضرين منهم، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ﴾ وهذا التفات إلى خطاب بني إسرائيل جميعاً، بتغليب الحاضرين على الأسلاف الغائبين منهم، ومن هنا تتكّشف بعض أسرار الالتفات في الخطاب؛ إذ يعطي هذا الفنّ معنى التوبيخ هنا لبني إسرائيل جميعاً إلّا ما استثنته الآية: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ﴾. وهناك جوانب فنيّة أُخرى في الآية، لكن أقتصرنا على ما ذُكر طلَباً للاختصار[١٧٤].

٣ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[١٧٥]. في الآية المباركة عدّة جوانب

(١٨٢) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١١٧/١.
(١٨٣) البقرة: ٨٣
(١٧٤) يُنظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١/ ١٥٩؛ في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق. القاهرة، ط١٧، ١٤١٢ هـ: ٨٧/١
(١٧٥) البقرة: ١٧٢.

فنّية جاءت بها الأساليب الإنشائية، نذكر منها: الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلّهِ﴾ إلى الغيبة بعد ضمير المتكلّم للتعظيم في قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، إذ سياق الكلام من دون التفات يقضي أن يقول (اشكرونا) بضمير المتكلّم للتعظيم أيضاً، إلّا أنّه بفنّ الالتفات أعطى معنى آخر، «ففي القرآن كلّه لا يوجد موضع ذُكر فيه ضمير التعظيم إلّا سبقه أوتبعه إفرادٌ بما يفيد وحدانيّة الله تعالى»[١٧٦].

(١٧٦) لمسات بيانية: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م: ٤٤٠.

الخاتمة

* في هذا البحث بيّنّا جانباً من الدراسات القرآنية، التي تسلط الضوء على النص القرآني، وهي الدراسة الفنية البلاغية للأساليب الإنشائية في سورة البقرة.

* في الدراسة الفنية للأساليب الإنشائية ـ في أغلبها ـ اعتمدنا العناصر البلاغية من فنونها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وفنوناً أخرى تتعلق بالخطاب القرآني.

* في الجانب التطبيقي قمنا بدراسة الآيات التي وردت فيها الأساليب الإنشائية وقد توافر فيها عناصر علم المعاني، أو عناصر علم البيان، والعناصر البديعية بأن نشير إلى كل ما تعلق بها من فنون خطاب وأساليب بلاغية فنية.

* بعض الجوانب الفنّية في الأساليب الإنشائية في بعض الآيات من سورة البقرة لم يُشَر إليها في المصادر المعتمدة في البحث، وإنما بيّناها بحسب فهمنا لها.

* مما توصلنا إليه أنّ النص القرآني يزخر بفنون كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولكن تحددها الدراسة ونوع البحث سعةً وضيقاً.

* بعض الأساليب الإنشائية تعطي أكثر من معنى في آنٍ واحد، على خلاف المتعارف من أنها تعطي معنى، وقد تخرج عنه إلى معنى آخر.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن: أبوالفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة ـ مصر.

٢- الإيضاح في علوم البلاغة: عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣- البلاغة والتطبيق: د. أحمد مطلوب/ د. كامل حسن البصير.

٤- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد): محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٥- التطبيق النحوي: الدكتور عبده الراجحي، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦- التعريفات، السيد الشريف أبوالحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧- الجدول في إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه: محمود بن عبد الرحيم صافي (ت١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق ـ سوريا. ومؤسسة الإيمان، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٨- الجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق ومراجعة: د. فخر الدين قباوة، ط٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٩- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د. فخر الدين قباوة/ الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار

الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٠- الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ).

١١- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢- الصورة الأدبية تاريخ ونقد، علي علي صبح، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

١٣- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلويّ الطالبي الملقّب بالمؤيد بالله (ت٧٤٥هـ)، ط١، ١٤٢٣هـ المكتبة العنصرية، بيروت ـ لبنان.

١٤- العوامل والعواطل في كتب الأعاريب، السيد حسين الحسيني الزرباطي، دار التفسير (إسماعيليان)، ط١، ١٤٢١هـ.

١٥- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ـ ١٧٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، تحقيق ومراجعة: د. مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي.

١٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمروبن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨هـ)، تحقيق ومراجعة: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبومحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٨- النحو الوافي، عباس حسن، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. الناشر: دانش للطباعة والنشر.

١٩- النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي إدغار هايمن (ت١٣٩٠هـ)، ترجمة: إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٦٠م.

٢٠- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٢١- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، الناشر: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، إيران، ط١، ١٣٧٩ش.

٢٢- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق ومراجعة: د. التنجي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٢٤- شرح كافية ابن الحاجب (شرح الرضي)، رضي الدين الأستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق: د. أميل يعقوب، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان.

٢٥- علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ).

٢٦- في إعراب القرآن، الدكتور زهير غازي زاهد، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، إصدارات وحدة الدراسات والبحوث، الكلية الإسلامية الجامعة، النجف الأشرف.

٢٧- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق. القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ

٢٨- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ): الناشر: نشر أدب الحوزة، محرم ١٤٠٥، قم ـ إيران.

٢٩- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ط ٣، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣ م.

٣٠- مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني، (ت٧٩٢هـ)، المطبعة: قدس، قم، الناشر: دار الفكر، قم، ط ١، ١٤١١هـ.

٣١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين عبدالله بن يوسف الأنصاري (ت٧٦١هـ)، تحقيق: حسن حميد، إشراف: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٢- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبوعبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ

٣٣- مفتاح العلوم: أبويعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م.

٣٤- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق ومراجعة: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر.

٧

المقدس الديني في المنظور القرآني

د.م. هدى عباس
م. حوراء كاظم جواد

مقدمة

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء على ما قدَّم، فعلَّم الإنسان ما لم يعلم، وميّزه على سائر خلقه، والصلاة والسلام على نبينا المبعوث أفضل من تأخر برسالته ومعجزته القرآن الكريم الذي ضم أروع الأساليب البيانية واجلَّ الخصائص البلاغية التي سيطرت على الملكات الأدبية واجتذبتها حتى ورد في قوله تعالى ﴿**قلْ لئنْ اجتمعتْ الأنسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا**﴾[١].

وقد ارتأينا دراسة كتاب الله وما قدس فيه لتأثير هذا الكتاب المقدس في اللغة العربية وترقيتها ونشرها في بقاع مختلفة من الأرض، وحفاظه على ديمومتها، فبفضل القرآن الكريم توصل الإنسان إلى علوم شتى في اللغة كالنحو والصرف والتفسير والفقه والأصول ولا يخفى تأثيره، فهو المعين الذي لا ينضب. فالوليد بن المغيرة هذا المتكبر الجاحد والصلف المعاند يقرُّ برقي القرآن وإعجازه في قوله: (والله إنَّ لكلامهِ لحلاوة، وانَّ عليهِ لطلاوة، وانَّ أسفلهُ لمغدق، وانَّ أعلاهُ لمورق، وانَّهُ ليعلو ولا يُعلى عليه وما هو بقول البشر)[٢]. فضلا عن تأثيره المباشر في ترقية عقول البشر وتوعيتها بوحدانية الخالق وترك تعدد الآلهة، وذلك من ما طهر وقدس ابتداء بالذات الالهية، وانتهاء بأعجب خلقه وأبعده، وهذا هو السر في انجذابنا نحو هذا المقدس والتعلق به، فقسمنا بحثنا على ثلاثة مباحث، يسبقها تمهيد نتناول فيه تعريف (المقدس)

(١) سورة الإسراء آية ٨٨

(٢) علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، أحمد مصطفى المرغي وآخرون، ص ٦.

والإمساك بماهياته وتجلياته، أما المبحث الأول:

١- قدسية الذات الالهية في القرآن.

٢- قدسية القرآن الكريم.

والمبحث الثاني:

١- قدسية الأنبياء والرسل في القرآن الكريم.

٢- قدسية الملائكة في القرآن الكريم.

والبحث الثالث:

الأماكن المقدسة في العالم وهي (مكة المكرمة وبيت المقدس). معتمدين في ذلك على معاجم لغوية معتبرة، وتفاسير قرآنية، ومصادر بلاغية، وأخيرا نشكر كل من أعاننا بحرف تجلت على أثره معلومة، ونقدم امتناننا لأمينات مكتبة العتبة الحسينية لجهودهن المضنية في تقديم ما نحتاج إليه من مصادر وجعلها بين أيدينا دون عناء أو تعب.

تمهيد

المقدس لغةً واصطلاحاً:

القدس: الطهر، وروح القدس، جبرائيل عليه السلام، و (قُدْس) بالتسكين: جبل عظيم، بأرض نجد. والتقديس: التطهير، ومنها الأرض المقدسة: المطهرة[٣]. وقال قومٌ بل التقديس: البركة، وبه سُميت الشام بـ (الأرض المقدَّسة)، والقُداس بالضم والتخفيف: حجر يطرح في حوض الإبل يقدر أسفارهم، ومنها القادس والتقديس أيضاً، وقد زعموا بأنها لغة يمانية قديمة[٤]، وقدس قدساً والقياس قداسة: طهر وكان مباركاً، وروح القدس عند المسلمين الملك جبرائيل[٥]، والقدوس: هو المنزه عن الأضداد والأنداد والصاحبة والولد، تعالى الله عن ما يقول الظالمون علواً كبيراً[٦]، ومنها أيضاً القُداس: وهو الجمان من الفضة[٧]، والقدس: تنزيه الله تعالى، وهو المقدس القدوس المقدس وهو الطهارة[٨]. وهكذا يتكرر معنى الطهارة في كتب اللغة للفظة (المقدس) ومشتقاتها وإذا ما انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي نجد أنَّ المعنى ينتقل إلى التنزيه. فالقدوس: هو المنزه عن كل وصف يلحقه، حسٌّ أو ضمير، والتقرب اليه يلزم الخلوة والصوم بغير وصال، ومنها التقديس: مبالغة في القدس أي النزاهة[٩].

والقدوس من أسمائه تعالى وجاء في معناها: المجرد في المستضيء في وجوده وحقيقته عن التعلق والارتباط بغيره سواء أكان هذا فاعلاً لهُ أم غاية أو مادة أو صورة أو موضوعاً أو عرضاً أو جزءاً مطلقاً، وسواء أكان التعلق في الخارج أم في العقل،

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، لأبي نصير إسماعيل الفارابي، ج٢، ط١، ص١١١.
(٤) ترتيب جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي، ج ٣، ط ١، ص١٠٠٣.
(٥) الكافي، لمحمد خليل الباشا، ط٤، ص٧٨٠.
(٦) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ط ١، ص٨٤٧.
(٧) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ط ١، ص٧٧٢.
(٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (القاهرة - مصر)، مجلد ١، ص١١٥.
(٩) مصطلحات التصوف الإسلامي، رفيق العجم، ص ٢١٠.

كتعلق أحدهما بالآخر، فالله سبحانه مقدَّس عن التعلق بشيء من المبادئ المقومة بسبب من الأسباب المحصلة[١٠]، والقدوس: هو المنزه عن كل وصف يدركه حسٌّ أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير، والقدوس المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال، الذي يضنه أكثر الخلق كمالاً، لأنَّ الخلق أولاً نضروا إلى أنفسهم وعرفوا صفاتهم، وأدركوا انقسامها إلى ما هو كمالٌ؛ ولكنهُ في حقهم مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم وأرادتهم واختيارهم، ووصفوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني، وقالوا إنَّ هذه هي أسماء الكمال[١١]، ووصف تعالى أنه قدوس: ويراد به منزه عما جاز على عباده من اتخاذ الصاحبة والولد، وعن ما ينسب إليه من العيب الذي يجب تنزيهه عنهُ[١٢].

(١٠) موسوعة مصطلحات صدر الدين الشيرازي، رفيق العجم، ص ٢٢٠.

(١١) موسوعة مصطلحات الأمام الغزالي، رفيق العجم، ص ٢٢٠.

(١٢) موسوعة مصطلحات الأشعري، د. سميح دغيم، ص ١٥٥.

المبحث الأول:
قدسية الذات الالهية في القرآن الكريم
وقدسية القرآن الكريم

اولا: قدسية الذات الالهية:

الآن وبعد أن تعرفنا على معاني التقديس والمقدس وعلمنا أن هذا المصطلح بشتى مشتقاته يعني (التطهير) و (التنزيه) و (العلو) لابد لنا أن نعلم أنَّ أولى المقدسات بالذكر هو تقديس الذات الالهية؛ ذلك أنه خالق الكون والحياة والذي يبقى ويفنى كلُّ شيء كما جاء في قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[١٣]، وعن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «نَحْنُ الْوَجْهُ الَّذِي يُؤْتَى اللهُ مِنْه»[١٤]، وعن ابن بابويه، قال: حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن هاشم، عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: «قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابْنَ رَسُولِ اللهِ فَمَا مَعْنَى الْخَبَرِ الَّذِي رَوَوْهُ أَنَّ ثَوَابَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ فَقَالَ عليه السلام: يَاأَبَا الصَّلْتِ مَنْ وَصَفَ اللهَ بِوَجْهٍ كَالْوُجُوهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَكِنَّ وَجْهَ اللهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ وَحُجَجُهُ عليهم السلام هُمُ الَّذِينَ بِهِمْ يُتَوَجَّهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى دِينِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[١٥]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[١٦]...»[١٧]، وجاء في قدسيته تعالى دعوته جهرا لعباده أن يتجهوا اليه بالاستغفار والتوبة؛ لأنهُ كان غفارا كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ إلى

(١٣) سورة الرحمن، آية ٢٦ -٢٧.
(١٤) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج ٧، مج ٧، ط ١، ص ٣٩٠.
(١٥) سورة الرحمن، آية ٢٦ -٢٧.
(١٦) القصص: ٨٨.

قوله تعالى ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[١٨]، وقد خصت هذه الآيات قوم نوح باستعمال عامل الترغيب والترهيب، فوعدهم الله على لسان نبيه نوح عليه السلام بانفتاح أبواب الرحمة الالهية أذا ما تابوا من ذنوبهم؛ ذلك أنَّ قوم نوح لمَّا كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم الله أرحام نسائهم أربعين سنة فانقطع أولادهم وأموالهم وهلكت مواشيهم، فقال لهم نوح عليه السلام: استغفروا ربكم من الشرك، أي استدعوا المغفرة بالتوحيد[١٩].

وجاء أيضا في قدسية الله وقدرته في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢٠]، وقد روى عكرمة عن ابن عباس قال: لمَّا أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة حنين وأنزل الله سورة الفتح قال: ياعلي بن أبي طالب ويافاطمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾[٢١] إلى آخر السورة[٢٢].

وقال السدي وابن عباس ثم نزل ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[٢٣]، فعاش بعدها ستة أشهر، ولما خرج إلى حجة الوداع نزلت عليه في الطريق ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[٢٤]، فسميت آية الصيف، ثم أنزل عليه وهو واقف بعرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢٥]، فعاش بعدها واحدا وثمانين يوماً ثم نزلت عليه آيات الربا ونزلت بعدها ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[٢٦]، وهي آخر آية نزلت من السماء فعاش بعدها واحد وعشرين يوماً.

(١٧) أمالي الصدوق، للشيخ الصدوق محمد بن علي القمي، ج٧، ص٣٧٢.
(١٨) سورة نوح، آية ١٠- ١٢.
(١٩) تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، ج٣، ط١، ص٣١٧.
(٢٠) سورة البقرة، آية ٨
(٢١) سورة النصر آية ١.
(٢٢) البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، ج١، مج١، ط١، ص٥٧٦.
(٢٣) سورة التوبة، آية ١٢٨.
(٢٤) سورة النساء، آية ١٧٦.
(٢٥) سورة المائدة، آية ٣.
(٢٦) سورة البقرة: ٢٨١.

ثانياً: قدسية القرآن الكريم:

القرآن الكريم مقدس بذاته وليس فيه زيادة ولا نقصان ولا تحريفٌ، وأنه كتاب الله المُنزَّل على رسوله النبي محمدﷺ، فهو وسيلة الرسول وحجته من الله لدعوة الناس وانتشالهم من الضلالة إلى الهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو شفاء من كل داء كما ورد في قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢٧)، فهو لا يشفي العلل المحسوسة فقط؛ إنما هو شفاءٌ للقلوب يزيل الجهل والحيرة والضلال والعتمة عنها، فيزكي النفوس ويطهرها لطهارته القدسية، وقد ورد في كشف البيان (إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ورعاه)(٢٨).

وقال تعالى أيضا بخصوص القرآن ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٢٩)، ولا يستطيع الإنسان الخروج من ظلمة الجهالة إلى نور الهدى إلاَّ بالعمل الذي ارتضاه الله له وما وجهنا إليه القرآن الكريم وحثنا به امتثالا لأوامره تعالى وتجنب ما يسخطه تعالى فالقرآن هو الفيصل بين الحق والباطل.

وجاء أيضا في كتابه تعالى بما يعزُّ به كتابه المجيد قوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾(٣٠)، فالآية الأولى يعني بها القرآن الكريم، والآية الثانية قرأ الحجازيون وأبو عمرو بتخفيف الزاي ورفع الحاء والنون ويعنون (جبرائيل بالقرآن الكريم)، وقرأ آخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون أي نزّل

(٢٧) سورة الإسراء، آية ٨٢.
(٢٨) الكشف والبيان في تفسير القرآن، أسحق أحمد بن محمد الثعلبي، ج٤، ط١، ص٧٦.
(٢٩) سورة إبراهيم، آية ١.
(٣٠) سورة الشعراء، آية ١٩٤.

الله جبرائيل وهو اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم لقوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ﴾ وهو مصدر نزل على قلبك يامحمد[٣١].

وكثيرا ما استرسل القرآن الكريم في الإفصاح عن علومه وأحكامه التي لا تقف على أرض محددة أو ملة بعينها إنما تعيها كل العقول، كما تتدبرها القلوب، التي لا شائبة فيها كما ورد قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣٢].

وقد ورد في الخبر عَنِ الزُّهْرِي عَنْ عَلِي بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ: فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَقُولُ فِيهِ: «أَلَا إِنَّ لِلْعَبْدِ أَرْبَعَ أَعْيُنٍ، عَيْنَانِ: يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ: يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ آخِرَتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً فَتَحَ لَهُ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ فَأَبْصَرَ بِهِمَا الْغَيْبَ فِي أَمْرِ آخِرَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ تَرَكَ الْقَلْبَ بِمَا فِيهِ»[٣٣].

وجاء في صدق كتابه العزيز ونزاهته ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٣٤]، أي أكثر نفعا من التوراة دينا ودنيا (فاتبعوه) أي اعملوا بما جاء به من الأوامر والنواهي والأحكام (واتقوا) يعني مخالفته واتباع غيره؛ لكونه منسوخاً به (لعلكم ترحمون) أي لترحموا بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه، وفيه اشارة إلى أنه لا رحمة بمثابة المنسوخ وإن أمن صاحبها بلقاء ربه[٣٥].

وورد قوله تعالى ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣٦]، فالله يقول عن كتابه: أيها الرسول المصطفى هذا الذي تقرأهُ ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، أي أتقنت

(٣١) الكشف والبيان في تفسير القرآن، اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، ج٤، ط١، ص ٤٦٣.
(٣٢) سورة محمد، آية ٢٤.
(٣٣) الخصال؛ ج١؛ ص ٢٤٠.
(٣٤) الانعام: ٩٣.
(٣٥) تفسير ألقاسمي المسمى (محاسن التأويل)، محمد جمال الدين القاسمي، مجلد ٤، ط١، ص١٧٢٢.
(٣٦) سورة هود، آية ١.

ونظمت نظما محكما لا يضر به خلل من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، أو أحكمت من النسخ شريعة أخرى، أو أحكمت بالحجج والبراهين، أو جعلت حكيمة؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم العلمية، ثم فصلت أي بينت لاشتمالها على بينات العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار أو فصلت سورة سورة ليسهل حفظها وفصلت بالإنزال نجما نجما في أزمنة مختلفة أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه من الأحكام ومن ثم التفاوت في الحكم[٣٧]، وقد كثرت الآيات التي تشير إلى قدسية هذا الكتاب والتي لا يسعنا ذكرها بالإجماع، ولا بأس أن نشير ببعض منها: قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٣٨]، وقوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٩]، فالله سبحانه وتعالى يصف الذكر الحكيم بهذه الأوصاف التي تنص على مصونية القرآن من كل خطأ وضلال[٤٠].

المبحث الثاني:
قدسية الأنبياء والرسل والملائكة في القرآن الكريم

أولاً: قدسية الأنبياء والرسل عليهم السلام:

إنَّ ذكر بعض الآيات القرآنية التي تنزه الأنبياء والرسل ممكن أن يقودنا إلى أمم بائدة ويكشف عن أنضمتها وتحولاتها والمنعطفات الطبيعية في تأريخ البشرية بتصريحه تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[٤١]، فقراءة قِصصهم بكسر القاف

(٣٧) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبي العباس أحمد بن محمد الحسني، ج٣، ط٢، ص ١٩٣-١٩٤.
(٣٨) سورة فصلت، آية ٤٢.
(٣٩) سورة الإسراء، آية ٩.
(٤٠) عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، جعفر السجائي، ط٢١، ص١٠.
(٤١) سورة يوسُف، آية ٦٣.

جمع قِصة، إذ القَصص مفتوح القاف مصدر بمعنى المفعول، وهو بحسب الظاهر لا يتناول إلاَّ قصة واحدة لكنه يراد به الجنس بقرينة قراءة القصص بكسر القاف، ويرد عليه قصة يُوسُف عليه السلام وأبيه وأخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة فيحسن إطلاق الجمع عليها كما في ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾[٤٢]، ومن هذه القصص ما ورد ذكره في يوسف عليه السلام وأخوته كما ورد في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[٤٣]، وقد ورد الحديث عن يُوسُف عليه السلام، وأخوته العلات، وكانوا عشرة، ستة من بطن (ليا)، وهي ابنة خال (يعقوب): روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهودا، وريان، ويشحر، وكانت من بطنها بنتاً أسمها دينة، وأربعة من بطن (سريتين) له عليه السلام أحدهما زلفة وأخرى من يلهة دان، وتفتالي وجاد وأشر كذا قال البغوي، ولما توفيت لياتزوج يعقوب عليه السلام أختها (راحيل) فولدت له يوسف وأخوه بنيامين فكان أبناء يعقوب عليه السلام أثني عشر رجلاً)[٤٤].

لقد كان في قصة يوسُف وأخوته عبرة لأولي الألباب، أي ذوي العقول السليمة المبرأة عن الشوائب إذ نُقِلَ من غيابة الجُب إلى غيابة الحُب ومن الحصير إلى السرير، فصارت عاقبة الصبر السلامة والكرامة، ونهاية المكر الخزي والندامة[٤٥].

وجاء أيضا في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٤٦]، هذه الآية نزلت بمناسبة استخلاف الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام خليفة من بعده كما أجمع عليه

(٤٢) حاشية القونوي، للبيضاوي، ط١، مج ١٠، ص٤٤٢.
(٤٣) سورة يوسُف، آية ٧.
(٤٤) التفسير المظهري، محمد ثناء الله العثماني، ط١، مج٤، ص١٠
(٤٥) المصدر السابق، ص٦٦.
(٤٦) سورة المائدة، آية ٦٦.

المفسرون، وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله يخشى المنافقين فبين سبحانه وتعالى عظيم الأمر بقوله ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ أي لم تبلغ خلافة علي عليه السلام ﴿تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ لأن كل الرسالة رهن هذا التبليغ ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يحفظك فلا يتمكنون من الانقلاب والإيذاء مما كان الرسول يخشاه.

إنَّ لهذه الآية نفسا مميزا يميزها عن ما قبلها وعن ما بعدها فهي توجه الخطاب بشكل خاص إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وتبين واجبه من خلال ﴿الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولأنّ فيها أمراً الهيا وجوبيا فيأتي التوكيد والتحذير من تجاهل الأمر في قوله تعالى ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ويأتي تعالى بكلمات تسند الرسول وتطمئنه في قوله ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمدك بمعونته وفي ختام الآية تهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة ويكفرون بها عنادا في قوله ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٤٧].

وقد أشار تعالى في كتابه العزيز إلى عامة آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم من لم ترد أسمائهم بالتفصيل، وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم الله في قوله ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤٨]. ثم يجمع تعالى أنبياءه في آية واحدة في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[٤٩]. فقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محذوف أي كأنه قال: (يا أيها

(٤٧) الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ط١، ج٤، ص٢٢.
(٤٨) الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ط١، ج٤، ص٢٢.
(٤٩) سورة الأحزاب، آية ٧.

النبي أتق الله وأذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين، والميثاق هو اليمين، وقيل هو الإقرار بالله، والأول أولى، ثم خص تعالى بعض النبيين بالذكر، فقال: ومنك ومن نوح وموسى وعيسى ابن مريم ووجه تخصيصهم بالذكر، بأن لهم مزيد شرف وفضل؛ لكونهم من أول القوم من الرسل[٥٠]، ثم يقدس رسله في كتابه العزيز بأنه كلمهم فزادهم رفعة وفضلا، كما في قوله ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[٥١]، فقد ذكر تعالى بأن رسله مشتركون بالفضل ولكن بنسب متفاوتة، حسب ما تحملوه من كلام وحسب جهادهم ودعوتهم وهدايتهم وحسب بعض الخصائص والمميزات التي خص الله بها بعضهم دون الآخرين[٥٢].

ثانياً: قدسية الملائكة في القرآن الكريم:

تُعدُّ الملائكة من مخلوقات الله في السماء التي كرست جُل وقتها لعبادة الله وتسبيحه وأنهم أطاعوا الله سرا وعلانية، وامتثلوا لأوامره تعالى وقدسوه،وتتضح صورة هذا الامتثال عندما أمرهم الله بالسجود لآدم عليه السلام وهو أبو البشر الذي حمل جميع البشر في صلبه امتثلوا دون جدال ولم يتفكروا مما خلق الله آدم وخلقهم كما هو إبليس وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٥٣]، ومن قدسية هذه المخلوقات أن الله كرمها في قوله ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥٤]، فجاء في قوله ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

(٥٠) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط٢، ج٤، ص٣٤٧.
(٥١) سورة البقرة، آية ٢٥٣.
(٥٢) ينظر الواضح في التفسير، علي الموسوي، ط١، ج٢، ص٢٨٥.
(٥٣) سورة الحجر، آية ٣.
(٥٤) سورة فاطر: ١.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهنَّ ومبدعهن على غير مثال، فمثلما أبدع في خلقه للمرة الأولى هو قادر على إعادة هذا الخلق بعد أن يبلى و(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) يجوز فيه الوجهان وانتصاب (رسلاً) بفعل مضمر على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فهو منصوب بـ (جاعل) والرسل من الملائكة هم جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) مستأنفة مقررة لما قبلها، والمعنى أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل لما قبلها من أنه يزيد في خلق الخلق ما يشاء[٥٥]. ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أي ذوي أجنحة ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي أثنين أثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، قال الضحاك: مثنى جبرائيل، وثلاث ميكائيل، ورباع أسرافيل) أظهر الأقاويل أنَّ الله تعالى يزيد في خلق الملائكة وأجنحتهم ما يشاء، وعن قتادة قال: يزيد في الخلق ما يشاء، وقوله ﴿أنَّ الله على كل شي قدير﴾، أي قادر[٥٦].

وورد قوله تعالى في معنى قدسية خلقه وهو يصف ملائكته ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٥٧]، فالله خص الملائكة بأنهم سكان السموات لا يضعفون عن عبادته تعالى ولا يستكبرون، وقال داوود بن فرقد العطار: قال لي بعض أصحابنا أخبرنا عن الملائكة أينامون؟ فقلتُ: لا أدري، فقال: يقول الله عز وجل ﴿يسبحون الليل والنهار ولا يفترون﴾[٥٨]، وورد في حديثه تعالى عن الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن

(٥٥) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط٢، ج٤، ص٤٤٥-٤٤٦.
(٥٦) تفسير السمعاني، أبي مظفر منصور بن محمد التميمي، ط١، ج٣، ص٣٩٣.
(٥٧) سورة الأنبياء، آية ١٩- ٢٠.
(٥٨) التيسير في تفسير القرآن، ماجد ناصر الزبيري، ط١، ج٤، ص٤٠٠.

عبادته تعالى أي لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ولا يستحسرون من الحسير وهو البصير المنقطع بالإعياء والتعب[٥٩]. وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٦٠]، وورد في تفسير القمي في قوله تعالى ﴿أَنَّ الَّذين عند ربك﴾ يعني الأنبياء والرسل والأئمة وقيل الملائكة في إضافتهم الى نفسه تشريفاً لهم (لا يستكبرون عن عبادته) مع جلالة قدرهم وعلو أمرهم ويسبحونه وينزهونه عن ما لا يليق به (وله يسجدون) يخصونه بالخضوع والصلاة أو السجود فيها، ولا خلاف أن هنا سجدة هي أول سجدات القرآن[٦١].

وكثيرا ما نلتقي بالآيات التي تقدس الملائكة؛ كونهم يقضون أوقاتهم مسبحين وساجدين لوجهه الكريم فهم مما قدس في أكثر من موضع كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٦٢]، ولله: أي الذي بيده الأمر كله، ويخضع وينقاد له ما في السماوات والأرض وسكان السماوات هم الملائكة الذين لا يستكبرون عن عبادته تعالى، وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من موضع للتأكيد والتذكير بخلق هم أكثر طاعة من سكان الأرض وأورد العاملي في كتابه عن قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ينقاد لأرادته وأمره (من دابة) بيان لما فيها، و(الملائكة) من عطف الخاص على العام للتفخيم، أو بيان لما في الأرض، و(الملائكة) تعيين لما في السماوات و(ما) بتغليب لما لا يعقل

(٥٩) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط٢، ج٤، ص٥٥٠

(٦٠) سورة الأعراف، آية ٢٠٦

(٦١) الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، ج٢، ط١، ص ٣٦٦.

(٦٢) سورة النحل، آية ٤٩.

لكثرته و(هم) أي الملائكة (لا يستكبرون)عن عبادته[٦٣].

المبحث الثالث: الأماكن المقدسة في العالم

ارتبط التأريخ البشري منذ نشأته حتى الآن بأماكن مقدسة للعبادة، فأينما وجد الإنسان في بقعة ما كان هنالك مكان يعبد فيه الإلهة ومع مرور السنوات أصبحت بعض هذه الأماكن المقدسة مزارات تاريخية وأصبح بعضها الآخر ملاذاً يحج إليه معتنقو العقائد والديانات المختلفة ويتباركون بها[٦٤] وأقدس أرض هي:

أولاً: مكة المكرمة:

فهي قبلة الله في الأرض وملاذٌ يلتجأ اليه المسلمون لتجديد العهد واستحضار للموقف، والاستغفار وذكر الله، وتقع مكة المكرمة في الحجاز في المملكة العربية السعودية وهي تبعد عن المدينة المنورة ٤٠٠كم تقريباً في الاتجاه الجنوبي الغربي، ولمكة المكرمة ثلاثة مداخل رئيسة هي: المعلاة، وتعرف باسم الحجون، والمسفلة، والشبكية وقد تعارف الناس على أن المعلاة هي كل ما ارتفع عن مستوى ارض المسجد الحرام، و(المسفلة) هي كل ما كان دونه[٦٥]، وورد في أسماء مكة في كتاب الله قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[٦٦]، فكانت (مكة) أشهر تسمية عرفها مسلموا العالم وأيضاً ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[٦٧]، وأيضا قوله تعالى ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٦٨]، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[٦٩]. فنجد أن أسماء هذه البقعة قد تعددت في كتاب الله

(٦٣) الوجيز في تفسير القرآن العزيز، علي بن الحسين بن أبي جامع ألعاملي، ج٢، ط١، ص١٧٣.

٦٤) الأماكن المقدسة) في العالم www.topsarabia.Com

(٦٥) المفيد لزيارات العتبات المقدسة، محمد بن الشيخ علي العصفور، ط١، ص ١٥-١٦.

(٦٦) سورة الفتح، آية ٢٤.

(٦٧) سورة آل عمران، آية ٩٦.

(٦٨) سورة الشورى:٧.

(٦٩) سورة البقرة: ١٢٦.

العزيز وبقى المشهور منها والمعروف هو (مكة)، وأن أول من نصب حدود الحرم إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل كما ورد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٧٠]، ومن الأحداث المهمة التي شهدها البيت العتيق هي ولادة الامام علي عليه السلام في داخل الكعبة قبل الإسلام في الثالث عشر من شهر رجب[٧١].

والكعبة المشرفة هي مبنى ذو شكل جميل مكعب تقريبا بارتفاع ١٥ متر، وأضلاعها ١٢ متر و١٠ متر، للكعبة منفذ واحد يفتح ثلاث مرات سنويا لغسل داخلها بماء زمزم وفي الداخل الغرفة فارغة والسقف محاطة بالرخام في زاوية نجد سلما ضيقة تسمح بالصعود للأعلى إذ يصعد فيه مرة في السنة لتبديل كسوة الكعبة[٧٢].

ثانياً: بيت المقدس:

ويعد ثاني بيت لله بعد المسجد الحرام في مكة، وقد جاء في السنة المطهرة تقديس بيت المقدس مع المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي الشريف في المدينة، فقال صلى الله عليه وآله: (لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)[٧٣]، وقد ورد في فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس الشريف، بأن القدس مقدس في السماء بمقداره في الأرض، وبيت المقدس بلد محفوظ وهي أرض المحشر والمنشر، ونزول القرآن في بيت المقدس، وصلى النبي صلى الله عليه وآله في بيت المقدس[٧٤]، وجاء في قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

(٧٠) سورة البقرة، آية ١٢٧.
(٧١) جامع الزيارات، هيئة محمد الأمين، ص٣.
(٧٢) المفيد لزيارات العتبات المقدسة، محمد بن الشيخ علي عصفور، ط١، ص٢٠.
(٧٣) القدس الإسلامية، رفيق شاكر التنشئة، ط١، ص٤٧-٥٣.
(٧٤) فضائل بيت المقدس، محمود إبراهيم، ط١، ص٥١١.

بِعَبْدِه لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٧٥]، يعني من مسجد مكة إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس وقيل له الأقصى لبعد المسافة بين المسجدين[٧٦].

صلاة النبي في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج

قال النبي ﷺ: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال ثم دخلت المسجد فصليتُ فيه ركعتين»[٧٧]، وذكر أن من دخل بيت المقدس من الأنبياء هو نوح عليه السلام، إذ إن سفينة نوح طافت بيت المقدس واستوت على الجودي، وإبراهيم الخليل عليه السلام أيضاً، إذ يقول الله لإبراهيم عليه السلام: «ياإبراهيم قال: لبيك قال: خذ الآن رجالك وأفضِ إلى أرض المرايا وأصعد هناك على أحد الجبال الذي عرفك، وقوله على أحد الجبال يريد الصخرة»[٧٨]، وقد أسس بيت المقدس سام بن نوح ثم بناه داوود وسليمان عليهما السلام على ذلك الأساس[٧٩].

(٧٥) سورة الإسراء، آية ١.
(٧٦) فضائل القدس، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط١، ص٨٤
(٧٧) بيت المقدس في الحديث النبوي الشريف، سعيد بن عبد الرحمن القز قي، ط١، ص٩٣.
(٧٨) الروض المقدس في فضائل بيت المقدس، أبي النصر تاج الدين عبد الرحمن الحسيني الشافعي، ط١، ص٢٢١.
(٧٩) فضائل بيت المقدس، أبي المعالي المشرف المدجى بن إبراهيم المقدسي، ط١، ص١٧.

الخلاصة

بتوفيق الله وحمده أتممت مباحث هذا البحث المتواضع الذي أرجو من ورائه رضا الله خاصة وأنا أتناول بين طياته ما قُدِسَ وهي الذات الالهية الموجدة لهذا الكون،والدستور وهو كتاب الله في الأرض والوسيلة وهم الأنبياء والرسل والملائكة عليهم السلام، والأرض المقدسة والتي أعلى الله تعالى شأنها في كتابه وهي مكة وبيت المقدس، وجمع النصوص وتوثيقها بخصوص ما قدّسَ وطهَر، سواء ما ذُكِر منها في كتاب الله تعالى أم ما ذكر في كتب المفسرين ورجال العلم والدين، إذ لا بد لكل إنسان من مبدأ وهدف يسعى إلى تحقيقه ورضا الخالق هو غاية ما يسعى له كل إنسان مؤمن عن طريق التمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وهو هذا الدين القيم الذي ارتكز من دون عوج أو أمت وسنة نبيه محمد وآل بيته الأطهار وخالص دعوانا أن الحمد لله ربِ العالمين والصلاة والسلام على خير مبعوث دعا إلى خير معبود وعلى آله الأخيار.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- أمالي الصدوق، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٩م.

٢- الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ط١، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.

٣- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، للأمام أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، ط٢، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٤- البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني، مج ٨، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩م.

٥- فضائل بيت المقدس في الحديث النبوي الشريف، للدكتور محمود إبراهيم،ط١، المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة، ١٤٠٦هـ -١٩٨٥م.

٦- تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر أسماعيل الفارابي، ط١، بيروت - لبنان.

٧- ترتيب جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسني الأزدي،ط١، ترتيب وتصحيح: عادل عبد الرحمان ألبدري، ١٤٢٨ق.م.

٨- تفسير السمعاني، لأبي مظفر منصور بن محمد، ط١، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٩- تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت،١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٠- تفسير القاسمي، محمد جمال الدين ألقاسمي، ط١، مج٤، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م.

١١- التفسير المظهري، محمد ثناء الله العثماني، ط١، مج٤، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٢- التيسير في تفسير القرآن، ناصر ماجد الزبيدي، ط١، دار المحجة البيضاء، ١٤٢٨م.

١٣- جامع الزيارات، هيئة محمد الأمين، الثقافة الحسينية (مكتبة الأمين).

١٤- الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، السيد عبد الله شبر، ط١، ج٦، مراجعة وتعليق: أسامة الساعدي.

١٥- حاشية الصاوي،أحمد بن محمد الصاوي، ط٤، مج٢، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

١٦- حاشية القونوي، للأمام البيضاوي،ط١، مج١٠، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

١٧- الروض المقدس في فضائل بيت المقدس، للأمام تاج الدين عبد الوهاب الحسيني الشافعي، دار جرير للنشر والتوزيع، ١٤٣٠-٢٠٠٩م.

١٨- عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، جعفر السبحاتي، ط٢، مكتبة التوحيد للتوزيع والنشر، ١٤٢٠هـ.

١٩- علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية - بيروت. لبنان، ٢٠١٣.

٢٠- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط٢، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

٢١- فضائل القدس، الأمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان، ١٩٧٩م.

٢٢- فضائل بيت المقدس، للإمام أبي المعالي المشرف بن المرجى المقدسي،ط١، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٣- القدس الإسلامية، رفيق شاكر التنشه، ط١، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٢٤- الكافي، محمد خليل الباشا، ط٤، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٩م.

٢٥- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، طبعة جديدة ومصححة، دار أحياء التراث العربي بيروت- لبنان.

٢٦- الكشف والبيان في تفسير القرآن، لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، ط١، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٢٧- مصطلحات التصوف الإسلامي، للدكتور رفيق العجم، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي).

٢٨- المفيد لزيارات العتبات المقدسة، محمد بن الشيخ علي العصفور، ط١، لجنة التحقيق والبحث العلمي بدار الوفاء.

٢٩- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات، دار الدعوة للنشر، ٢٠١٠م.

٣٠- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارسبن زكريا، دار أحياء التراث العربي (طبعة جديدة ومصححة وملونة).

٣١- موسوعة مصطلحات الأشعري، للقاضي عبد الجبار سميح دغيم.

٣٢- موسوعة مصطلحات الأمام الغزالي، للدكتور رفيق العجم.

٣٣- موسوعة مصطلحات صدر الدين الشيرازي، للدكتور رفيق العجم

٣٤- الواضح في التفسير، للسيد عباس علي الموسوي، ط١، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع،١٤٣٣هـ -٢٠١٢.

٣٥- الوجيز في تفسير القرآن العزيز، للشيخ علي عبد الحسين بن أبي جامع ألعاملي، ط١.

الانترنت:

الأماكن المقدسة في العالم www.topsarabia. Com

٨

المرض والصحة في القرآن الكريم

د. محمد جواد اسكندرلو
استاذ مشارك وعضو الهيئة العلمية/جامعة المصطفى العالمية

الخلاصة:

اهتم القرآن الكريم بشكل خاص بسلامة الجسم والروح، وتناول موضوع (المرض) وطرق علاجه بصور مختلفة وذلك من خلال آيات عديدة، وقد خضع هذا الموضوع المهم لأبحاث علماء الإسلام ومفكريهم ومحقيقيهم وتحقيقاتهم.

خصصت دائرة معارف القرآن لايدن مدخلاً تحت عنوان (المرض والصحة). ففي هذا المدخل قسم (نصر حامد أبو زيد) امراض الإنسان من وجهة نظر القرآن إلى نوعين اساسين:

الامراض البدنية، والأمراض الأخلاقية، وذكر أن مفردة (مرض) أو (مريض) غالباً ما تستعمل في القرآن الكريم بخصوص الامراض الاخلاقية، مثل (الكفر)، و(النفاق)، و(عمى القلب) وقد تطرقت هذه المقالة في البدء إلى ترجمة كاملة للمدخل ثم استعرضت أهم نقاطه وأوضحتها.

* الكلمات الرئيسة:
القرآن، المرض، المريض، الشفاء، القلب، الكفر، النفاق.

مقدمة

منذ أن أودع الله الروح في جسد آدم، وقرنها بفطرة التوحيد ارسى في وجوده توجهاً نحو الفضائل والاستقامة.

وفي ذلك قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، فأعطى الإنسان الضمير اليقظ ليتحرر من أسر قيود الشهوات والرذائل وليصل إلى مقام قد منع منه حتى الملائكة المقربين ولم يكن لهم إليه سبيل، لكن في هذا الطريق هناك الكثير من الناس قد ارتطموا بمغالق الطريق بسبب اختيارهم لسلوك خارج عن الفطرة وبإتباعهم لرغبات النفس وترجيحها على عبودية الله جل وعلا، وبهذا السلوك يهبط الإنسان أحياناً الى دون مرتبة الحيوان أو بعبارة أخرى: إن النفس الطاهرة والقلب السليم الذي اعطاهما الله للإنسان يتدنسا بمختلف الامراض الروحية والأخلاقية.

إن بناء الذات والسمو المعنوي في سبيل إزالة الضعف والأمراض الاخلاقية هو اكبر رأس مال للفرد والمجتمع للوصول إلى التكامل والرفعة، وأي كلام اصدق وأوضح من كلام الله في تبيين مسير بناء الذات وهو خالق هذا الموجود الترابي الفطري الطبع؟

إن نفس الإنسان وقلبه إذا لم تُنقَ من الشرور ليس لها أبداً قابلية فهم العلوم الإلهية، ولا تتمكن من كسب مكارم الأخلاق؛ لأنَّ القلب الملوث لا يكون مركزاً لنور الله، إذاً لابد أولاً من معرفة القلب ونعالج أمراضه ومن ثم نلزمه في العمل الصالح ليكون محل تجلي نور الله وتفتح ابواب القلب لهبوط ملائكة الله المقربين.

(١)الشمس: ٧ – ٨.

المرض والصحة:

عبر القرآن عن اوضاع الإنسان المتعلقة بالسلامة البدنية وعدمها باستعماله مفردة (مرض)، وذلك لإيصال المعنى الظاهري للمرض الجسماني إلى الذهن، وقد استعمل أحياناً هذا اللفظ في بعض المواضع بمعنى استعاري، فقد ورد في معناه الظاهري لمرة واحدة بصيغة فعل (مرض)، مع ضمير الشخص الأول على لسان ابراهيم عليه السلام في مقام فاعل الفعل، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٢]. وقد لفتت هذه الآيات انتباه مفسري القرآن؛ لان المعنى الظاهري لها يتضاد مع تعاليم القدرة المطلقة لله سبحانه، فعلى الرغم من أن القرآن ينسب جميع الأفعال سيئها وحسنها الى إرادة الله سبحانه لكن مفسري القرآن يحتاطون في نسب افعال غير سوية كالمرض إلى الله فضلا عن شكل الفعل الذي ذكرناه، فقد ورد بصيغة فعيل (مريض) خمس مرات في القرآن الكريم. وذلك في السور التالية (البقرة: ١٨٤، و١٨٥، و١٩٦، النور: ٦١، الفتح: ١٧) وكذلك جمعها (مرضى) وردت في سور (النساء: ٤٣ و١٠٢، المائدة: ٦، التوبة: ٩١، المزمل: ٢٠).

وجاء التأكيد في الاحكام القرآنية بأن الأشخاص المرضى معذورون عن أداء بعض الواجبات الدينية التي يؤدونها في غير حالة المرض. إن القرآن الكريم يؤكد في خطاباته على الامراض الاخلاقية أكثر مما يؤكد على الامراض الجسمية.

وورد مصدر (مرض) ١٣ مرة في القرآن وأرجعه إلى الكفر، والنفاق، وجاء في صورة مرض موجود في قلوب الكفار والمنافقين،

(٢) الشعراء: ٨٠.

والحال أن مرض الكفر قابل للعلاج، والنفاق غير قابل للعلاج؛ لان المنافقين يتظاهرون بالإسلام ويضمرون في قلوبهم الكفر، عدّ القرآن مرض المنافقين من الامراض التي لا يمكن علاجها، وأضاف بأن الله سيعذبهم من بعد موتهم اشد العذاب بسبب اعمالهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٣].

مع ان القرآن الكريم عبر عن نفسه في اغلب المواضع بأنه شفاء لأمراض القلوب: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٥]. في الحقيقة أن استعارة كلمة (مرض) من أهم العناصر في خارطة معاني النفاق[٦].

ومن الامراض التي تصيب القلب العمى، إذ وصفهم - الذين لا يؤمنون- في استعارة أخرى بشكل حي تصور هذا المرض يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[٧].

بناء على تأكيد القرآن على الامراض الأخلاقية فقد اهتم متكلمو الاسلام وفقهاؤهم بموضوع نية الإنسان، فقد ابتدأ البخاري صحيحه في هذا الحديث النبوي، الذي ورد في جميع كتب الحديث: «إنما الأعمال بالنيات»[٨].

لقد عرّف بعض المتكلمين (الأفعال) بالإيمان وعرّف بعضهم الايمان بأنه التصديق القلبي[٩].

(٣) البقرة: ١٠.
(٤) يونس: ٥٧.
(٥) التوبة: ١٢٥.
(٦) oncepts) jzutsu) ،182
(٧)فصلت: ٤٤
(٨) البخاري١: ٤.
(٩)انظـر، الاشعري، المقالات، ٢٢٤/١– ٢٣٥.

وللصوفية أدب واسع حول المقام الإلهي للقلب بلحاظ معنوي للإنسان السليم، وعبروا عنه بأنه عرش الله في داخل الإنسان[١٠]. فقد خصص بعضهم قسما في شرح عجائب القلب وكيفية تهذيبه وتصفيته بشكل يتسنى له من بعد ذلك تلقي المعرفة الربانية مباشرة من الله.

دراسة وتحليل:

١- المراد بالأحوال المتعلقة بسلامة الجسم وعدم سلامته، هي التي تكون موضوعا لعلم الطب. فبعض العلماء كالشيخ المفيد في تصحيح الاعتقاد[١١]، والعلامة المجلسي في بحار الأنوار[١٢]، يعتقدون بان هذا العلم له نشأة إلهية وانه مستند إلى الوحي ويبدو أن الاحتياجات الضرورية للإنسان الأول في مجال الطب قد امنت عن طريق الوحي.

و تاريخ الطب يرتبط بتاريخ خلق الإنسان؛ لان الالم والمرض ما كانا منفصلين عن الإنسان، فمنذ زمن جالينوس (٢٠١م) وسقراط (٢٧٧م) وافلاطون (٤٢٨م) كُتب هذا العلم بشكل منظم، وقد نضج وتطور بظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية. لاشك أن هدف نزول القرآن، هو تربية الإنسان معنوياً وهدايته نحو السعادة والكمال، لذا على هذا الأساس نزلت اغلب مواضيع القرآن.

إن القرآن الكريم ليس بكتاب علوم لكي نستخرج منه جميع جزئيات العلوم، وللإنسان أن يتوصل إلى مختلف العلوم من بينها علم الطب عن طريق العقل والتجربة، ومع ذلك فقد أشار القرآن

(١٠) ابن العربي، التدبيرات، ١٢٠- ١٣٢.
(١١) تصحيح الاعتقاد، ١٤٤.
(١٢) بحار الأنوار ٦٢/ ٧٥.

إلى بعض المسائل العلمية بهدف معرفة الله، وإيجاد حس البحث العلمي لدى الإنسان وتحفيزه لطلب العلم[١٣].

٢- يقول سبحانه في هذا المجال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[١٤]. من بعد تبيينه لأول مرحلة الربوبية، أي بعد الخلق، يتطرق ابراهيم عليه السلام إلى تلك النعم المادية فيقول: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[١٥]، نعم كل النعم أراها منه، فجلدي ولحمي، وشرابي وطعامي كل ذلك من بركاته.

ليس من نعمه صحتي وسلامتي فقط، بل ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[١٦]، مع أن المرض أحياناً يكون من عند الله، لكن مراعاة لأدب الحوار فقد نسب ذلك لنفسه[١٧].

٣- الجدير بالذكر أن منشأ الكثير من الامراض والابتلاءات هي افعال الإنسان الاختيارية، وهذه الأفعال هي إحدى المواضيع التي دار البحث حولها بين الأشاعرة والعدلية، بأن الأفعال الارادية للإنسان ينجزها بإرادته أم خارج إرادته؟

فقال أبو الحسن الاشعري: (إنّ مقتضى التوحيد أن يكون كل ما في عالم الوجود مظهرٌ له، ومن ذلك افعال الإنسان الارادية (بحسب الظاهر) والتي تنجز بإرادة الحق مباشرة، وإلا لوجب الشرك في ربوبيته، ولكان هناك شريك فيها غير الله. والحال أنه (لا مؤثر في الوجود إلا الله) واستدل بخمس وعشرين آية في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٨]، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[١٩].

(١٣) محمد علي رضائي اصفهاني: مدخل على التفسير العلمي للقرآن، ١٧٧.
(١٤) الشعراء: ٨٠.
(١٥)الشعراء: ٧٩.
(١٦) الشعراء: ٨٠.
(١٧) مكارم الشيرازي تفسير نمونه (الامثل) ١٥/ ٢٥٧.
(١٨) الصافات:٩٦.
(١٩) الحديد: ٢٢.

وفي نقد كلام الاشعري نقول: لا شك أن لإرادة الإنسان دورا في اداء الأفعال الاختيارية، ولذلك تنسب افعاله إليه، وان الاثر الحسن والسيء متعلق بأفعاله. وهذا الأمر يفهمه كل من يرجع إلى وجدانه بان الإنسان حر في عمل الخير والشر، إذا شاء عمل وإذا لم يشاء لم يعمل[٢٠].

وكذلك فإن موضوع سلامة الإنسان ومرضه في كثير من الموارد يعود ويرتبط بإرادته وافعاله الارادية من قبيل مراعاة النظام الغذائي الصحيح، والرياضة، والسفر والتجوال، الاعتدال في العمل والراحة، ومن الطبيعي إذا لم يراعَ الإنسان هذه الأمور سيتعرض إلى الامراض.

٤- قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ..﴾[٢٢]، وقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى

(٢٠) محمد هادي معرفت، التمهيد في علوم القرآن ٣: ١٦١ – ١٩٩.
(٢١) البقرة: ١٨٤– ١٨٥.
(٢٢) البقرة: ١٩٦.

حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾[٢٣].

٥- قال تعالى: ﴿.. وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾[٢٤]. ﴿كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ...﴾[٢٥]، ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ...﴾[٢٦]، وقوله ﴿...عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى...﴾[٢٧].

٦- ومثال على ذلك لنا أن نستشهد بالاية (٩١) من سورة التوبة في هذا المجال، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. أي إذا لم يكن هؤلاء قادرين على انجاز أعمال بأيديهم، يمكن أن ينصحوا بألسنتهم وهذا تعبير لطيف يشير إلى أن كل شخص يجب أن يقدم ما بوسعه، أو بتعبير آخر: إذا لم يستطع المشاركة في ساحات القتال فعلى الأقل يعملوا على دعمها بشكل فاعل[٢٨]. فإن المريض يعفى من واجباته في صورة عدم وجود بديل عن واجباته.

٧- إن روح الإنسان كجسمه من الممكن أن تبتلى بأمراض مختلفة بسبب عقائد واخلاق فاسدة، أو بسبب افعال شاذة، إذاً يجب إيجاد طريق يحول دون اصابتها بمرض وعدم تسرب الامراض إليها، وفي حال اصابتها بانحراف ومرض يبين كيفية علاجها.

والدليل على صحة نظرية آيات القرآن فقد ذكرت الانحرافات الروحية والاخلاقية في ١٢ مورد بعنوانها مرض منها: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾[٢٩]. وفي الآية ٣٢ من سورة الأحزاب،

(٢٣) النور: ٦١ و(الفتح: ٧١).
(٢٤) النساء: ٤٣ و١٠٢.
(٢٥) مائدة: ٦.
(٢٦) توبة: ٩١.
(٢٧) مزمّل: ٢٠.
(٢٨) ناصر مكارم الشيرازي تفسير نمونه، ٢٢: ٦٣
(٢٩) البقرة: ١٠.

ذكرت عباد الشهوات بأنهم مرضى القلوب، وخاطبت نساء النبي صلى الله عليه وآله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[٣٠]. واشارت الروايات إلى هذه المسألة بكثرة:

قال الإمام علي عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ»[٣١].

وكذلك قد عبر عن رذائل الاخلاق بـ(الداء) بمعنى المرضى، كما في الخطبة (١٧٦) حول القرآن في نهج البلاغة فقال عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَالْكُفْرُ وَالنِفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالِ»[٣٢].

إن في دفع امراض القلب يكون أحياناً حفظ النفس، كما في اجتناب صاحب السوء والمجتمع الملوث، والامور المثيرة للفساد، والاستفادة من علاجات كالتوبة، وذكر الله، والصلاة والصيام، ومحاسبة النفس والمراقبة[٣٣].

٨- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٣٤]. تبين هذه الآية بوضوح، أن تكرار الذنوب وزيادة الشر النفسي والاخلاقي يوجب مرض الكفر.

٩- قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣٦]. قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا

(٣٠) الاحزاب: ٣٢.
(٣١) نهج البلاغة، قصار الكلمات الكلمة: ٣٨٨
(٣٢) نهج البلاغة (للصبحي صالح)، ص: ٢٥٢.
(٣٣) مكارم الشيرازي، الاخلاق في القرآن: ١٢٤ – ١٢٨.
(٣٤) التوبة: ١٢٥.
(٣٥) الانفال: ٤٩.
(٣٦) الأحزاب: ١٢.

إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣٧]. في الآيات الثلاثة هذه اضاف الله عبارة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من بعد ذكر مفردة المنافقون، وهذا يبين أن (النفاق) في نظر الله وفي ثقافة القرآن يمثل اكبر الامراض الاخلاقية والعقائدية.

١٠- مفردة (قلوب) جمع تكسير (قلب) والقلب في اللغة يقال لخالص كل شيء، وكذلك قلب الإنسان هو اخلص شيء بعد وجوده[٣٨]. واستعملت مفردة القلب بمعنى صناعة الشيء أيضاً، ولها استعمالات أخرى أيضاً منها: (النفس)[٣٩]، بالطبع أن القلب في الطب له معنى آخر وهو العضو صنوبري الشكل الذي يقع في يسار القفص الصدري وقد استعملت هذه المفردة في آيات متعددة، ويفهم منها أن بعض الصفات والخصوصيات الادراكية للنفس والروح الإنسانية التي تصدر منه وتنسب إلى القلب: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٤٠].

نتيجة ذلك: إن القلب في الاصطلاح القرآني هو النفس والروح، ويطلق على نحو الحقيقة ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[٤١]، وكذلك في احاديث المعصومين عليهم السلام، فإن (القلب) هو محل تغير مختلف الحالات التي تحدث بداخل الإنسان، وتقربه وتبعده من الله تعالى، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِعْرَابُ الْقُلُوبِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ: رَفْعٍ، وَفَتْحٍ، وَخَفْضٍ، وَوَقْفٍ، فَرَفْعُ الْقَلْبِ فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، وَفَتْحُ الْقَلْبِ فِي الرِّضَا عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَخَفْضُ الْقَلْبِ فِي الِاشْتِغَالِ بِغَيْرِ اللهِ، وَوَقْفُ الْقَلْبِ فِي الْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى

(٣٧) الأحزاب: ٦٠.
(٣٨) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٥: ١٧
(٣٩) تاج العروس، الصحاح والمفردات.
(٤٠) البقرة: ٢٢٥.
(٤١) الأحزاب: ١٠.

أَ لَا تَرَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا ذَكَرَ اللهَ بِالتَّعْظِيمِ خَالِصاً ارْتَفَعَ كُلُّ حِجَابٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، وَإِذَا انْقَادَ الْقَلْبُ لِمَوْرِدِ قَضَاءِ اللهِ تَعَالَى بِشَرْطِ الرِّضَا عَنْهُ كَيْفَ يَنْفَتِحُ بِالسُّرُورِ وَالرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ، وَإِذَا اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا كَيْفَ تَجِدُهُ إِذَا ذَكَرَ اللهَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَابَ مُنْخَفِضاً مُظْلِماً كَبَيْتٍ خَرَابٍ خَلَوٍ لَيْسَ فِيهَا عُمْرَانٌ وَلَا مُونِسٌ، وَإِذَا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى كَيْفَ تَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَوْقُوفاً مَحْجُوباً قَدْ قَسَا وَأَظْلَمَ مُنْذُ فَارَقَ نُورَ التَّعْظِيمِ، فَعَلَامَةُ الرَّفْعِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ وُجُوهُ الْمُوَافَقَةِ وَفَقْدُ الْمُخَالَفَةِ وَدَوَامُ الشَّوْقِ، وَعَلَامَةُ الْفَتْحِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ التَّوَكُّلُ وَالصِّدْقُ وَالْيَقِينُ، وَعَلَامَةُ الْخَفْضِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ الْعُجْبُ وَالرِّيَاءُ وَالْحِرْصُ، وَعَلَامَةُ الْوَقْفِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ زَوَالُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ، وَعَدَمُ مَرَارَةِ الْمَعْصِيَةِ، وَالْتِبَاسُ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ»[٤٢].

(٤٢) المجلسي بحار الانوار ٦٧، كتاب الايمان والكفر، باب القلب وصلاحه وفساده، ح٢٥.

إن تلوث القلب واسوداده، وفقد المعرفة، مختص بقلوب الفاسقين والكفار، أما قلب المؤمن فهو دائماً منشرح ومضيء يتبين لنا من الرواية المتقدمة أن قلب الإنسان ونفسه محل مختلف الامراض الاخلاقية كالرياء والنفاق والعجب، والحرص، والجهل والفساد، ويبتلى القلب بالسواد، إلا إذا حرص الإنسان على تهذيب نفسه وطلب من الله التوفيق في ذلك. يقول الشهيد مطهري الذي عرف بتهذيب النفس والروح: إن الإنسان بلحاظ الجسم وعدد كريات الدم الحمر والبيض والفيتامينات وبلحاظ طبي يمكن أن يكون صحياً بشكل كامل لكنه بلحاظ روحي ونفسي مريض لذا فهذا النوع من الامراض لا تعالج عن طريق البدن.

١١- يقول تعالى في سورة البقرة حول المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٤٣]. يقول العلامة الطباطبائي في تعريف المنافق: (أن حالات المنافق هي اظهاره للإيمان ويشرك نفسه مع المؤمنين في بعض فوائد الدين، مثلاً في الارث والزواج، وعندما يصل وقت موته يطفيء الله نوره ويظهر عمله ويجعله في ظلمات المنافق شخص لا يحب الايمان لكنه مجبر على إظهار الايمان في المجتمع، وبسبب عدم الانسجام بين لسانه وقلبه فهو لا يجد طريقاً واضحاً، لذا تراه دائم التعثر والتحير ولأجل عمله هذا فإن الله يفضحه في الدنيا وله في الاخرة عذاب اليم)[٤٤].

١٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٥]، فهذه الآية تبين اربع مراحل من تربية الإنسان وتكامله وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانية: مرحلة تصفية روح الإنسان من جميع أنواع الرذائل الاخلاقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة هداية الإنسان من بعد تطهير الروح.

المرحلة الرابعة: مرحلة أن يكون الإنسان مستعداً لشموله بالرحمة الإلهية وكل مرحلة تتبع سابقتها، وكل هذه المراحل تنجز من خلال القرآن. القرآن الذي يعظ الإنسان، والقرآن الذي يزيل الذنوب والصفات السيئة من القلوب، والقرآن هو الذي يضيء القلوب بنور الهدى، وكذلك أن القرآن هو الذي ينزل

(٤٣) البقرة: ١٠.
(٤٤) الطباطبائي السيد محمد حسين، الميزان ١: ٥٤.
(٤٥) يونس: ٥٧.

النعم على الفرد والمجتمع[٤٦].

يقول الإمام علي موضحاً هذه الحقيقة: «....فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَالْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَال»[٤٧].

١٣- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤٨]. يفهم من هذا النوع من الآيات عدم كفاية وجود برنامج في الحياة لإسعاد فرد أو مجموعة بل يجب أن يكون هناك استعداد وارضية للفرد. إن آيات القرآن كالغيث الذي يهب الحياة للأرض. فهؤلاء المؤمنون ينظرون إلى الآيات بروح التسليم والايمان، ومن كل آية يتعلمون درساً جديداً يقوى به إيمانهم وتسموا صفاتهم الإنسانية لكن الذين ينظرون من خلال الكبر والنفاق إلى هذه الآيات فليسوا محرومين منها فقط بل ذلك يزيد في كفرهم وعنادهم[٤٩]. بتعبير آخر: في كثير من الآيات، تنسب مسألة (الاضلال) إلى الله مع أن الاضلال معناه إضلال عن الطريق وعمل ضد القيم، لذا يجب توخي الدقة في نسب مفهوم (الاضلال) إلى الله سبحانه، حتى يتضح أن استعمال هذه المفردة لها جانب مجازي واستعاري ليس أكثر، ولا يمكن استعمالها بمعناها الحقيقي بالنسبة لله تعالى[٥٠].

١٤- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[٥١]. نعم أن وجود النور وحده لا يكفي لمعرفة الطريق ولكي نجد الطريق فلابد من عين باصرة، كذلك وجود

(٤٦) راجع تفسير نمونه مكارم شيرازي ٨: ٣١٩.
(٤٧) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.
(٤٨) التوبة: ١٢٥.
(٤٩) ناصر مكارم شيرازي، تفسير نمونه ٨: ٢٠٠.
(٥٠) محمد هادي معرفت، علوم القرآن: ٣١٤.
(٥١) فصلت: ٤٤.

العالم الفصيح لا يكفي، بل لابد من إذن واعية.

١٥- إن مفاد الحديث النبوي الذي يقول: «إنما الأعمال بالنيات» هو حافز ودافع الهي واخلاص في العبادة. فالإخلاص روح العبادة بمعنى أن الإنسان لا يخالط عمله أي دافع ومحفز غير الدافع الإلهي، وهذه الروحية يجب أن تكون حاكمة على جميع اعمالنا وعباداتنا ومثال ذلك؛ ففي مناسك الحج يقول تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾[٥٢]. فالعبد المخلص يجب أن يرى جميع أركان حياته لله تعالى، والتي تشغل الصلاة ركناً منها، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥٣]. بالطبع أن الاخلاص له نحوان: نظري وعملي، فالنحو النظري منه يتمثل بنفي الشرك عن ذات الله، وهذا ما عبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ»[٥٤]. والنحو العملي للإخلاص يتجلى في عمل أمير المؤمنين عليه السلام وسلوكه، الذي يسيطر على غضبه في اصعب ظروف الحرب، وأشد حالات الغضب فيكظم غضبه ابتغاء رضا الله، وامتثالاً لأمر الله كما حدث غي نزاله مع عمرو بن عبد ود - الفارس اليهودي المعروف الذي تجاسر على شخص الإمام، وأفضل شاهد على اهمية الاخلاص وفوائده في النية والعمل حديث النبي صلى الله عليه وآله الذي يقول: «من اخلص لله اربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٥٥]. فعلى الإنسان

(٥٢) الحج: ٣١.
(٥٣) الانعام: ١٦٢.
(٥٤) نهج البلاغة، الخطبة الأولى: ٣٩.
(٥٥) بحار الانوار ٦٧: ٢٤٩.

أن يخلص في نيته فلا يسكن احداً قلبه سوى الله تعالى، ويثبت بأنه متدين بالدين لله وحده[٥٦].

١٦- إن الإنسان أحياناً - فضلا عن اقراره بلسانه - يعتقد قلباً ويتمتع ايمانه بعلم، لكن لا يعمل بما يعلم ويعتقد، وهذه الحالة ناشئة من تكاسله، وطلب الراحة والمنفعة ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[٥٧]، يقول الإمام الصادق عليه السلام قَالَ: «تَرْكُ الْعَمَلِ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ الصَّلَاةَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ وَلَا شُغْلٍ قَالَ قُلْتُ لَهُ الْكَبَائِرُ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ قَالَ فَقَالَ نَعَمْ قُلْتُ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ قَالَ إِذَا تَرَكَ الصَّلَاةَ تَرْكاً لَيْسَ مِنْ أَمْرِهِ كَانَ دَاخِلًا فِي وَاحِدَةٍ مِنَ السَّبْعَةِ»[٥٨]، وعليه لا يمكن اعتبار الايمان موضوع متعلق بالقلب، بل الايمان الكامل والحقيقي ما اختلط بالعمل الصالح.

١٧- في الحقيقة أن القلب الذي يعد عرش الله هو القلب السليم الخالي من أي نوع من الدنس والشر، طاهر ورؤف وسالم وخاضع أمام الحق، وهو ذلك القلب الذي وصف في الروايات (بحرم الله) إذ نقرأ في حديث للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «الْقَلْبُ حَرَمُ اللهِ فَلَا تُسْكِنْ حَرَمَ اللهِ غَيْرَ اللهِ»[٥٩]. وهو ذلك القلب الذي يستطيع رؤية حقائق الغيب، وينظر في الملكوت الأعلى، فكما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى الْمَلَكُوتِ»[٦٠]. فإن القلب أعظم رأس مال وواسطة للنجاة يوم الحساب وهو القلب السليم. وهو ذلك القلب الذي هاجر فيه ابراهيم عليه السلام إلى ربه وحمل أمر الرسالة.

(٥٦) راجع، محمد جواد اسكندرلو، نگاهي قرآني به باكسازي روح، ٨٧ - ٩٠).

(٥٧) المائدة: ٥.

(٥٨) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل؛ ج ٣؛ ص٤٦.

(٥٩) البحار ٧٠: ٢٥، باب حب الله، الحديث ٢٧.

(٦٠) البحار ٥٩، باب القلب وصلاحه، الحديث ٣٩.

١٨- طرق تزكية النفس وتهذيب القلب والروح والوصول إلى المعارف الربوبية في مراعاة التقوى الكاملة ومن جميع الجهات، فإن التقوى تزيد في بصيرة الإنسان وفهمه الحقائق، وكما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٦١). لذلك ترى المتقين وأصحاب القلوب الطاهرة يدركون مسائلاً لا تدركها الحواس الظاهرة؛ لان المتقي قد مزق حجب الظلمة فصارت كل اسرار العالم في إمكان مشاهدته، فمن الطبيعي أن الإنسان الذي يحمل بداخله عقبات كالكبر والغرور والحسد والإفراط في الشهوة وحب الاهل والاولاد والثروة هو متلوث بها، فلا يمكنه أن يميز بين الحق والباطل، فلو ازال تلك القيود وسلك طريق التقوى لصفى قلبه وطهر وتمكن من رؤية الحق(٦٢).

(٦١) الانفال: ٢٩.
(٦٢) تفسير نمونه ١٧: ١٤١.

استنتاج:

قدم كاتب مدخل (المرض والصحة) في دائرة معارف القرآن لايدن، رؤية جيدة حول نظرة القرآن في مسألة المرض والصحة، وقسم امراض الإنسان إلى قسمين أساسين: الامراض الجسمية والاخلاقية، وذكر أمثلة للقسم الثاني، وهي الكفر والنفاق وعمى القلب والصمم؛ لكن بحثه كان مختصراً جداً، وفي بعض المواضع يستشف منه حالة الإجبار، لذا ناقد هذه المقالة قدم شرحاً لها مستدلاً بالكتاب والسنة في صورة هوامش وهي كما يلي:

١- بما أن الله قد خلق الإنسان مختاراً، فإن الصحة والمرض

في كثير من المواطن متعلقة بأفعال الإنسان الارادية ولها دور مؤثر في تجنب الامراض أو السيطرة عليها.

٢- إن روح الإنسان كجسمه، ممكن أن تصاب بمختلف الأمراض بسبب بعض العقائد الفاسدة أو الاخلاق المنحرفة، مثل الكفر والنفاق والعجب والرياء والحرص و.... لذلك يجب البحث عن تلك الامراض بشكل دقيق ومعرفة علاجها عن طريق كتاب الله القرآن.

٣- إن القلب في الاصطلاح القرآني هو روح الإنسان ونفسه، ويطلق على حقيقته الكاملة فمتى ما غفل القلب عن ذكر الله حجب ولا يدخل إلى حرم الله وفقد نور الله وعظمته، وابتلي بظلمات الجهل والفساد والأمراض الاخلاقية.

٤- مراحل التربية في القرآن هي: الموعظة والنصيحة، تطهير الروح من الرذائل الاخلاقية مرحلة الهداية شموله بالرحمة والنعمة الإلهية.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

٢- نهج البلاغة، مؤسسة النشر إسلامي، قم، ١٤١٧ هـ‍ق.

٣- ابن فارس، زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢.

٤- اسكندرلو، محمد جواد، نگاهي قرآني به باكسازي روح، كانون انديشه جوان، تهران، ١٣٨٦.

٥- خندق آبادي، حسين وديكران، دائرة المعارف القرآن، انتشارات حكمت، طهران، ١٣٩٢ش.

٦- رضايي اصفهاني، محمد علي، در آمدي بر تفسير علمي قرآن، انتشارات اسوه، قم، ١٣٦٥.

٧- طباطبايي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٧هـ‍ق.

٨- مجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤.

٩- معرفت، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٥ هـ‍ق.

١٠- معرفت، علوم قرآني، مؤسسة فرهنكي انتشاراتي التمهيد، قم، ١٣٧٨.

١١- مطهري، مرتضى، إنسان كامل، انتشارات التمهيد، قم، ١٣٧٨.

١٢- مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونه، انتشارات مدرسة امام أمير المؤمنين عليه السلام، قم، ١٣٦٢.

١٣-مكارم شيرازي، اخلاق در قرآن، انتشارات مدرسة إمام أمير المؤمنين عليه السلام: ١٣٧٧.

١٤- النوري، مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ

١٥- Nasy Hamid Abu zayd, Illness and Health, Encyclopaedia of .GURAN,VOL.2, lelden: Brill, 2002.

٩

منهجيّة القرآن في معالجة الطلاق

وأثرها على استقرار الأسرة والمجتمع

السيد بدري عباس الأعرجي

الملخّص:

لقد تضمن البحث مقدمة وأربعة مباحث رئيسة وخاتمة، المبحث الأول يتعلق بترغيب القرآن والعترة الطاهرة في تزويج الرجال والنساء؛ لبناء الأسرة، التي هي حجر الزاوية في بناء المجتمع.

والمبحث الثاني تضمن أسباب الطلاق ونتائجه على الأزواج والأبناء والأسرة والمجتمع.

أما المبحث الثالث فقد تضمن معالجات القرآن لأسباب الطلاق، ونتائجه المدمّرة للأسرة والمجتمع وبشكل متسلسل وحسب تدرجها في القرآن.

والمبحث الرابع تضمن تأثير تلك المعالجات على استقرار الحياة الزوجية وثَمّ استقرار الأسرة وسعادتها والذي يؤدي إلى استقرار المجتمع وسلامته.

وبعدها خاتمة البحث تضمنت خلاصة ما تم تقديمه في طياته والتوصيات النهائية للعمل على تطبيقه في المجتمع، ومن ثم الفهرسة والمصادر.

مقدمة

الطلاق تشريع إسلامي ذكر في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه. وفي الوقت ذاته أكد القرآن والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام على التزويج؛ لغرض بناء الأسرة على أساس متين؛ لأنها حجر الزاوية في بناء المجتمع السليم، الذي يتكون من مجموع الأسر.

وكما أن الزواج ضروري للإنسان فكذلك الطلاق تحت شروط معينة يكون ضرورياً أيضا. لذلك نجد القرآن وروايات أهل البيت تبيح الطلاق خلافا للمسيحية التي لا تبيح الزواج بإمرأة ثانية ولكن بما أن الطلاق يؤدي إلى تشتيت الأسرة وبالتالي إلى تفكيك المجتمع فقد وضعت شروطاً صارمةً ومتنوعة للحيلولة دون وقوعه قدر المستطاع وكما سنرى إن شاء الله تعالى في سياق هذا البحث.

إن الإسلام شرّع الطلاق في حالة استمرار الخلافات الزوجية بحيث لا يمكن حلها وبالتالي تؤدي إلى مفاسد خطيرة في المجتمع لذا فالطلاق يعالج هذه المفاسد بينما المجتمعات المسيحية ـ التي منعت الطلاق ـ تعيش مشاكل حقيقية متعددة بسبب ذلك، فغالباً ما يؤدي انفصال الزوجين المختلفين إلى اتخاذ زوج آخر غير رسمي وتنشأ بينهما علاقات غير مشروعة، ولذلك فإن أصل الطلاق لا يمكن إلغائه؛ لأنه من الضروريات المهمة. ولكن يجب أن لا يقع إلا في الحالات التي يتعذر فيها مواصلة العلاقة الزوجية والحياة المشتركة.

إن الشروط التي وضعها القرآن للطلاق والتي ذكرتها المصادر الفقهية المختصة تعدّ عوامل مهمة في تفادي وقوع الطلاق وازدياد نسبته في المجتمع وكذلك الحد من التصرفات الهوجاء والمتعنتة لبعض الأزواج من كلا الجنسين، وتعدّ هذه الشروط دوافعا لإصلاح الوضع العائلي وإصلاح الحياة الزوجية ومن ثم إصلاح المجتمع.

ولونظرنا إلى إحصائيات عدد حالات الطلاق في المحاكم المختصة والتي تبين خطورة هذه الظاهرة على المجتمع في حالة استمرار تزايد نسبتها وتؤدي بالتالي إلى تفكيك عرى المجتمع (ففي عام ٢٠١٦م فقط سجلت ٥٦ ألف حالة طلاق في عموم العراق وعدد الحالات المسجلة من عام ٢٠٠٣ م-٢٠١٦ م بلغت ٦٢٥ ألف حالة طلاق أي بمعدل ٤٩٠٠ حالة في الشهر الواحد)[1]، وهذه أرقام كبيرة جداً ومخيفة وتنذر بالخطر وتدعوا الجهات المختصة وبالتعاون مع الخيرين في المجتمع إلى معالجة هذه الظاهرة أوعلى الأقل تقليلها.

والجدير بالذكر أننا نجد ذما كثيراً للطلاق في الروايات الواردة عن النبيﷺ والأئمةعليهم السلام وقد ذكروا بأنه أبغض الحلال إلى الله.

فقد روي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِعليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: (تَزَوَّجُوا وَزَوِّجُوا أَلَا فَمَنْ حَظِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِنْفَاقُ قِيمَةِ أَيِّمَةٍ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيْتٍ يُعْمَرُ فِي الْإِسْلَامِ بِالنِّكَاحِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيْتٍ يُخْرَبُ فِي

(١) هذه الإحصائية مأخوذة من محاكم الأحوال الشخصية التابعة الى وزارة العدل والمنشورة على موقعها الإلكتروني.

الْإِسْلَام بِالْفُرْقَةِ يَعْنِي الطَّلَاقَ ثُمَّ قَالَ أَبُوعَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا وَكَّدَ فِي الطَّلَاقِ وَكَرَّرَ فِيهِ الْقَوْلَ مِنْ بُغْضِهِ الْفُرْقَةَ)[٢].

وعنه عليه السلام قال: (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش)[٣].

وكيف لا يكون كذلك والطلاق هوالسبب وراء مآسي عديدة تحل بالعوائل والرجال والنساء وأكثر منهم بالأطفال في حالة وجودهم بين الزوجين.

وتقسم هذه المشاكل على ثلاثة أنواع؛ مشاكل، عاطفية، واجتماعية، ومشاكل الأطفال.

وسنستعرض إن شاء الله في سياق هذا الموضوع المحاور المتعددة التي تتضمن دراسة موضوعية للأسباب والمعالجات نرجو أن ينتفع بها القارئ الكريم.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل المتواضع في ميزان أعمالنا جميعاً ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُون﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

(٢) الكافي، ج٥، ص ٣٢٩.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص٩.

المبحث الأول:
ترغيب القرآن الكريم
وروايات المعصومين عليهم السلام في التزويج

لقد حثّ القرآن الكريم وكذلك الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام على التزويج وبناء الأسرة الصالحة وتَمَّ بناء المجتمع السليم وفق ما يريده الله تعالى؛ لأن في الحث على التزويج استمراراً للنسل البشري وهذا من سنن الله تعالى في هذه الخليقة.

ولو لا التزويج لانقرض النسل البشري وتفككت المجتمعات ولم يكن للحياة البشرية وجود.

ولكن هذا التزويج اراده الله تعالى أن يكون مبنياً على أسس صحيحة وضعها الشارع المقدس؛ لكي يكون مقدمة لبناء أسرة إسلامية قائمة على أساس الكفاءة الدينية والفرعية لكلا الطرفين وبذلك تكون ضماناً لنجاح الزواج في المستقبل.

أما إذا بني الزواج على المصالح المادية والمعنوية والطبقية المتعلقة بالسمعة والجاه والثراء والشكليات الفارغة.

فإن مصير هذا الزواج هوأما الفرقة بالطلاق أوالعلاقات الأسرية المتشنجة والمتعثرة طيلة حياة الزوجين؛ لأنه سرعان ما تنكشف الحقائق بمرور الزمن، ويظهر كل منهما على حقيقته وتظهر دوافعه لهذا الزواج ويرى أنه خداع للآخر وهذا ما لا يريده الشارع المقدس.

أولاً: ترغيب القرآن في التزويج:

١- لقد رغب القرآن الكريم الآباء والأمهات وبقية أفراد المجتمع على السعي لتزويج من لا زوج له من كلا الجنسين، وأكد على أنّ الفقر ليس عائقاً في هذا الطريق؛ لأن الله تعالى وعد بأن يوسع على الفقير عند الزواج؛ لأنه تعالى واسع القدرة عظيم الفضل وعليم بأحوال الناس وما يصلحهم وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ واسِعٌ عَليمٌ﴾(النور: ٣٢).

٢- عدّ القرآن اقتران الرجل والمرأة بالزواج وبناء الأسرة المستقرة من الآيات الدالة على وجوده وتوحيده ومن النعم العظيمة التي مَّن بها على الناس؛ لأن الشكل إلى الشكل أميّل، وأن النساء خلقن من نطف الرجال ولكي يأنس الرجال بالنساء وبالعكس ويألف بعضهم بعضاً وجعل بينهما المودة والرحمة، وليس هناك شيء أحب لأحدهما من الآخر من دون رحم بينهما غالباً، وهذه هي الرحمة والشفقة فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الروم: ٤١).

٣- ذكر القرآن أن المصاهرة من أسس بناء المجتمع وبها يتم استمرار النسل البشري ومن الدلائل على قدرة الله وعلمه وسلطانه في هذه الخليقة، إذ خلق من النطفة أعجب الكائنات، وجعل بين أفراد المجتمع القرابة والتعاطف عن طريق المصاهرة والتوالد ومن قدرته أنَّه خلق من خلايا متشابهة ذكوراً وإناثاً فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَديراً﴾(الفرقان: ٣٠).

ثانياً: الحث على التزويج في روايات أهل البيت عليهم السلام:

لقد أكد المعصومون أهمية التزويج والمصاهرة على سلامة المجتمع الاسلامي؛ لأنها من أسس استقرار المجتمع والأسرة فقد تحدث النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عن هذا الموضوع في أحاديث كثيرة منها: عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (من أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح)[٤]. وعنه صلى الله عليه وآله قال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)[٥].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: (النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[٦]. وَقَالَ صلى الله عليه وآله: (تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَوبالسَّقْطِ)[٧]. وَقَالَ صلى الله عليه وآله: (خِيَارُ أُمَّتِي الْمُتَأَهِّلُونَ وَشِرَارُ أُمَّتِي الْعُزَّابُ)[٨].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: (زَوِّجُوا أَيَامَاكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُحْسِنُ لَهُمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَيُوَسِّعُ لَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ فِي مُرُوَّاتِهِمْ)[٩]. وَقَالَ صلى الله عليه وآله: (مَا بُنِيَ فِي الْإِسْلَامِ بِنَاءٌ أَحَبُّ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ التَّزْوِيجِ)[١٠]. وعَنِ النَّبِي صلى الله عليه وآله قَالَ: (شِرَارُ أُمَّتِي عُزَّابُهَا)[١١]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظن بربه)[١٢].

صفات الزوجين الصالحين:

لقد وضع القرآن صفات عدة للزوجين الصالحَين لكي يكونا أنموذجاً يقتدى به، وهي:

(٤) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص١٦٦/ باب الزواج.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المصدر نفسه.

١. الإيمان المترسخ في أعماق القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الاحزاب: ٣٥).

٢. التواضع والتربية الصالحة لكل منهما قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللهُ﴾(النساء: ٣٤).

٣. المعاملة بالحسنى لكلا الزوجين والاعتذار لبعضهما البعض في حالة حصول مشكلة بينهما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾(البقرة:٨٣)، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال في معنى هذا المقطع القرآني: (قُولُوا لِلنَّاسِ أَحْسَنَ مَا تُحِبُّونَ أَنْ يُقَالَ فِيكُمْ)(١٣).

٤. العبادة التي تطهر قلب الإنسان وروحه وتصنعه من جديد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٧١).

٥. إطاعة أوامر الله والورع عن محارمه قال تعالى: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾(الأحزاب: ٣٦)، وعن النبي صلى الله عليه وآله: (خير النساء إذا نظرت اليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)(١٤).

(١٣) الكافي، ج٢، ص: ١٦٥.
(١٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٢، ص: ٢٤١.

المبحث الثاني:
الطلاق أسبابه ونتائجه

هناك عدة أنواع من الطلاق ذكرها القرآن والمصادر الفقهية المختصة نعرض منها: الطلاق الرجعي، وطلاق الخلع، وطلاق الإيلاء، وطلاق المظاهرة، وطلاق اللعان.

أولاً: أسباب الطلاق[١٥]:

الطلاق من الظواهر الاجتماعية الممتدة جذورها في المجتمع ولها أسباب عديدة ومتشابكة وعملية منعها أوالتقليل منها شائكة أيضاً مالم يتم النظر اليها بشكل دقيق يتناول جميع الأسباب التي تقف وراءها وهي كثيرة منها:

١- الآمال المفرطة التي يبنيها كل من الزوج والزوجة على بعضهما فلوجعلا آمالهما ضمن حدود التوقع والواقعية والمعقولية وتجنبا التوغل في عالم الخيال ودرس كل منهما الطرف الآخر جيداً وحصر توقعاته في الأمور الممكنة فعند ذلك يمكن منع وقوع كثير من حالات الطلاق.

٢- استحكام الروح المادية ووسائل الرفاهية المختلفة يجعل الإنسان ولا سيّما النساء في حالة عدم قناعة دائمية مما يسهل حصول عملية الطلاق والانفصال عند مواجهة أبسط الحوادث تحت حجج وذرائع مختلفة.

٣- تدخلات الأهل والأقرباء في الشؤون ولا سيما للزوجين وخاصة التدخلات في موارد الاختلافات البسيطة بينهما، ويعد هذا من العوامل المهمة التي تساعد على الطلاق إذ إن خلافات

(١٥) التفسير الأمثل: مج ١٨، ص٢٩٧ بتصرف.

الزوجين إذا ما تركت لشأنها دون تدخل الأقارب فسوف تتلاشى وتنطفئ، أما إذا تدخل الأقارب والأهل تدخلاً متحيزاً ومتعصباً فإنه سيؤدي إلى إشعال هذه الخلافات وتعقيدها أكثر، ولكن هذا لا يعني أن يبعد الأقرباء أنفسهم عن هذه الخلافات دائماً، فان دخولهم عندما تكبر المشكلة وتخرج عن كونها خلافاً جزئياً يكون لصالح العلاقة الزوجية ودوامها وخصوصاً التدخل البعيد عن الانحياز لأحد الطرفين والعصبية العائلية والعشائرية.

٤- عدم التفات كل من الزوج والزوجة إلى رغبات وطلبات كل منهما من الآخر ففي الوقت الذي يحب الزوج ان يرى زوجته جذابة ونظيفة، وكذلك تحب الزوجة أن ترى زوجها كذلك وهذه الرغبات غالباً ما تكون مكبوتة لا يحاول أي منهما الاعلان عنها، وهكذا فإن عدم اهتمام الأزواج بهندامهم وترك التزين والترتيب وعدم الاهتمام بالنظافة كل هذه الأمور تمنع استمرار الحياة الزوجية الحقيقة التي يريدها القرآن، ولاسيما إذا كان هناك من يهتم بهذه المسائل في المحيط الذي يعيش فيه الزوجان.

ولهذا نجد الروايات الواردة عن أهل البيت(عليهم السلام) أعطت أهمية بالغة لهذا الجانب فقد ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: (لا ينبغي للمرأة أن تعطل نفسها)[١٦]. وعنه(عليه السلام) قال: (وَلَقَدْ خَرَجْنَ نِسَاءٌ مِنَ الْعَفَافِ إِلَى الْفُجُورِ مَا أَخْرَجَهُنَّ إِلَّا قِلَّةُ تَهْيِئَةِ أَزْوَاجِهِن)[١٧].

٥- عدم تناسب المستوى الثقافي للعوائل: فعندما يعيش الزوج نوعاً من الثقافة العائلية لا تنسجم مع ثقافة الزوجة العائلية، فلا

(١٦) مكارم الأخلاق ص ٩١
(١٧) المصدر نفسه.

يكون هناك توافق بينهما ولهذا ينبغي التدقيق في الأمر قبل الإقدام على الزواج فالمطلوب ليس فقط الكفاءة الدينية وإنما يجب أن تتوفر الكفاءة الفرعية أي التماثل والتناسب في الأمور الأخرى وإلا سيحدث تصدع في الأسرة.

ثانياً: أحاديث نبوية في ذم الطلاق:

لقد ورد كثير من الاحاديث عن النبيﷺ وأهل البيتعليهم السلام تذم الطلاق وتدعوإلى الابتعاد عنه قدر المستطاع؛ لأنه يؤدي إلى تهديم الأسرة ومن ثم يؤدي إلى تفكيك المجتمع منها: عن النبيﷺ: «ايما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[١٨]. وعنهﷺ: «لا تطلقوا النساء إلا بالريبة فان الله لا يحب الذواقين والذواقات»[١٩]. وعنهﷺ قال: (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به الا منافق)[٢٠]. وعن النبيﷺ أنه قال: (ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة ويعني الطلاق)[٢١]. وعنهﷺ قال: (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش)[٢٢]. وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِعليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: (مَا زَالَ جَبْرَئِيلُعليه السلام يُوصِينِي بِالْمَرْأَةِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي طَلَاقُهَا)[٢٣].

ثالثاً: المشاكل التي يسببها الطلاق:

تنقسم المشاكل التي يسببها الطلاق إلى ثلاثة أقسام:

١- **المشاكل العاطفية:** إن انتهاء الحياة الزوجية بالطلاق والفراق بعد حياة مشتركة عاشها الزوجان معاً ستترك آثاراً سيئة على الصعيد العاطفي على الطرفين، وإذا أقدم أحدهما على

(١٨) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص: ٢٨٤.
(١٩) مكارم الأخلاق، ص: ١٩٨.
(٢٠) جامع أحاديث الشيعة (للبروجردي)، ج٢٤، ص: ٧٦٤.
(٢١) المصدر نفسه .
(٢٢) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص: ٩.
(٢٣) المصدر نفسه.

الزواج مرة أخرى فسيبقى ينظر بقلق للطرف الآخر بسبب التجربة الفاشلة التي خاضها.

٢- المشاكل الاجتماعية: غالباً ما تحرم النساء المطلقات من الحصول على الزوج الكفوء والمؤهل مرة أخرى، كما قد يواجه الرجال المشكلة نفسها عندما يفكرون بالزواج مرة أخرى وقد يضطرون للزواج رغم عدم قناعتهم وهذا يؤدي إلى فقدانهم للسعادة الزوجية طيلة العمر ولاسيما في حالة وجود أطفال من الزواج الأول.

٣- مشاكل الأطفال: وهذه من أهم المشاكل إذ يحرم الأطفال من حنان الأم ورعايتها ويعيشون في كنف زوجة الأب، التي لا تنظر اليهم كأطفالها الحقيقين، ولذلك يعيش الأطفال فراغاً عاطفياً من هذا الجانب لا يعوضه شيء، وتتكرر الصورة نفسها لو حملت المرأة أطفالها معها إلى الزوج الجديد فإن هذا الزوج لا يحل محل الأب الحقيقي، وهذا لا يعني أنه لا يوجد نساء أو رجال يمتلكون المحبة والشفقة التي تمتلكها الأمهات والآباء تجاه أطفالهم، ولكن مثل هؤلاء الناس قليلون في المجتمع.

المبحث الثالث

منهجية القرآن في معالجة أسباب الطلاق:

١- مرحلة نشوز الزوجة والزوج[٢٤]:

نشوز الزوجة:

النشوز: هوالامتناع عن القيام بواجبات الزوجية بغير حق فقد يكون من الزوجة وهو الغالب، وقد يكون من الزوج أو من

(٢٤) التفسير الكاشف، مج٢ ص٣١٧.

كليهما، وبعد أن اشار القرآن إلى الزوجة الصالحة في قوله تعالى: ﴿فالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللهُ﴾(النساء: ٣٤)، فقد أشار إلى الزوجة الناشزة وأباح للزوج إذا تمردت الزوجة بغير حق أن يعضها، فإن قبلت وإلا هجرها في الفراش، فإن قبلت وإلا ضربها ضرباً خفيفاً للتأديب وليس للتشفي والانتقام لقوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾(النساء:٣٤).

والأمر بهذه المراتب على سبيل الإباحة والترخيص وليس الوجوب، وإن ترك الضرب والصبر عليها أولى وكلما حصل الغرض بالطريق السابق يكتفى به ولا يتعدى إلى اللاحق وفي هذه الحالة يحرم الأشد لقوله تعالى ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾(النساء:٣٤).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «بِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا»؛ لأن الوعظ والهجر والضرب وسيلة إلى الطاعة، وفي هذا دلالة على أن الزوج لا يجوز له أن يختلق الأعذار لإيذاء الزوجة حتى لوكانت كارهة له مادامت قائمة بحقوقه المشروعة، فإن الحب والبغض لا يدخلان في استطاعة الإنسان والله لا يحاسب إلا على ما ظهر من الأقوال والأفعال والله لا يرضى بظلم الزوجة ولا يكلفها ما لا تطيق)[٢٥].

نشوز الزوج[٢٦]:

تحدثت الآية السابقة عن نشوز الزوجة أما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوإِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن

(٢٥) التفسير الكاشف، مج٢ ص٣١٧.
(٢٦) المصدر نفسه.

﴿يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء: ١٢٨).

فقد تحدث القرآن في هذه الآية عن نشوز الزوج ففي حالة خوف الزوجة من ترك زوجها لحقوقها الزوجية أوتركها معلقة (لا متزوجة ولا مطلقة) أوايذائها وعدم الانفاق عليها وعدم المبيت عندها وكرهها بغير عذر مبرر، ففي هذه الحالة يدعو القرآن الكريم إلى المصالحة بينهما ولوبوساطة الخيرين في المجتمع على أن يتفقان على ان تتنازل الزوجة له عن بعض حقوقها المادية والأدبية لكي تبقى في عصمته وتعيش معه حياة هادئة؛ لأن الصلح خير من الاختلاف والطلاق، والآية تتحدث عن حالة عدم وجود وئام بين الزوجين والقرآن يدعوا الزوجين أن يحسن كل واحد منهم العشرة مع الآخر ويتجنب أسباب الخلاف والطلاق.

٢- مرحلة المحكمة القرآنية للصلح العائلي[٢٧]:

ذكر القرآن الكريم أنه في حالة نشوب نزاع بين الزوجين ولم تنفع المراتب السابقة التي ذكرت في المرحلة السابقة للعلاج، فيجب أن تكون هناك محكمة صلح عائلية لحل الخلافات بينهما بالطرق الودية وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾(النساء:٣٥)، وهي إحدى مبتكرات القرآن العظيمة، فهذه المحكمة تمتاز بمميزات تفتقر اليها المحاكم الأخرى في جميع العصور منها:

١-إن البيئة العائلية بيئة عاطفية والمقياس المتبع فيها يجب أن

(٢٧) التفسير الأمثل، ج٣، ص ٤٧١.

يختلف عن المقاييس في البيئات الأخرى، كما لا يمكن العمل في المحاكم الجنائية بالمقاييس العاطفية كذلك لا يمكن العمل في البيئة العائلية بالقوانين الجافة الخالية من الروح العاطفية والإنسانية، فيجب أن تحل الخلافات العائلية بالطرق العاطفية قدر الإمكان ولهذا أمر القرآن أن يكون الحكمان ممن تربطهم علاقة بالزوجين نسب أوقرابة أوصداقة ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها﴾ لكي يمكنهما تحريك المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين وهذه من ميزات هذه المحكمة.

٢- إن المتخاصمين في بقية المحاكم مضطرون لكشف الأسرار دفاعاً عن النفس.

أما الزوجان فلو كشفا عن الأسرار الزوجية أمام الأجانب والغرباء لجرح كل منهما مشاعر الآخر، وهذا يلقي بضلاله على حياتهما في المستقبل حتى بعد الصلح بينما لا تطرح أمثال هذه الأسرار في محاكم الصلح القرآنية حياءً من الحضور وإذا طرحت فإنها تطرح في جو عائلي وأمام الأقرباء ولا تنطوي على أثر سيء.

٣- إن الحكام في المحاكم العادية لا يشعرون بالمسؤولية الكاملة في قضايا الخلاف ولا يهمهما كيفية انتهاء القضية المرفوعة إلى المحكمة سواءً أعاد الزوجان إلى الوفاق أم انفصلا بالطلاق، بينما في محكمة الصلح القرآنية على عكس ذلك؛ لأن الحكمين تربطهما بالزوجين رابطة القرابة والرحم، فإن افتراق الزوجين أوصلحهما له أثر كبير على الحكمين من الناحية العاطفية، لذلك فإنهما يسعيان قدر المستطاع لتحقيق الصلح والوفاق بين

الزوجين الذين يمثلانهما ويعيدا المياه إلى مجاريها.

٤- إن مثل هذه المحكمة لا تحتاج إلى ميزانيات كبيرة ولا تعاني من ضياع الوقت فهي تحقق أهدافها من دون اجراءات روتينية وبأقل مدة زمنية، لكون الشارع المقدس يشترط أن يكون الحكمان من الأشخاص المؤمنين والعدول والمطلعين وأصحاب البصيرة وحسن التدبير في مهمتهما والمكانة في عائلتي الزوجين وبذلك تكون هذه المحكمة أنموذجاً للإصلاح في المجتمع.

٣- مرحلة تشريع عدة الطلاق:

عدة الطلاق هي الوسيلة للعودة والصلح بين الطرفين وقد تحدَّث القرآن بشكل مفصل عن أحكام الطلاق لكي لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها ما دامت عدة الطلاق لم تنتهِ، فإن للرجل أن يصالح زوجته ويعيدها إليه في حياة زوجية حميمة لقوله تعالى: ﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾(البقرة٢٣١).

وقد تنشأ في الأسرة بعض المشاكلات بسبب عوامل مختلفة تؤدي إلى الفرقة وتشتت العائلة ولكن الزوجين بعد مدة من هذه الفرقة يصيبهم الندم، وخاصة بعد مشاهدتهم لانهدام الأسرة وتلاشي المحيط العائلي وتظهر عواقب هي الفرقة ولاسيما على الأطفال، ولهذا يقول القرآن إن على النساء العدة والصبر ريثما تهدأ تلك المشاكل النفسية وتنقشع سحب النزاع والعداوة عن سماء الحياة الزوجية، ولاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار حكم القرآن في بقاء الزوجة وعدم خروجها من بيت زوجها طيلة مدة

العدة (هذا في الطلاق الرجعي) إذ يبعث ذلك على حسن التفكر وإعادة النظر في قرار الطلاق وهذا غالبا ما يؤدي إلى رجوع الزوجين إلى بعضهما لذا يقول القرآن: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾(الطلاق:١).

وفي الغالب نلاحظ أنه يكفي لاستعادة الأجواء الدافئة للأسرة والرجوع عن الطلاق قليلاً من تقوية المحبة والصبر لكي تعود المياه إلى مجاريها.

سبب تأكيد ضبط العدة:

للعدة حكمتان أساسيتان أشار اليها القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام:

١- مسألة حفظ النسل واتضاح وضع المرأة من حيث الحمل وعدمه.

٢- توفير فرصة جيدة للرجوع عن الطلاق والعودة للحياة الزوجية الأولى والقضاء على أسباب الانفصال إذ أكد القرآن الكريم أمر بقاء النساء في بيوت الأزواج اثناء العدة وهذا يسمح لبحث أسباب العودة مرة أخرى وترك الانفصال ولاسيما في الطلاق الرجعي إذ لا يحتاج الرجوع إلى أية مراسيم أوأمور رسمية ويمكن الرجوع للزوجة بمجرد وضع يد الزوج على جسد الزوجة فإن ذلك يعد رجوعاً عن الطلاق.

فلسفة العدة والحكمة من تشريعها:

إن عدم السماح للنساء المعتدات بالخروج من مقرها الأصلي وهو البيت لقوله تعالى: ﴿**لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ**﴾(الطلاق:١)، وقوله تعالى: ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**﴾(الطلاق:١).

مع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب والعصبية الذي قد يسبب الطلاق ولكن وجود الزوجة إلى جانب الزوج في البيت نفسه وإظهار الندم ومحبة كل واحد منهما للآخر وكذلك التفكير الجدي في عواقب الأمور وهذا العمل القبيح، الذي هوالطلاق وخاصة مع وجود الأطفال كل هذه الأمور تهيء أرضية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم وتسهم في تبديد الغيوم التي تكدر صفاء العلاقة الزوجية؛ لأن التصميم على الطلاق يحدث غالباً بسبب الهيجان والانفعالات العصبية والتي قد تنتهي بمرور الزمن (اثناء مدة العدة) فإن التفكير جدياً في هذا الأمر قد يؤدي إلى رجوع أحدهما إلى الآخر وتجاوز حالات الخلاف خلال فترة العدة.

وفي هذا المعنى يقول الامام الباقر عليه السلام: «المطلقة تكتحل وتختضب وتتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب لأن الله يقول ﴿**لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**﴾ لعلها تقع في نفسه فيراجعها»[٢٨].

٤- مرحلة الزوج الثاني مانع من تكرار الطلاق:

الزواج المجدد (المحلل):

لقد وضع القرآن الكريم شروطاً متنوعة للحيلولة دون وقوع

(٢٨) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣٥٢.

الطلاق قدر المستطاع؛ لأنه يؤدي إلى تشتيت الأسرة وتفكيك المجتمع ومن تلك الشروط: أن تتزوج المرأة بعد الطلاق الثالث زوجاً آخر لعلم الله تعالى بأن زواج المرأة من زوج آخر صعب على الزوج الأول، وهذا يؤدي إلى التأني في الطلاق وعدم الاستعجال والتثبت فيه، حفاظاً على الأسرة والعلاقة الزوجية وهذا من الطف الكنايات وأعلى درجات الفصاحة والإيجاز كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقيما حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢٣٠).

إذ إن زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثاً يعد عائقاً كبيراً لوقوع الطلاق وزيادة نسبته في المجتمع، فالذي يريد أن يطلق زوجته الطلاق الثالث يشعر أنه إذا فعل ذلك فلن تعود إليه زوجته وتكون من نصيب غيره، وهذا الشعور يجرح كرامة الزوج الأول ولذلك فإنه لا يقدم على هذا العمل إلا مضطرا.

كما أن زواج المرأة برجل آخر زواجاً دائمياً يعد مانعاً يقف بوجه الرجال من ذوي الأهواء المتقلبة والخداع لكي لا يجعلوا من النساء أُلعوبة بين أيديهم وغرضاً لخدمة أهوائهم، وأن لا يمارسوا من دون حدود قانون الطلاق والعودة، ويمكن القول إن هدف الزواج الثاني بعد ثلاث طلقات والسماح لكلا الزوجين في تشكيل حياة زوجية جديدة هومن أجل أن لا يصبح الزواج هذا الرباط المقدس مدعاة للسخرية على وفق أهواء الزوج الأول

ومشتهياته وفي الوقت نفسه إذا طلقها الزوج الثاني فإن طريق عودتها إلى زوجها الأول سيكون مفتوحاً لها فيحق للزوج الأول أن يتزوجها من جديد لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقيما حُدُودَ اللهِ﴾(البقرة: ٢٣٠).

إن هذا الحكم الإلهي القرآني بالشروط المذكورة في المصادر المختصة عامل مهم على منع الطلاق المتكرر والحد من التصرفات الهوجاء لبعض الأزواج وهومن أهم الدوافع لإصلاح الوضع العائلي وإصلاح الحياة الزوجية ومن ثَمَّ إصلاح المجتمع.

وجوب تعدد مجالس الطلاق:

إن تعدد الطلاق لا يصح إذا كان في مجلس واحد، بل يجب أن يكون في مجالس متعددة وخصوصاً إن الغاية من ذلك هوإعطاء فرصة أكثر للرجوع وعودة المودة بين الزوجين بعد النزاع الأول، فإذا لم يتحقق في المرحلة الأولى فسيتحقق في المرحلة الثانية، بينما وقوع عدة طلقات في مجلس واحد يغلق الباب كلياً وينفصل الزوجان بعد ذلك نهائياً، فلا أثر لتعدد الطلاق في مجلس واحد لقوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوتَسْريحٌ بِإِحْسانٍ﴾(البقرة: ٢٢٩).

أما إذا لم تتحسن الظروف بين الزوجين خلال مدة العدة فقد قال القرآن: ﴿أَو سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وكل من الرجوع أو التسريح يجب أن يكون في جو من الإحسان والمعروف وأن لا تسود روح الانتقام بينهما، والمعروف الذي يريده القرآن هو أن يكون الرجوع والتسريح على أساس الصفاء والوئام والاحترام المتبادل؛

لأن الناس عادة يتخذون من الطلاق والرجوع وسيلة للانتقام.

لهذا يقول القرآن بعبارة واضحة ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ إذ إن استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة في الإيذاء والاعتداء عليها؛ لأن ذلك ظلما للزوجة وظلم لنفس الزوج، لأن ظلم الزوجة يكون سببا لعقاب الله تعالى للزوج ولذلك يكون قد ظلم نفسه لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

٧- أهمية شهادة عدلين في الطلاق:

في قوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلّه﴾(الطلاق: ٢)، فإن علماء الإمامية اشترطوا للطلاق حضور شاهدين عادلين وهذا أنفع وسيلة إلى الوئام بين الزوجين، لأن لأهل الصلاح والعدل والبصيرة تأثيرا في النفوس وإعادة العلاقات الزوجية إلى مجاريها، وإذا لم تنفع نصائحهم فعلى الأقل تقلل من حالات الطلاق بسبب اشتراط العدلين وقد أشاد معظم علماء المذاهب الاسلامية الأخرى بهذا الرأي وقالوا: (إن هذه وجهة نظر يجب عدم التغاضي عنها وإن الأخذ بهذا الرأي يمهد السبيل للصلح في كثير من الحالات)[٢٩].

كذلك ورد عن الأئمة عليهم السلام ضرورة وجود شاهدين عادلين لكي يكون الطلاق على وفق الكتاب والسنة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ إِلَّا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِأَنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّوَجَل)[٣٠].

٨- تشريع حكم كفارتي الإيلاء والظِهار:

عالج القرآن حالتي الإيلاء والظِهار التي كانتا سائدتين قبل

(٢٩) محمد يوسف موسى أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية في جامعة عين شمس في كلية الحقوق في القاهرة في كتابه الأحوال الشخصية (ص٢٧١) ط١٩٥٨) نقلاً عن التفسير الكاشف ج٧ص٣٤٦.

(٣٠) علل الشرائع، ج ٢، ص: ٥٠٧.

الاسلام واستمرت بعده، وكانتا تسببان تصدع العلاقات الزوجية، عن طريق تشريع حكم الكفارة لكل منهما قبل العودة للعلاقة الزوجية كجزء من معالجة المشاكل في العلاقة الزوجية التي كانت منتشرة في المجتمع (وهذا كان قبل تشريع أحكام الطلاق)، لكي يحافظ على سلامة الأسرة والمجتمع من التصدع والتفكك ولكي يكون حكم الكفارة رادعاً لتفشي هاتين الظاهرتين المستنكرتين.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة: ٢٢٦- ٢٢٧).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾(المجادلة: ٣-٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾(الأحزاب: ٤).

والدين لا يسمح بهظم حق المرأة عن طريق تسلط الرجال واستغلالهم التقاليد الظالمة التي كانت سائدة في المجتمع فقام القرآن بتشريع دفع الكفارة لمعالجة هاتين الظاهرتين.

المبحث الرابع:
أثر منهجية القرآن في معالجة الطلاق على استقرار الأسرة والمجتمع

لقد أولى القرآن الكريم أهمية بالغة لأحكام الطلاق في مواضع مختلفة منه بحيث إذا تجاوزها أحد ولم يتعظ بها فكأنه أنكر الإيمان بالله واليوم الآخر لقوله تعالى: ﴿ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون﴾(البقرة: ٢٣٢). وإن الالتزام بهذه الأحكام هولغرض سعادة الإنسان نفسه لقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾(البقرة: ٢٢٩)، وإن التجاوز على هذه الأحكام من الزوجين يؤدي إلى ضياع سعادتهما في الدارين؛ لأن الرجل والمرأة هما ركنا الحياة فأما أن يعيشا بإحسان وتوافق أوينفصلا بإحسان وهذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوفارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾(الطلاق: ٢)، إذ إن الانفصال يجب أن يتم بعيداً عن المشاكلات والعصبيات والتسقيط والتجريح من الجانبين، ويجب أن تحفظ فيه الحقوق واللياقات لكي تكون أرضية مهيأة للعودة والرجوع إذا قررا الرجوع إلى الحياة الزوجية فيما بعد، فان العودة إذا تمت في أجواء مظلمة بالخلافات والتعديات فسوف لا تكون عودة موفقة تستطيع الاستمرار مدة طويلة فضلا عن أن الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثاراً ليس فقط على الزوجين وإنما يتعدى ذلك إلى عشيرتهما وأقربائهما وبالتالي على المجتمع.

يؤكد القرآن على أن كل الصداقات والعلاقات بين الناس يجب أن تحاط بجومن الإحسان والأخوة والاحترام المتبادل والتعاون على الخير والبر والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع والأفراد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم﴾(الحجرات:١٠)، وقال تعالى: ﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ﴾(المائدة: ٢).

وحتى لووقع الطلاق يجب أن يتم بإحسان ومن دون مشاكل لأن هذا بحد ذاته انتصار وتوفيق للطرفين.

النهي عن العضل:

نهى القرآن الكريم عن التشدد والتعصب من قبل أولياء المرأة لمنع عودة الزوجين إلى حياتهما الزوجية من جديد بعد الطلاق إذا أرادا ذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾(البقرة: ٢٣٢)؛ لأن هذا المنع يخلق آثاراً سلبية وخيمة على روحية كل منهما وقد يؤدي إلى انحرافهما وتلوثهما بالرذيلة وإذا كان لهما أطفال فإن مصيرهم سيكون تعيساً وسلبياً على المجتمع، وسيعاني هؤلاء الأطفال من حرمان حنان الأم والأب وربما يؤدي ذلك إلى فقدانهم للسلامة الروحية وتتكون عندهم العقد النفسية وبذلك يتعرض المجتمع بأكمله وليس العائلة فقط إلى الكثير من المشاكل بسبب هؤلاء الأطفال الذين يشكلون في بعض الأحيان ظاهرة خطيرة عندما يعيشون حالة النقص والحرمان وحب الانتقام من المجتمع ومسؤولية هذه العواقب

الأليمة بعهدة من يمنع هذين الزوجين من المصالحة والرجوع إلى بعضهما.

وعندما وضع القرآن كل تلك العوائق والصعوبات بوجه الطلاق، فإنما أراد أن يجنب المجتمع الوقوع في تلك المشاكلات التي تسبب تفكك الأسرة وضياع الأطفال وتحولهم في بعض الأحيان إلى مصادر للجريمة وسلب أمن المجتمع.

أهمية الرابطة الزوجية في القرآن:

أولاً: عدَّ القرآن الكريم الرابطة الزوجية مقدسة وكرمها تكريماً عظيماً لم تكرم أية شريعة سابقة هذه الرابطة كما كرمها القرآن ووصفها بأنها ميثاق غليظ قال تعالى: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً**﴾(النساء: ٢١)، وسعى إلى مكافحة الكثير من الممارسات الظالمة والمجحفة التي كانت رائجة في العهود السابقة للإسلام، وحذر من تورط المسلمين فيها بعد ظهور الإسلام إذ قال تعالى: ﴿**وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُن**﴾(النساء: ١٩)، وهذا معناه لا تحبسوا النساء لترثوا أموالهن فقد كانوا يتزوجون النساء الغنيات وبعد مدة من هذا الزواج يتركوهن فلا يطلقونهن ولا يعاملونهن معاملة الزوجات بانتظار موتهن فيرثون أموالهن، فقد استنكر القرآن هذه الظاهرة السيئة فقال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كَثيرا**﴾(النساء: ١٩).

ثانياً: حذر القرآن من الضغط على الزوجات لكي يهبن المهور فبعض الازواج يضيقون على الزوجات بشتى الطرائق لكي يتخلين عن المهور ويقبلن بالطلاق ولاسيما إذا كان المهر باهظاً فقال تعالى: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

ثالثاً: أمر القرآن بالمعاشرة الحسنة الإنسانية التي تليق بالزوجة وحتى إذا كره الزوج زوجته لبعض الأسباب، فلا تبادروا إلى الطلاق بل عليكم بمداراتهن ما استطعتم فقد تكونوا وقعتم في الخطأ وقد يكون لكم منهن أولاد صالحون في المستقبل، فقال تعالى: ﴿وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كَثيرا﴾(النساء: ١٩).

رابعاً: إن بعضاً من الناس إذا أراد الرجل أن يطلق امراته ويتزوج بأخرى يتهم زوجته الأولى بالزنا والخيانة الزوجية فراراً من دفع المهر اليها، أويعاملها بقسوة حتى ترد المهر الذي أخذته من الرجل. حيث استنكر القرآن هذه الأفعال القبيحة بشدة ودعا إلى انصاف الزوجات وعدم ظلمهن قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾(النساء: ٢٠)، فلا يحق للزوج أن يأخذ من مهر الزوجة شيئا بعد طلاقها وإن كان مالاً كثيراً؛ لأن المفروض أن تطليق الزوجة الأولى يتم لأجل مصلحة الزوج وليس بسبب انحراف الزوجة عن العفاف والطهر، ولذلك لا يجوز منعها حقوقها من المهر، فقد ذم القرآن هذه الظاهرة فقال ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبيناً﴾(النساء: ٢٠).

كما حرك القرآن العواطف الإنسانية عند الرجال لكي لا

يأخذوا شيئاً من صداق الزوجة فهويقول لقد عشتم مع الزوجة الأولى عمراً طويلاً وكانت لكم معهن ذكريات وخلوة واستمتاع كل واحد من الآخر فلا يحق لكم ان تبخسوا الزوجات حقهن وقد أخذت الزوجة منكم عهداً موكداً في عقد الزواج فكيف تبخسونهن حقوقهن فقال تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ ميثاقاً غَليظاً**﴾(النساء: ٢١).

أهمية النظام العائلي في القرآن:

إن الدقة التي عالج بها القرآن الكريم أحكام النساء المطلقات وحقوقهن والجزئيات المتعلقة في هذا المجال والتي وردت في مختلف آيات القرآن تمثل بمجموعها المنهج القرآني لمواجهة هذه المشاكلات.

وهذا يبين الأهمية التي يوليها القرآن لنظام العائلة ورعاية حقوق المرأة والرجل والأبناء فهو يسعى لمنع وقوع الطلاق قدر الإمكان ويحاول استئصال جذور هذا العمل البغيض، ولكن إذا وصلت هذه الجهود إلى طريق مسدود وأصبح الطلاق والانفصال هو العلاج الوحيد عندها يحذر القرآن من ضياع حقوق الأطفال ويرفض أن تذهب هذه الحقوق ضحية هذا النزاع حتى أنه شرّع أحكاماً يمكن في ضوئها الرجوع عن الطلاق غالباً، إن أوامر الإمساك بالمعروف والطلاق بمعروف وكذلك عدم الإضرار والتضييق على النساء والتشدد في أمرهن والتشاور الحسن بشؤون الأطفال وما إلى ذلك كلها شواهد على ذلك.

غير أن عدم اطلاع المسلمين على هذه الأحكام وجهلهم بها أوإعراضهم عن الالتزام رغم علمهم بها أدى إلى نشوء مشاكلات عائلية عديدة ومنها الطلاق وخاصةً في شأن الأطفال وتشتتهم وضياعهم وبالتالي حقدهم على المجتمع.

وكل ذلك نتيجة لابتعاد المسلمين عن مصدر الفيض الإلهي والذي هوالقرآن. ففي الوقت الذي يدعوالقرآن إلى عدم خروج الزوجة من بيت الزوج ولا يحق للزوج أن يخرج الزوجة من البيت أثناء تلك المدة المحددة وهذا الحكم يؤدي إلى العدول عن الطلاق والرجوع إلى الحياة الزوجية، لا نرى أحدا يلتزم بهذا الحكم القرآني الواضح وهذا ما يدعوإلى الأسف.

الخاتمة:

الطلاق تشريع قرآني وضعه الله تعالى لمعالجة حالات تعثر استمرار الحياة الزوجية في الأسرة تحت شروط معينة مذكورة في المصادر الفقهية، وعُدَّ الطلاق أبغض الحلال إلى الله.

إن ارتفاع نسبة الطلاق في المجتمع يؤدي إلى تفككه من خلال تفكك الأسرة، إذ وضع القرآن منهجاً أخلاقياً دقيقاً لتفادي هذه الظاهرة في المجتمعات تَضَّمن النقاط الآتية:

١- اعتماد الضوابط الشرعية والأخلاقية في كفاءة اختيار الزوجين لبعضهما على وفق توجيهات القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وتطبيق وصاياهم في هذا الخصوص مثل: (إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوه)[٣١]، وقولهم (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدّين تربّت يداك)[٣٢]، مع عدم إغفال المؤهلات الأخرى كالمستوى العلمي والثقافي والجمالي.

٢- التخفيف من تكاليف الزواج بالتقليل من المراسيم العرفية السائدة والمكلفة وكذلك معيار الغنى والفقر؛ لأن ذلك سيؤثر على مسيرة الحياة الزوجية لهما لقوله تعالى: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيم**﴾(النور: ٣٢).

٣- إبداء النصح والإرشاد بما يرضي الله تعالى للزوجين من قبل عائلتيهما وعدم التدخل في شؤنهما الخاصة بما يؤدي إلى تفكك العلاقة الزوجية بينهما لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: (عَلَيْكُمْ بِالنُّصْحِ لِلهِ فِي خَلْقِهِ فَلَنْ تَلْقَاهُ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْهُ)[٣٣].

(٣١) جامع أحاديث الشيعة (للبروجردي)، ج٢٥، ص: ٢٠٠.
(٣٢) نهج البلاغة (صبحي صالح)، ص: ٥٨٦).
(٣٣) الكافي (ط - الإسلامية)، ج٢، ص: ٢٠٩.

٤- وضع القرآن مجموعة من الضوابط تساعد على رأب الصدع بين الزوجين في حالة نشوب الخلاف بينهما منها اشتراط وجود شاهدين عادلين على الطلاق لفسح المجال أمام الخيرين العدول للتدخل واعادة المياه إلى مجاريها ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُم﴾، ومنها إبقاء الزوجة المطلقة رجعياً في بيت الزوج خلال مدة العدة الرجعية لفسح المجال لإعادة العلاقة الزوجية إلى مجاريها ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ..... لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾، وكذلك اختيار حكماً من أهله وحكماً من أهلها من العدول وأصحاب البصيرة في حالة نشوب خلاف بين الزوجين لكي يحاولوا إصلاح العلاقة بينهما وتفادي وقوع الطلاق ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيرا﴾.

٥- حث القرآن الخيرين من الرجال والنساء المحيطيين بالزوجين من الوجوه الدينية والاجتماعية والعشائرية لكي يستخدموا تأثيرهم في إصلاح العلاقات الزوجية المتصدعة في المجتمع والمسامحة بين الطرفين لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى﴾. لتفادي حالة الوصول إلى الطلاق؛ لأن الله تعالى يريد للمجتمع أن يكون متلاحماً ومبنياً على الأسس القرآنية الصحيحة من خلال بناء الأسرة على القيم السامية والتي تُعّد العلاقة الزوجية فيها حجر الزاوية في تحقيق هذا الهدف.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- الكافي: محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني، ت٣٢٩هـ الناشر: دار الكتب الإسلامية، ايران طهران، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٢- بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي، ت ١١١٠هـ، الناشر: دار احياء التراث العربي، لبنان- بيرت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣- تفسير نور الثقلين: عبد علي بن جمعة، العروسي الحويزي، ت ١١١٢هـ، الناشر: اسماعيليان، ايران-قم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ.

٤- التفسير الأمثل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مج ١٨، مج ٣.

٥- التفسير الكاشف: الشيخ محمد جواد مغنية، مج٢، مج٧.

٦- وسائل الشيعة، ج١٥، ص ١٦٦-١٦٨.

٧- مكارم الاخلاق ص٩١.

٨- تفسير مجمع البيان، الطبرسي، مج ٢، مج ٨

٩- نهج البلاغة (لصبحي صالح، ص: ٥٨٦).

١٠- جامع أحاديث الشيعة (للبروجردي)، ج٢٤، ص: ٧٦٤.

١٠

الصحة النفسيّة رؤية في القرآن الكريم

م. د. خمائل شاكر الجماليّ
جامعة بغداد / مركز إحياء التراث العلمي العربي

ملخّص

أشار القرآن الكريم الى دافع التنافس، والتنافس من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان من الثقافة التي ينشأ فيها وتقوم التربية الى يتلقاها الفرد بتوجهه الى النواحي التي يستحسن فيها التنافس من أجل تقدمه ورقيه وفقاً للقيم التي يتمسك بها المجتمع وقد يتعلم من الثقافة التي ينشأ فيها التنافس الاقتصادي أو السياسي أو العلمي وقد حث القرآن الناس على التنافس في تقوى الله وعملِ الخيرات ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُوم * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1]، ولا شكَّ أن في القرآن الكريم طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان، فهو يهز وجدانه، ويرهف إحساسه ومشاعره، ويصقل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره ويجلي بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنساناً جديداً وكأنه خلق خلقاً جديداً.

وإن الإيمان بالله تعالى وأتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن وبينته السنة هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق والطريق الوحيد الذي يؤدي الى تحقيق أمن الإنسان وسعادته وإن فقدان الإيمان بالله وعدم اتباع منهجه في الحياة يؤدي الى الهم والقلق والشقاء.

وقد اتبع القرآن أسلوبا لعلاج وتربية الأشخاص وتربيتهم وتوجيه سلوكهم أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار

(١) المطففين: ٢٢- ٢٦.

والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يغرسها في نفوسهم ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة ومنها: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج هذه جميعها تعلم المؤمن الصبر وتحمل المشاق ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائها وشهواتها كما يعلمه ذلك حب الناس والإنسان اليهم وينمي في نفسه روح التعاون والتكافل الاجتماعي.

مقدمة

الصحة النفسية هي الإيمان المنشود المطمئن للنفس، فإن الذي يثبت النفس ويحقق واقع وجودها وطبيعة جوهرها هو احتكاكها بواقعها المعاش وما يصدر عنها من سلوك يفضي به الى رضوان الخالق، قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[٢]؛ هذا في دار الآخرة، وأما في حياتنا الدنيا فإن النفس في سلوكها الأخلاقي الحميد تؤدي الى الذكر الحسن وحسن السيرة بين الناس والجماعات. وقد ورد لفظ النفس في القرآن الكريم في (٢٩٥) موضعاً، ويدل على كل منها على الإنسان ككائن حي ذي أصل واحد يتكاثر ويكسب ويشتهي ويغضب، ثم يجازى على عمله وقد استعملت بدلالات مختلفة نذكر منها:

١- الدلالة على الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾[٣].

٢- وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].

٣- وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٥]؛ وما دام الله خالقنا فهو أعلم بطبيعة نفوسنا ودواخل ضمائرنا وجوهر ذاتنا وقوله في ذلك: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾[٦].

إذا أردنا أن نبدل أحوالنا وأوضاعنا الىّ ما هو أفضل فلابد لنا أن نغير جوهرنا من الداخل ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٧] فالنفس الإنسانية كيان لطيف مجدد المعالم له خصائص السمع والأبصار والاستجابة وهي ليست بوهم أو معنى ولكنها شفافة غير مرئية بالعين المادية المجردة.

(٢) الفرقان: ٢٤.
(٣) البقرة: ٤٨.
(٤) البقرة :٢٨٦.
(٥) المائدة: ٣٢.
(٦) الإسراء: ٢٥.
(٧) الرعد: ١١.

المبحث الأول
القرآن الكريم ودوافع حفظ الذات

ذكر الله سبحانه تعالى في بعض آيات القرآن أهم الدوافع الفسيولوجية التي تقوم بحفظ الذات، وبقاء الفرد مثل: الجوع، العطش، والتعب، والحرارة، والبرودة، والألم، والتنفس. لقد خاطب الله تعالى آدم عليه السلام وهو في الجنة مذكراً له ما هو فيه من نعيم إذ لا يؤذيه تقلبات الجو ولا يشعر بحرارة الشمس حيث لا توجد شمس في الجنة ومحذراً له في الوقوع في شرك الشيطان الذي يريد أن يخرجه من الجنة ليهبط الى الأرض التي سيشقى فيها هو وأبناؤه بالسعي والعمل المتواصل بالصيد والحرث لإشباع دافع الجوع، وحفر الآبار والضرب في الأرض للوصول الى مجاري الأنهار لإشباع دافع العطش وصنع الملابس لاتقاء العري الذي يعرضه لتقلبات الجو والالتجاء الى ظلال الأشجار والكهوف، وبناء المساكن لاتقاء حرارة الشمس وبرودة الليل[٨]، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَاآدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٩]. ففي هذه الآيات إشارة الى ثلاثة دوافع مهمة من دوافع حفظ الذات، وهي دوافع الجوع، والعطش، وتجنب الحرارة، وكذلك البرودة المفرطة، كما تشير هذه الآيات أيضاً الى دافع حب البقاء، ودافع التملك، وتعمل حفظ الذات في خدمة حب البقاء، فهي بإشباعها

(٨) نجاتي، ٢٠٠٦، ص٦٥.
(٩) طه: ١١٧- ١٢٠.

حاجات البدن الفسيولوجية إنما تعمل على بقاء الفرد واستمرار حياته، أما دافع التملك فهو من الدوافع النفسية والروحية، وقد كان دافع حب البقاء ودافع التملك مدخل الشيطان الى نفس أدم فوسوس له ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[١٠]، فنسى آدم ما حذره الله تعالى منه، وترك الاولى من أمر ربه فأكل من الشجرة، ونجد إشارة في سورة النحل الى دوافع حفظ الذات وهي: الحرارة، والبرودة، والتعب والألم، قال تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[١١].

ففي كهوف الجبال، والخيام، والبيوت يجد الإنسان سكناً يتقي فيه من أذى الحيوانات الضارية وشر الأعداء وتقلبات الجو من حرارة وبرودة كما يجد فيها الراحة والمكان الآمن الذي يستطيع فيه النوم بعد عناء العمل المتواصل أثناء النهار[١٢].

ودوافع حفظ الذات موجودة لدى كل من الحيوان والإنسان وتشير الآية الآتية من سورة النمل الى دوافع حفظ الذات عند النمل مما يجعلها تتجنب ما يؤذيها ويلحق لها الضرر ويصيبها بالهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ

(١٠) طه: ١٢٠.
(١١) النحل: ٨٠- ٨١.
(١٢) الأزاروي، ريتشارد. الشخصية، ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم، مصر، ١٩٩٤، ص ٣٣.

قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٣]؛ ففي هاتين الآيتين إشارة واضحة الى دوافع حفظ الذات عند النمل مما دفع نملة منهم لعلها رئيس مجتمع النمل أو حارسته الى تنبيه بقية النمل الى الخطر المحدق بهم لكي يدخلوا مساكنهم لاتقاء هذا الخطر[١٤].

وتشير بعض آيات القرآن الى الأهمية الخاصة لكل من دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان، فكل من الجوع والخوف يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، فالإنسان عادة يجد كثيراً من العناء في سبيل الحصول على لقمة العيش لنفسه وزوجه وأولاده. كما أن الحوف من الموت أو من المستقبل أو من الأعداء أو من غير ذلك من مصائب الزمان كثيراً ما تكون سبباً في شقاء الإنسان ولذلك فقد ذكرت بعض آيات القرآن كلاً من الجوع والخوف كعاملين لهما أثرهما الخطير في حياة الإنسان قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[١٦].

ومما يبين أهمية إشباع دافع الجوع في حياة الإنسان وكذلك أهمية وقاية جسمه من الأذى الذي قد ينشأ عن تقلبات الجو من حرارة أو برودة أو عبودية تضر به أن الله سبحانه وتعالى جعل كفارة اللغو في الإيمان إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ

(١٣) النمل: ١٧- ١٨.
(١٤) الجسماني، عبد العلي. القرآن وعلم النفس في المنهج القرآني، ط١، ج٤، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٥٠.
(١٥) البقرة: ١٥٥.
(١٦) قريش: ٣-٤.

يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١٧].

وأشار القرآن الكريم الى دافع التعب في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[١٨]، وأشار القرآن الكريم الى ما يسمى بالدافع الجنسي لما له أهمية بالغة في حفظ النوع وتكوين الأسرة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[١٩]، ﴿وَمِنْ كُلِ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢٠]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢١]. والدافع الجنسي أساس تكوين الأسرة إذ يسكن كل زوج الى زوجه فيشعر بالراحة والأمن والطمأنينة وتنشأ بينهما عواطف المحبة والمودة والرحمة مما يؤدي الى استمرار الحياة الزوجية في وفاق وتعاون مما يهيئ الجو السليم لتنشئة الأطفال ورعايتهم وتكوين شخصياتهم تكويناً سليماً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾[٢٢]، وقد أشار القرآن الكريم الى دافع الأمومة بقوله تعالى: ﴿فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾[٢٣]، فالدوافع النفسية كما أشار اليها علماء النفس المحدثون اسم الدوافع النفسية – الاجتماعية؛ لأنها تشبع حاجات نفسية للفرد من جهة ولأنها تظهر أثناء تنشئة الفرد الاجتماعية ونتيجة لتفاعله الاجتماعي مع غيره من الناس من جهة

(١٧) المائدة: ٨٩.
(١٨) الحجر: ٤٨.
(١٩) الرعد: ٣
(٢٠) الذاريات: ٤٩
(٢١) يس: ٣٦.
(٢٢) الروم: ٢١.
(٢٣) القصص: ١٣

أخرى ويذهب معظم علماء النفس المحدثين الى أن الدوافع النفسية هي في الأغلب مكتسبة على أساس دوافعنا الفسيولوجية، أي أنهم يعدونها متفرعة أو مشتقة منها نتيجة تفاعلها مع خبرات الفرد وعوامل التنشئة الاجتماعية، فهم لا ينكرون وجود عوامل فطرية فمثلاً (أريك فروم) يقول: بأن الدوافع النفسية والتي يسميها فروم الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الانتماء والحاجة إلى السمو والحاجة الى هوية والحاجة إلى إطار للتوجيه هي حاجات فطرية اساس في طبيعة الإنسان وهي ليست مكتسبة من المجتمع[٢٤].

ويرى (ماسلو): أن الحاجات الروحية مثل دافع التدين والتمسك وحب الخير والحق والعدل وكره الشر والباطل والظلم هي حاجات فطرية يتوقف على إشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضوجه[٢٥].

ويظهر دافع العدوان في سلوك الإنسان العدواني تجاه الآخرين بهدف إلحاق الأذى بهم سواء أكان ذلك في صورة عدوان بدني أم في صورة عدوانية لفظي، وقد أشار القرآن الكريم الى دافع العدوان أثناء ذكره لقصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما لإخراجهما من الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[٢٦]، وتشير الآية الكريمة الى ما سيحدث من ظلم بعضهم لبعض، واعتداء بعضهم على بعض بسبب المنافسة والانسياق وراء شهواتهم وإغواء الشيطان لهم، ويشير القرآن الى دافع العدوان في سورة البقرة، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ

(٢٤) ادواردج، موراي. الدافعية والانفعال، ط ١، ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة، الكويت، ١٩٨٨، ص٨٨

(٢٥) أبو رياش، حسين محمد. التعلم المعرفي، ط ١، دار الميسرة، عمان الأردن، ٢٠٠٧، ص ٧٨.

(٢٦) طه: ١٢٣.

فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢٧).

وأشار القرآن الكريم الى دافع التنافس، والتنافس من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان من الثقافة التي ينشأ فيها وتقوم التربية الى يتلقاها الفرد بتوجهه الى النواحي التي يستحسن فيها التنافس من أجل تقدمه ورقيه وفقاً للقيم التي يتمسك بها المجتمع وقد يتعلم من الثقافة التي ينشأ فيها التنافس الاقتصادي، أو السياسي. أو العلمي، وقد حث القرآن الناس على التنافس في تقوى الله وعمل الخيرات ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(٢٨)، وقد أشار القرآن الكريم الى دافع التدين الذي له أساس فطري في طبيعة تكوين الإنسان فالإنسان يشعر في أعماق نفسه بدافع يدفعه الى البحث والتفكير لمعرفة خالقه وخالق الكون الى عبادته والتوسل إليه والالتجاء إليه طالباً منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها، وتبين بعض الآيات أن دافع التدين هو دافع فطري في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢٩). فالاعتراف بربوبية الله متأصل في فطرته وموجود منذ الأزل في أعماق روحه غير أن امتزاج الروح بالجسد وانشغال الإنسان بمطالب جسده وبمطالبه المختلفة التي تستلزمها حياته

(٢٧) البقرة: ٣٠.
(٢٨) المطففين: ٢٢- ٢٦.
(٢٩) الروم: ٣٠.

في الدنيا وعمارة الأرض قد جعل هذه المعرفة وهذا الاستعداد الفطري للتوحيد عرضة لأن تطمره الغفلة ويغمره النسيان ويطويه اللاشعور في أعماقه[٣٠].

وقد أشار القرآن الكريم الى الدوافع اللاشعورية وقد يشعر الإنسان أحياناً ببعض الرغبات أو الدوافع غير المقبولة أو المثيرة لقلقه فيعمل على إبعادها من دائرة وعيه أو شعوره مما يؤدي في النهاية الى كبتها في اللاشعور غير أنه كثيراً ما يحدث أن يقوم الإنسان بالتعبير عن هذه الرغبات والدوافع بطريقة لا شعورية في صورة فلتات اللسان وأخطاء الكلام وفي قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾[٣١][٣٢].

وفي علم النفس تقترن لفظة الضمير بجوانب عدة من ذلك مثلاً:

١ – الركن الأخلاقي.
٢ – التكوين الوجداني.
٣ – التحسس النوازع الخير والشر.
٤ – التنبيه الذاتي بشأن الخطأ السلوكي.
٥ – عنصر من عناصر البناء الكلي للشخصية.

فالضمير من وجهة نظر نفسية ينغرس نتيجة تربية تتسم بالتوجيه الضاغط إذا استدعت الضرورة وهذا التوجيه في إكساب الضمير يجد له صدى إيجابياً بل توكيدياً من لدن مدارس علم الاجتماع

(٣٠) بخيت، فاروق عطية يوسف. التربية الجنسية في ضوء القرآن الكريم والسنة، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٠، ص ٣٠.
(٣١) محمد: ٢٩– ٣٠.
(٣٢) زرق، أسعد. موسوعة علم النفس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧، ص ٢٦٣.

وعلى رأسهم (دور كايم) فهم يرون: أن التقليد والاحتذاء وسلطان البيئة والتأثير الحضاري والتفعيل الثقافي كلها قوى تتضافر لتشكيل الضمير عند الفرد، والضمير الفردي أساس للضمير الجمعي؛ لأن المجتمع ما هو إلا مجموع افراده كافة والحياة الاجتماعية من شأنها صقل الضمائر وتنقيتها[٣٣].

ويجب أن يحذر المرء من الوقوع في بروان الشر بدعوى الرضا عن الضمير فكم من إنسان قد يرتكب السوء وحين تسأل عن فعلته يجيب بأنه راضٍ عن ضميره فسلوكه سلبي ورضا ضميره زائف نظراً لسوء اعتقاد منه فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٣٤]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٣٥].

(٣٣) Basin, F. – (1969) Consciousness and Unconsciousness، M. Cole Basic Book ، New York p:63

(٣٤) هود: ١١٢.

(٣٥) فصلت: ٤٦.

المبحث الثاني
الانفعالات في القرآن

وقد أشار القرآن الكريم الى الانفعالات بوصف دقيق لكثير من الانفعالات، فعلم النفس قد تناول مواضيع كثيرة عن الانفعالات ودراستها ومنها هي:

١ - الخوف:

انفعال الخوف من الانفعالات المهمة في حياة الإنسان؛ لأن يكون منبه على الحذر من الأخطاء التي تواجه الأفراد، ويساعد على الحياة والبقاء، ومن آياته مقروناً بإشباع دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[٣٦]، فالخوف من عذاب الله يدفع المؤمن الى تجنب الوقوع في المعاصي والى التمسك بالتقوى والانتظام في عبادة الله وعمل كل ما يرضيه والى ذلك اشار قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٣٧].

فقد وصف القرآن الكريم الخوف بأنه اضطراب ووصف بالزلزال الشديد الذي يهز الإنسان هزاً شديداً فيفقده القدرة على التفكير والسيطرة على النفس كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٣٨].

وما يصاحب هذا الخوف من حالة الذهول ويستجيب الإنسان عادة الى حالة الخوف بالهرب والابتعاد[٣٩]. إما الانفعال الآخر وهو انفعال الغضب الذي يؤدي وظيفة مهمة للإنسان تزيد من طاقاته على القيام بالمجهود العضلي العنيف مما يمكنه الدفاع عن النفس أو التغلب على العقبات التي تفوقه عن تحقيق أهدافه المهمة وقد نوه القرآن الى استخدام الشدة مع الكفار الذين يقاومون انتشار الإسلام وهي شدة نابعة من الغضب في سبيل الله وفي سبيل نشر دعوته فقال في وصف الرسول صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤٠].

وكذلك انفعال الحب الذي له دور مهم في حياة الإنسان فهو أساس الحياة الزوجية وتكوين الأسرة ورعاية الأبناء، وهو أساس التآلف بين الناس وتكوين العلاقات الإنسانية الحميمة وهو الرباط

(٣٦) قريش: ١-٤.
(٣٧) السجدة: ١٦.
(٣٨) الاحزاب: ١١.
(٣٩) عبد المحسن، يسري. القرآن يزيل هموم النفس، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٣٠-٣١.
(٤٠) الفتح: ٢٩.

الوثيق الذي يربط الإنسان بربه ويجعله يخلص في عبادته وفي اتباع منهجه والتمسك بشريعته وهو العلاقة التي تربط الرسول بالمؤمنين ويظهر الحب بأشكال مختلفة فقد يحب ذاته، ويحب الناس، ويحب زوجته وأولاده، ويحب المال، ويحب الله والرسول، ويحب الكون بكل ما فيه من مخلوقات الله تعالى، وإنَّ حبه لله حب عام وشامل يسع الكون كله وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(٤١)، ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤٢).

أما انفعال الفرح أو السرور وفيه يشعر الفرد بالراحة إذا نال ما تمناه وحصل على ما يجب أن يحصل عليه من مال أو نفوذ أو نجاح أو علم أو إيمان وتقوى فالفرح أمر نسبي يتوقف على أهداف الإنسان في الحياة، فمن كان هدفه في حياته التمسك بالإيمان والتقوى والعمل الصالح لكي يحصل على السعادة في الحياة الآخرة كان ذلك مصدر أمنه وطمأنينته وسروره، فذكر القرآن فرح الكفار بمتاع الحياة الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(٤٣).

أمّا الكره هو انفعال مضاد لانفعال الحب، وهو عبارة عن شعور بعدم الاستحسان وعدم التقبل أو الشعور بالنفور والاشمئزاز وبرغبة في الابتعاد عن الموضوعات التي تثير هذا الشعور سواء أكانت أشخاصاً أم اشياء أو أفعالاً وقد أشار القرآن الكريم الى ما يحدث من كراهية بين الأفراد، وضرب لنا كراهة الأزواج مثلاً،

(٤١) العاديات: ٨
(٤٢) الانفال: ٦٢- ٦٤.
(٤٣) الرعد: ٢٦.

ودعانا الى محاولة التغلب عليها حتى يمكن أن تستمر للحياة الزوجية كما قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٤٤).

أما الغيرة فهي انفعال مكدر بغيض يشعر به الإنسان عادة إذا شعر أن الشخص المحبوب يوجه انتباهه أو حبه الى شخص غيره، ومن أنواع الغيرة الشائعة ما يحدث بين الأخوة إذا ما شعر أحدهم أن والديه أو أحدهما يحب أحد أخوته أكثر منه، وقد عرض القرآن الكريم صورة للغيرة تجسدت في أخوة يوسف عليه السلام بسبب حب أبيهم يعقوب عليه السلام له ولأخيه الأصغر وتفضيله لهما عليهم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(٤٥).

أمّا انفعال الحزن مضادُ للفرح والسرور وهو يحدث إذا فقد الإنسان شخصاً عزيزاً أو شيئاً ذا قيمة كبيرة أو إذا حلت به كارثة ما أو فشل في تحقيق أمر مهم ويشعر الآباء والأمهات عادة بالحزن إذا ما غاب أبناؤهم عنهم أو إذا ما لحق بهم الأذى أو أصابهم مكروه وقد أشار القرآن الكريم الى حزن أم موسى عليه السلام حينما ابتعد عنها ابنها بعد أن وضعته في صندوق، والقت به في النهر، وقذف به الموج بعيداً عنها، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾(٤٦). وقال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾(٤٧).

أما انفعال الندم الذي ينشأ عن شعور الإنسان بالذنب وأسفه

(٤٤) النساء: ١٩- ٢٠.
(٤٥) يوسف: ٨ - ٩.
(٤٦) القصص: ١٣.
(٤٧) طه: ٤٠.

على ارتكابه ولومه لنفسه على ما فعل وتمنيه لو أن لم يفعل ذلك، ولوم الإنسان على نفسه وندمه على ما فعل فهومن العوامل المهمة في تقويم الشخصية الإنسان ودفعه الى تجنب الأفعال المشينة وارتكاب الذنوب التي تسبب الندم ولوم النفس، ولذلك فقد أقسم الله تعالى تقديراً لأهميتها في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(٤٨).

وأول الشعور بالندم ما حدث لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام وهما في الجنة وقبل هبوطهما الى الأرض، فقد أكلا من الشجرة التي نهاهما عن الاقتراب منها وظهرت سوءاتهما فشعرا بالندم وتوجها الى الله تعالى يطلبان المغفرة والتوبة. من قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَاآدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٤٩).

المبحث الثالث
العلاج بالقرآن الكريم

نزل القرآن الكريم أساساً لهداية الناس ولتعليمهم قيماً جديدة، قال تعالى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٥٠)، فمن دون تحسس سكينة النفس واستقرار القلب يبقى الفرد متوجساً خائفاً فلا يرد اليه هدوءه إلا الإيمان بحلاوته، فيجعله مستقراً بلا خوف ولا هم ولا حزن وهذا ما تؤكده الدراسات النفسية، فكثير من النصائح والإرشادات في القرآن الكريم والطرق الصحيحة توجيه تربية النفس وبلوغ الكمال(٥١).

(٤٨) القيامة: ١- ٢.
(٤٩) البقرة: ٣٥.
(٥٠) البقرة: ٣٨.
(٥١) الجسماني، عبد العلي. القرآن وعلم النفس ورقي عقل الإنسان بالعلم والإيمان، ط ١، ج٨، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ٢٠٠٣، ص ٩٥- ٩٦.

وقد أشار الله تعالى الى وظيفة القرآن هذه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ...﴾[٥٢]، وقوله ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٥٣].

ولا شك أن في القرآن الكريم طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان، فهو يهز وجدانه ويرهق إحساسه ومشاعره ويصقل روحه ويوقظ إدراكه وتفكيره ويجلي بصيرته فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنساناً جديداً وكأنه خلق خلقاً جديداً[٥٤].

إن الإيمان بالله تعالى واتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن وبينته السنة الشريفة هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق، والطريق الوحيد الذي يؤدي الى تحقيق أمن الإنسان وسعادته وإن فقدان الإيمان بالله وعدم أتباع منهجه في الحياة يؤدي الى الهم والقلق والشقاء[٥٥].

وقد اتبع القرآن الكريم لعلاج الأشخاص وتربيتهم وتوجيه سلوكهم أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة، التي يريد أن يغرسها في نفوسهم، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة ومنها الصلاة والصيام والزكاة، والحج هذه جميعها تعلم المؤمن الصبر وتحمل المشاق ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائه وشهواته كما يعلمه ذلك حب الناس وحب الناس اليه، وينمي في نفسه روح التعاون والتكافل الاجتماعي[٥٦].

فالعلاج النفسي تأثير عجيب يتم العلاج به بشرط الاستجابة

(٥٢) فصلت: ٤٤.
(٥٣) الجاثية: ٢٠.
(٥٤) الغالبي، بلقاسم محمد. ملامح الأعجاز النفسي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠٠٧، ص ١٣٨.
(٥٥) الجسماني، عبد العلي. القرآن وعلم النفس، ط١، ج١، دار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، ص ٦٠.
(٥٦) الجسماني، عبد العلي. القرآن وعلم النفس الشخصية المسلمة حسب المنهج القرآني، ط١، ج٧، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ٢٠٠١، ص ١٦٨.

بل ان صلاح القلب في مثل هذه الحالات النفسية وسعادته موقوف على ذكر القرآن وتلاوته قال تعالى ﴿إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾(٥٧)؛ فأخبر عز وجل أنَّ الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال تعالى: ﴿انَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٥٨)؛ وذلك لأن من أحدث طرق العلاج النفسي عند الأطباء السلوكيين هو تدريب المريض النفسي على الاسترخاء في أي موقف يكون فيه وذلك في جلسات متكررة، فإذا غضب مثلاً وهو واقف طلب منه أن يجلس ويسترخي حتى يذهب عنه الغضب، وهذا ما يسمى بتشكيل السلوك وقد أثبتت الدراسات أن تلاوة القرآن الكريم بخشوع له تأثير في الأمراض النفسية والجسدية، فيتأثر ما في البدن من إفراز بحالات الاكتئاب والقلق والفرح والسروح ففي دراسة في مصر أجرتها احدى الباحثات في جامعة عين شمس أن القرآن الكريم كشف طريق جديدة لمعالجة الأطفال الذين تتأخر عملية النطق عندهم إذ أوضحت الآية الكريمة من سورة «طه» والتي يتوجه منها سيدنا موسى بالدعاء للمولى عز وجل فيقول﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾(٥٩)؛ مؤكدة بأن اللسان به العديد من العقد يجب أن تحل حتى ينطق بها اللسان بالكلام، وإن ربط القرآن بين شرح الصدر وتيسير الأمر إذ قامت بتطبيقها على الأطفال متأخري النطق وذلك باستعمال الآية الكريمة على الكمبيوتر حتى يتمكن الأطفال من

(٥٧) يس: ٦٩.
(٥٨) ق: ٣٧.
(٥٩) طه: ٢٥- ٢٨.

قراءتها وتكرارها بحيث أكد ذلك عدد من الأطباء المتخصصين في مجال التخاطب أن أغلب الأطفال الذين يرددون كلمات في الدين مثل كلمة «الله أحد» لا يحدث لهم صعوبات في التخاطب وينطقون بالكلام مبكراً، كما طالبت الأمهات بمداومة الحديث مع الأطفال عقب مرور مرحلة الولادة ومحاولة دراسة القرآن من خلال الكاسيت وشاشات الحاسب الآلي[٦٠]، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[٦١].

خاتمة:

من خلال ما تقد تظهر لنا أهمية الصحة النفسية في الإسلام، وربطها بالمنبع الأصيل، والمنهج الرباني الذي أنزله الله ديناً للبشر، وهداية لهم في دياجير الظلم، فيه الهدى والنور، وفيه السعادة والحياة الطيبة، يحوي سبل الخير وطرق الرشاد لمن أراد الدلالة عليها، وبحث عن أسباب الحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦٢]، وكيف أرشد الإسلام الناس إلى طرق الصحة النفسية وأسبابها، وما هي مؤشرات الصحة النفسية في الإسلام، وما منهج الإسلام في تحقيق الصحة النفسية.

(٦٠) غياري، ثائر أحمد. أبو شعيرة، خالد محمد. سكيلوجيا الشخصية، ط١، مكتبة المجتمع العربي، عمان الأردن، ٢٠١٠، ص ٢٦٣.
(٦١) الشمس: ٥- ٧.
(٦٢) النحل: ٩٧.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- أبو رياش، حسين محمد، ٢٠٠٧، التعلم المعرفي، ط ١، دار الميسرة، عمان الأردن ٢٠٠٧.

٢- ادواردج، موراي. الدافعية والانفعال، ط ١، ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة، الكويت ، ١٩٨٨.

٣- الأزاروي، ريتشارد . الشخصية، ترجمة الدكتور سيد محمد غنيم، مصر، ١٩٩٤.

٤- بخيت، فاروق عطية يوسف. التربية الجنسية في ضوء القرآن الكريم والسنة، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٠.

٥- الجسماني، عبد العلي. القرآن وعلم النفس، ط ١، ج ١، دار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.

٦- القرآن وعلم النفس في المنهج القرآني، ط ١، ج ٤، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.

٧- القرآن وعلم النفس الشخصية المسلمة حسب المنهج القرآني، ط ١، ج ٧، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.

٨- القرآن وعلم النفس ورقي عقل الإنسان بالعلم والإيمان، ط ١، ج ٨، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ٢٠٠٣.

٩- زرق، أسعد. موسوعة علم النفس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧.

١٠- سيغموند، فرويد. التحليل النفسي، ط ٥، ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨.

١١- عبد المحسن، يسري . القرآن يزيل هموم النفس، القاهرة، ٢٠٠٥.

١٢- الغالي، بلقاسم محمد. ملامح الأعجاز النفسي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠٠٧.

١٣- غياري، ثائر أحمد، أبو شعيرة، خالد محمد. سكيلوجيا الشخصية، ط١، مكتبة المجتمع العربي، عمان الأردن، ٢٠١٠.

المصادر الأجنبية

* - Basin. F. (1969) Consciousness and Unconsciousness، M. Cole Basic Book، New York.